الشيخ العلامة

عبد الرزاق عفيفي

حياته العلمية، وجهوده الدعوية، وآثاره الحميدة

تأليف

محمد بن أحمد سيد أحمد

المدرس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة

تقديم وتقريظ

جماعة من كبار العلماء

بالمملكة العربية السعودية

الجزء الأول

المكتب الإسلامي

الشَّيخُ العلَّامَة

عَبدُ الرَّزَّاق عفيفي

حياته العلمية، وجهوده الدعوية، وآثاره الحميدة

ⓒ مكتبة السوادي، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أحمد. محمد بن أحمد سيد

الشيخ العلامة عبدالرزاق عفيفي: حياته العلمية وجهوده الدعوية وآثاره الحميدة. - الرياض.

٨٤٨ص: ١٧×٢٤سم

ردمك ١ - ٨ - ٩٠٧٤ - ٩٩٦٠

١ - عفيفي، عبدالرزاق، ت ١٤١٥هـ ٢ - العلماء المسلمون - تراجم

أ - العنوان

ديوي ٢١٠،٢٧ ١٨/١١٥٧

رقم الإيداع: ١٨/١١٥٧

ردمك: ١ - ٨ - ٩٠٧٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٨-١٤١٩هـ

يُطلب من مكتبة السوادي بجدة ومؤسسة الجريسي بالرياض والمكتب الإسلامي ببيروت

اهداءات ١٩٩٨

أ/ محمود عبد الرازق عفيفي

رجل أعمال

الشَّيخُ العلَّامة

عبد الرزاق عفيفي

حياته العلمية، وجهوده الدعوية، وآثاره الحميدة

تأليف

محمد بن أحمد سيد أحمد

المدرس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة

تقديم وتقريظ

جماعة من كبار العلماء

بالمملكة العربية السعودية

الجزء الأول

المكتب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ
نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا
فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»

القصص آية ٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أعرف عن فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ
التواضع والعلم الجم والسيرة الحميدة والعقيدة
الطيبة والحرص العظيم على أداء عمله على خير
وجه . وأنه من خيرة العلماء عقيدةً وعلماً
ودعوة وتعليماً مضى عليه في ذلك ما يقارب خمسين
عاماً ، ضاعف الله مثوبته ، ورفع درجته وخلفه
على المسلمين بأحسن الخلف وأصلح عقبه .

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

بسم الله الرحمن الرحيم

كانَ الشيخ عبد الرزّاق عفيفي - رَحمهُ الله - ذا عَقلٍ راجحٍ وبُعدِ نَظر وكثرةِ صمْت إلاّ إذا كانَ الكلام خيراً مَع مَاحبَاه الله بهِ مِنَ العِلم الراسِخ وَحُسْنِ التَعليم وَقِلّة الحَشو في كلامِه، وَكانَ رأيه محَل التوفِيق وَالسّدَاد، أسأل الله تَعالى لهُ المثوبَة وَالرضوَان وَأن يجمَعنَا بهِ وَإخوانَا المؤمِنينَ في أعالي الجنَان. إنه تعَالى هُوَ الوهّابُ المنّان.

محمّد بن صَالح العُثيمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ عبد الرزاق عفيفي - رحمهُ الله - من أفاضل العُلماء ومن القلائل الذين نرى منهم سمة أهل العلم وأدبهم ولُطفهم وأناتهم وفقههم.
التقيتهُ غير مرّة في مواسم الحجّ، وكنت أستمعُ إلى إجاباته العلميّة على استفتاءات الحُجّاج فكانت إجاباتٍ مُحكمة تدلّ على فقهٍ واتباعٍ ظاهرٍ لمنهج السَّلف رحمهُ الله[1].

محمّد ناصر الدّين الألباني

(١) نقلاً عن مجلة الأصالة - العددان الثالث عشر والرابع عشر وتاريخ ١٤١٥/٧/١٥ هـ.

شُكر وَاجِبٌ

أحمد الله تعالى على توفيقه وامتنانه، وعظيم فضله وتتابع إحسانه، وأشكره سبحانه على ما تفضَّل به عليَّ من نِعَمه الوافرة، فهو سبحانه مسدي كلَّ نعمة، ومُيسِّر كلَّ مهمة.

وعملاً بقول النبي ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**» فإنني أتقدم بالشكر الجزيل إلى أصحاب الفضيلة العلماء ومشايخنا الكرام، والشكر واجبٌ أولاً للأخوين الكريمين الأستاذ محمد نبيل بن عبد الرزاق عفيفي والأستاذ محمود بن عبد الرزاق عفيفي على جميل مساعدتهما وحُسن تعاونهما حتى وصل هذا العمل إلى منتهاه.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لصاحب الفضيلة معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد على تفضله بمراجعة ما كتبته وكتابة مقدمة اضافية لهذا الكتاب، على الرغم من كثرة مشاغله وتعدد مسؤولياته، فجزاه الله خيراً وضاعف مثوبته.

كما أنني أُزجي الشكر الجزيل والثناء الجميل إلى صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد، إمام وخطيب المسجد الحرام، الذي فرَّغ وقته لمتابعة ومراجعة فصول ومباحث هذا الكتاب على مدى عامين كاملين، استفدت خلالهما من ملاحظاته القيِّمة وتوجيهاته

السديدة والتي كانت سبباً في إثراء هذا الكتاب ووصوله إلى هذا النحو الذي ظهر عليه.

فجزاه الله خيراً وبارك في جهوده وسدد خطاه.

ولا يفوتني أن أذكر بالشكر والامتنان كلَّ مَنْ مدَّ إليَّ يد العون والمساعدة أو أسهم في إنجاز هذا العمل وإخراجه إلى حيِّز الوجود.

وفَّق الله الجميع لما يحبه ويرضاه، وجعل العمل خالصاً لوجهه الكريم.

محمد بن أحمد سيد أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف
والدعوة والإرشاد
مكتب الوزير

الرقم ١/٩/٢٦٣٦/ص ح
التاريخ ٢٤/١١/١٤١٧هـ
المشفوعات ١٨

فضيلة الأخ الكريم الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد وفقه الله

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد :

فأشكركم أجزل الشكر على ماتضمنته رسالتكم التي أرسلتم معها نسخة مما كتبتم عن الشيخ العلامة عبدالرزاق عفيفي رحمه الله .

وقد تم الاطلاع على مواضع منه ، فوجدته عملاً نافعاً ، بذلتم فيه جهوداً طيبة ، وتضمن من المعلومات المفيدة الجديدة ماجعله سفراً قيماً ، ومرجعاً مهماً في موضوعه .

أسأل الله عزوجل أن يتغمد الشيخ عبدالرزاق برحمته ، ويجزيكم على جهدكم خير الجزاء ، وينفع به .

وقد سجلت مارأيت في أثناء قراءة الكتاب بعض الملحوظات العابرة ، سواء أكانت في الطبع أم في غيره .

وبيانها مرافق لرسالتي هذه ، مع مقدمة له .

راجياً تأمل مافي البيان ، والإفادة منه قدر الإمكان .

أحبكم الله الذي أحببتموني فيه ، واستجاب لدعائكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم

عبد الله بن عبدالمحسن التركي

٢٤/١١

وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

مقدمة بقلم

فضيلة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

الحمد لله، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله صلَّى الله وسلَّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن العلم من أوصاف الكمال، والتماس العلم والجد في طلبه وتحصيله، من أفضل ما تنافس فيه المتنافسون، وسابق إليه أولو الألباب وأصحاب الهمم، وقد أعلى الله سبحانه شأن العلم ومقامه، ورفع أهله، ونوَّه بذكرهم، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته على أعظم مشهود به، وهو توحيده تعالى وقيامه بالعدل، وقد تضافر في الدلالة على ذلك جملة من آيات القرآن العظيم:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾.

وقال تبارك وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

وإذا كان لأهل العلم من الناس فضل على من سواهم، فإن لأهل العلم بالوحي وما جاء في الكتاب والسنة اختصاصاً وتميزاً وتقدماً، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

ومن المقرر أن شرف العلم بشرف المعلوم، وأن العلماء يتفاوتون في درجاتهم ومنازلهم، فالعلماء بالله وبحقوقه عز وجل وبدينه، هم خير العلماء وأفضلهم، لأنهم ورثة الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- وخلفاؤهم في أممهم، ورثوا عنهم العلم النافع، الذي به هداية الناس إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى رضوان الله وكرامته، وبلَّغوا ذلك للناس.

وهؤلاء العلماء، هم الذين يجددون ما دَرَسَ من علم النبوة، ويبينون للناس ما جاء به الأنبياء والمرسلون -عليهم الصلاة والسلام- فهم أنفع الناس بعد الرسل والنبيين، لما يحصل على أيديهم من هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبيان ما نزل إليهم من ربهم وما بُعث به الأنبياء والمرسلون.

ومن هذه الإشارة، تتضح حاجة الناس إلى العلماء الربانيين، لما لهم من الآثار المحمودة في الأمة.

ويتضح أيضاً، شدة مصيبة الأمة بفقد علمائها، وفداحة خَطْبها بوفاتهم، لأن الأمة تفقد -بوفاة علمائها- أئمتها وهداتها.

وبقبض العلماء، يُقبض العلم ويظهر الجهل والضلال، كما قال النبي ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن

يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، فَسُئِلوا، فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وأَضلُّوا».

فالمصاب -بوفاة العلماء- عظيم والخطب جلل.

ومن آخر العلماء الذين أصيبت الأمة الإسلامية بفقدهم، شيخنا العلامة، الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- الذي توفي بمدينة الرياض يوم الخميس في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول من عام خمس عشرة وأربعمائة وألف من هجرة نبينا محمد ﷺ، وكان مولده -رحمه الله- في عام ١٣٢٣هـ بشنشور التابعة لمركز أشمون بمحافظة المنوفية في جمهورية مصر العربية.

وهناك تلقى تعليمه في المراحل الأولى، ثم التحق بالأزهر في القاهرة، ومنح الشهادة العالمية عام ١٣٥١هـ، ثم شهادة التخصص في الفقه عام ١٣٥٥هـ.

وفي عام ١٣٦٨هـ قدم إلى المملكة العربية السعودية للتدريس فيها حيث درّس في دار التوحيد بالطائف، ثم في معهد عنيزة العلمي، ثم في معهد الرياض العلمي، فكلية الشريعة واللغة العربية.

ولما تأسس المعهد العالي للقضاء عام ١٣٨٥هـ عُيِّن مديراً له.

ثم انتقل عام ١٣٩١هـ إلى الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، حيث عُيِّن نائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء إلى جانب عضويته في مجلس هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، وقد رزقه الله مواهب متعددة، وانتفع به خلق من طلاب العلم.

لقد عرفت الشيخ -رحمه الله-، أستاذاً في كلية الشريعة بالرياض، ثم في المعهد العالي للقضاء، وتوثقت صلتي به، حينما أشرف عليَّ في إعداد رسالة الماجستير، عن أسباب اختلاف الفقهاء.

حيث لازمته في أثناء إعدادها، واستفدت كثيراً من علمه وأسلوبه، وما تميز به في العلم والعمل.

عالم متمكن في علوم الكتاب والسنة، والأصول، واللغة العربية.

متميز في اقتفاء سلف الأمة الصالح في مجال العقيدة، واستنباط الأحكام، وتأويل الآيات، والنظرة إلى ما يجري في حياة الناس، والأسلوب الأمثل لإصلاحهم، وطاعة ولي الأمر بالمعروف، والتناصح والتشاور والتواد بين طلاب العلم، والحرص على الألفة والاجتماع، والابتعاد عما يثير الضغائن والأحقاد، والإخلاص في العمل، ابتغاء مرضات الله سبحانه.

يبتعد -رحمه الله- عن المظاهر، وما قد يؤثر في الإخلاص. محب للخير، باذل للمعروف.

استفاد كثيراً بعد انتقاله إلى المملكة العربية السعودية، ومعاصرته لعلمائها، وأهل العلم والوجاهة فيها.

حتى أصبح وكأنه أحدهم، بل لقي عندهم من الإكرام ما لم يبلغه غيره، تقديراً من ولاة الأمر في المملكة وعلمائها وأهل الخير فيها للعلماء المخلصين الصادقين.

كان لديه تميز علمي قبل مجيئه للمملكة، وعناية بكتب السلف الصالح، وبخاصة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله.

وازدادت تلك العناية بعد انتقاله للمملكة، وتوليه التدريس في معاهدها وكلياتها، واختلاطه بعلمائها ومشايخها، وعلى رأسهم سماحة والدنا وشيخنا العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله- رحمة واسعة، والذي كان قمة في العلم والعمل والورع والصدق، والغيرة على الدين وأهله.

لقد استفاد الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- ، من الجو الذي تعيشه المملكة العربية السعودية، بتوفيق الله تعالى، ثم بحرص حكامها منذ عهد المؤسس الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود -رحمه الله-، وإلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود - أيده الله- على تطبيق شريعة الله، وتكريم العلماء، والحرص على التزام منهج السلف الصالح في العلم والعمل، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

استفاد الشيخ من هذا الواقع الإسلامي الصحيح، الذي يعتبر ثمرة من ثمار الدعوة المباركة التي قام بها ودعا إليها الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-، ونصرها وآزرها، ومكن لها الإمام المجاهد محمد بن سعود -رحمه الله-، مؤسس الدولة السعودية المباركة.

قرأ الشيخ عبد الرزاق، غالب كتب إمام الدعوة وتلامذته، وصادف ذلك ذهناً وقّاداً، وأساساً علمياً مكيناً، وتوجهاً صادقاً للعلم والعمل، هكذا نحسبه من تتلمذنا عليه ومعايشتنا له، والله سبحانه وتعالى حسيبه وحسيبنا جميعاً، نسأل الله أن يجعله لديه من المقبولين الذين ينالون أعظم الجزاء وأوفاه.

اشتركت مع الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله-، بحكم مسؤوليتي في

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، في بعض الأعمال والمجال واللجان، مما زادني منه قرباً ومعرفة، وزادت صلتي به -رحمه الله- ثمانية أعوام، كان فيها إماماً لمسجد الحي الذي أسكن فيه، يؤمنا في الصلاة، ويلقي الدروس والكلمات التوجيهية قبل الصلاة أو بعدها، ويحرص عدد كبير من طلاب العلم، وراغبي سماع الخير في الرياض على حضور دروسه وكلماته، التي كان يحرص فيها على ما يفيد، وعلى ما للحديث فيه ثمرة عملية.

يبتعد عن الأمور النظرية الجدلية، وعن تهييج الناس فيما لا نفع وراءه، ولا أثر عملي له.

يقدر -رحمه الله- المصالح، ويحرص عليها، ويلحظ المفاسد ويحذر منها.

كان -رحمه الله- مدرسة متكاملة، يصعب عليَّ في مقدمة موجزة أن أتطرق لجوانب شخصيته أو أعماله، ولكن أبناءه وتلامذته، ومعظم كبار طلاب العلم في المملكة العربية السعودية اليوم، يعرفون ذلك ويدركونه، ويقدرونه حق قدره وعندهم الشيء الكثير من ذلك.

ومن الوفاء للشيخ -رحمه الله- التعريف به وبجهوده، لما يُرْجى ويُؤَمَّلُ من حفز همم طلاب العلم على التأسي به في جده ومثابرته وصبره، وحُسن بلائه في نُصرة التوحيد والعناية به، والتمسك بالسنة ونشرها، ولزوم الحكمة والأناة وحسن النظر في الأمور وعواقبها، فقد كان إماماً في ذلك.

ومن الإسهام في هذا الباب، ما كتبه فضيلة الأخ الشيخ محمد بن

أحمد سيد أحمد بعنوان: «الشيخ عبد الرزاق عفيفي، حياته العلمية وجهوده الدعوية وآثاره الحميدة».

فإن هذا الكتاب جهد طيب وعمل مشكور، بيَّن فيه مؤلفه جملة من جوانب حياة الشيخ، والأمور المتعلقة به، وأورد فيه نماذج من رسائله وتعليقاته ونقده وتعقيباته.

فهو كتاب جامع، ومن أوفى ما كتب عن الشيخ -رحمه الله-فيما أعلم، وقد رغب إلي مؤلفه -جزاه الله خيراً- باعتباري أحد تلاميذ الشيخ العارفين به، أن أقدم له، وقد تصفحت مواضع منه على عجل، وأبديت لمؤلفه بعض الملاحظ التي لا يخلو منها جهد بشر، ولعله في فرصة أخرى يستخلص المجال العلمي الذي تميز به فضيلة الشيخ عبد الرزاق عن غيره، فيستجليه ويركز عليه، في بحث مستقل، أو أبحاث متتابعة، وعلى وجه الخصوص في مجال العقيدة والأصول والتفسير، فللشيخ -رحمه الله- في هذه العلوم، تميز يعرفه طلابه والملازمون له، كما إن له رسائل مكتوبة، ومحاضرات وتعليقات، من الخير نشرها لطلاب العلم.

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجزي مؤلفه خيراً، وأن يغفر لشيخنا عبد الرزاق عفيفي، ويرفع درجاته، وأن يُعوِّضَ المسلمين خيراً.

وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي
وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

تقاريظ الكتاب

(١)

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام
رئيس محكمة التمييز بمكة المكرمة
وعضو هيئة كبار العلماء
بالمملكة العربية السعودية

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[1].

أما بعد :

فإن الكتابة عن العلماء والاطلاع على سِيَرِهم، عمل تهنأ به النفس، وينشرح له الصدر، ويتفتح له القلب، وتستريح في ظله الخواطر، وتتسع في رحابه الأبصار والبصائر، كيف لا والعلماء ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل في أممهم، وهم الحملة العدول الذين ينفون عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ومن هؤلاء العلماء العدول نحسبه كذلك -ولا نزكي على الله أحداً- سماحة شيخنا الشيخ عبد الرزاق عفيفي- رحمه الله تعالى.

لعلِّي أوّل طـــالب من الطلاب في المملكة العربية السعودية، قرأ عليه واستفـــاد منه، فقد كنتُ حاجاً عام (١٣٦٨هـ) وقابلت سماحة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع في منزله بمكة المكرمة فأخبرني أنه تعاقد مع ثلاثة عشر عالماً أزهرياً للتدريس في مدرسة «دار التوحيد» بالطائف، والذي علق بذهنه من أسمائهم هو الشيخ عبد الرزاق عفيفي، فقد أثنى عليه ووصفه بالعلم الواسع وسلامة العقيدة، وأنه على منهج السلف الصالح فيما يعتقدون.

فما بدأتْ الدراسة عام (١٣٦٩هـ) إلا وهؤلاء العلماء الكبار يتوافدون على الطائف ووجدت في نفسي شوقاً لرؤية هذا العالم الكبير

(١) سورة الأحزاب: الآيتان (٧٠، ٧١).

السلفي، وعندما وصل الشيخ إلى أرض الحرمين الشريفين، التقيت به وقد ارتدى لباسه المصري الأزهري فعرفته بنفسي فاستقبلني أحسن استقبال.

وصار يُدرسنا - نحن طلاب الصف الرابع- فإذا كان عند غيرنا من الفصول أحاول أن أحضر درسه لكمال ثقتي بسعة علمه وثقتي بسلفيته.

ثم صرت أذهب إليه في منزله بالطائف بعد صلاة الصبح وأقرأ عليه علوماً غير مقررة في (الدار) وكنت ألاحقه بالأسئلة فيما بين الحصص.

وقد تجلى لي علمه الواسع ومعتقده السلفي وإخلاصه في عمله، ومن هذه المعرفة بأحواله تحقق عندي أن هذا العالم سينال حظوة في هذه البلاد، وسيتمكن فيها حتى يصير من أهلها، فصدقتْ الفراسة فيه.

فالشيخ عبد الرزاق -رحمه الله تعالى- عمل في كثير من مناطق المملكة فلا تسمع إلا ثناءً وإطراءً من المسؤولين وعموم من عرفه من المواطنين، هذا مع بعده عن الشهرة وزهده في الظهور وانطوائه على نفسه مكتفياً بالقيام بعمله وأداء عبادته والانشغال بشؤونه.

أما علمه فقد درّسنا في «دار التوحيد» ومعه نحو عشرين عالماً من كبار العلماء، فإنهم اختيروا من كبار علماء الأزهر وقت قوته ونهضته.

كنا -نحن الطلاب- نبحث مع المدرس منهم، نسأله بعض الأسئلة فيجيب، ولكن في حدود مادته ولايرضى أن نخرج به عن محيطه.

أمّا الشيخ عبد الرزاق، فصدره منفتح لكل سائل، ويجيب عن كل مسألة وبحث وبشكل موسع وكأننا نغرف من بحر.

وإذا شرع في تفسير آية أو شرح حديث أراك العجب فيما يستنبط من الأحكام والآداب، فهو موسوعة في كل العلوم الشرعية النقلية، والعلوم العقلية والعلوم العربية. وهو صاحب عقيدة سلفية اختارها عن علم وفهم.

وهو صاحب حجة وذاكرة قوية تسعفه عند الجدال بالحق، فلا ينهزم لأنه لا يقول إلا فيما يعتقد، وهو لا يعتقد إلا ما وافق الحق.

وهو صاحب دين قويم، سلوكه القيام بالحق ومناصرته، وهو ذو فراسة وفطنة فلا تخدعه المظاهر الكاذبة.

وهو صاحب عفة وزهد فلا تحرفه المغريات ولا تحيله المطامع.

بهذا كله ملك القلوب وآمال إليه النفوس فتبوأ منزلة من أهل العلم مكينة فلا تراهم يدعونه إلا بشيخهم ووالدهم.

ولذا تأثر طلابه ومحبوه لوفاته وحزنوا حزناً بليغاً وأحسوا بفراغ كبير لفقده ووحشة لفراقه، ولكنهم يرجعون في مصابهم إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

ومما يذكر فيشكر، ما قام به أخونا فضيلة الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد المدرس بدار الحديث الخيرية من جمع تراث الشيخ وبحوثه وتعليقاته على بعض الكتب وتعقباته لكتابات بعض المعاصرين من الكتاب والمفكرين.

والحقيقة أن هذا الجمع الموفق له أثره الكبير. فإن سيرة مثل هذا العالم الكبير وأخباره لهي قدوة للأجيال المقبلة الصاعدة التي تنشد الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة.. ونِعْمَ الشيخ عبد الرزاق أسوة وقدوة في علمه

وجهاده وسلوكه وصبره على البلاء مبتغياً رضى الله تعالى، فهذا الرجل قدوة حسنة ومثال يحتذى في فعل الخير.

فإذا جمع الشيخ محمد أحمد هذه الآثار الطيبة وذلك التراث المفيد وحفظه عن الضياع، فإنه بذلك أسدى إلى القراء عامة وإلى الشباب خاصة حسنة كبيرة هي عنوان نجاحهم في الدنيا وفي الآخرة.

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد للجميع وأن يجعله خالصاً لوجهه.

والحمد لله رب العالمين.

وكتبه تلميذه
عبد الله بن عبد الرحمن البسام
١٤١٧/٨/١٦هـ

(٢)

فضيلة الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع
القاضي بمحكمة التمييز بمكة المكرمة
وعضو هيئة كبار العلماء
بالمملكة العربية السعودية

الحمد لله الحي القيوم، والشكر لله فاطر السماوات والأرض، والصلاة والسلام على رسول الهدى، والقدوة المثلى في الاهتداء والتقوى، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.. *أما بعد* :

فحقاً ما ذكره، ﷺ، بأن العلم يُنتزع من هذه الأُمّة بوفاة علمائها، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد كان عندنا جبال من العلم، يهدون بالحق وبه يصدعون، فتهاووا كما تتهاوى الكواكب من السماء، فلا نجد لمن يختفي منهم تعويضاً، ومنذ سنوات انتقل إلى رحمة الله جبل من جبال العلم والحجى والصلاح والإصلاح، هو سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله- وبعد ذلك بمدة لحقه جبل ثانٍ من جبال العلم والحكمة هو شيخنا عبد الله بن محمد بن حميد -رحمه الله- ثم لحق بهما جبل ثالث من جبال العلم والصلاح والتقوى والأمانة في العقيدة وسلامة الاعتقاد، شيخنا الجليل الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- فلقد كان صرحاً شامخاً في العلم والاجتهاد وبعد النظر، غاية في التأمل والاستنباط

والحرص البالغ على نشر العلم وطرق تعلمه والتعايش مع طلبة العلم على مختلف مستوياتهم ومداركهم ومراحل تعلمهم، وأقول هذا ليس ظناً منّي بشيخنا ولكن أقول هذا عن تجربة واقعية ومعاناة صادقة، فلقد تشرفت بتلقي العلم من سماحته في جميع المراحل الدراسية، في المرحلة الثانوية في المعهد العلمي، وفي المرحلة الجامعية، في جامعة الإمام محمد بن سعود حينما كانت تُعرف بالمعاهد العلمية والكليات، وفي الدراسة العليا في المعهد العالي للقضاء في الرياض، فكان -رحمه الله- في «المعهد العلمي» شيخاً جليلاً، يعطي دروسه لطلاب علم في مستوى الابتدائي، يُحاول أن ينقل العلم إلى نفوسهم وقلوبهم بما يستطيعون فهمه وإدراكه، وقد أصاب، فكانت معلوماتنا في المواد التي ندرسها عليه جزلة ومركزة ومفيدة، وقد تلقيناها من سماحته بطريقة منطقية، رسخت في نفوسنا وعقولنا بحكم فهمها وإدراكها، ومخاطبة عقولنا بقبولها وثباتها، وكان -رحمه الله- في «الكليات» شيخاً ذا مقام متميز على زملائه في التدريس، وقد رأيناه عالماً كبيراً، غير ما رأيناه في المعهد يعطي دروسه لطلاب علم في مستوى متمكن من الفهم والإدراك.

وفي «المعهد العالي للقضاء» رأينا شيخنا، الشيخ عبد الرزاق عفيفي، عالماً متميزاً في علمه في الأصول والتفسير والحديث، لا يجاريه من زملائه أحد، لاسيّما في القدرة العجيبة على جذب أنظار طلابه إليه بما يستنبطه من المسائل العلمية في الفقه والاعتقاد، وبما يعطيه من تحليلات علمية في مسائل الخلاف والنظر والاعتبار، وكنا معشر طلابه نتابع التساؤل والاستغراب من قدرة شيخنا -رحمه الله- على التحوّل طبقاً لمستويات طلابه الفكرية، ومستويات قدرتهم على التحمل والاستيعاب، وهذه موهبة ومكرمة من الله تعالى لشيخنا عبد الرزاق رحمه الله.

وأذكر له -رحمه الله- واقعة حصلت لي مع سماحته، فقد كان مشرفاً على رسالتي «الماجستير» من معهد القضاء العالي، وفي جلسة مع سماحته لاستعراض ما كتبته، اختلفتُ معه في مسألة من مسائل البحث، فكنت أخالفه فيما رآه في هذه المسألة، ولم أستطع إقناعه، ولم يستطع إقناعي فقلت له: إذا كنت ستتمسك برأيك في هذه المسألة، فسآخذ برأيك بصفة مؤقتة حتى تنتهي مناقشة الرسالة، ثم أعود إلى رأيي المخالف لما تراه، فقال لي -رحمه الله-: يا عبد الله أنا أحترم الرأي العلمي في المسائل الاجتهادية وإن كنتُ لا أراه ما دام مبنياً على اجتهاد فلا أعتقد لنفسي العصمة في الإصابة ولا الخطأ لمخالفي، وعليك أن تجتهد في الاستزادة من الأدلة التي تدعم رأيك المخالف، وسأعتبر تمسكك برأيك منقبة علمية أكافؤك عليها، وفعلاً عملت بنصيحته وتوجيهه، وهذه المخالفة لسماحته في الرأي كانت في إحدى مسائل بحثي عن الأوراق النقدية، وقد أثبتها في البحث، وذكرت رأي سماحته المخالف لرأيي فرحم الله شيخنا رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

فلقد تعلمنا منه الحرية في الرأي في الحدود المعتبرة شرعاً، واحترام آراء الآخرين، والبعد عن التعصبات المذهبية، فمتى كانت المسألة متفقة مع النصوص الشرعية في الكتاب والسنة، أو كانت تحت مناط هذه الأصول، وهي الأسعد بالدليل من حيث النقل والعقل والأثر فلا عبرة بمخالفة من خالفها، وهكذا كان سلفنا الصالح في اجتهاداتهم وتصوراتهم، فجزى الله شيخنا أعظم الأجر وأجزله، فلقد تعلمنا منه العلم وطرق استنباطه والأصول في تحصيله والاجتهاد وعدم التعصب للرأي واتهامه بالخطأ والنظر في تحقيق ذلك، وفضلاً عن اعتبار شيخنا - الشيخ عبد الرزاق، من أكبر مشائخي، وأكثرهم تميُّزاً وتحصيلاً واستزادةً، فقد

تشرفت بمزاملته حينما كنت عضواً في الإفتاء، وفي اللجنة الدائمة في البحوث العلمية والإفتاء، وكان سماحته نائب الرئيس، وقد سعدت بمزاملته، واعتبرت هذه الزمالة وصلاً علمياً لتلقي العلم من سماحته، فلقد انتفعت كثيراً بهذه الزمالة واعتبرتها مرحلة عليا للدراسة على سماحته.

فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجزاه عني خاصة وعن إخواني وزملائي في التلقي العلمي على سماحته خير الجزاء وأتمه وأوفاه.

والآن يقوم أحد أبنائه ومُحبِّيه وهو فضيلة الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد بطبع ما جمعه عن سماحته، من بحوث ومحاضرات وفتاوى ورسائل وتعليقات، وهو بهذا المجهود المبارك والسعي المشكور -أعني الشيخ محمد أحمد- قد حفظ لنا آثار علم من أعلام العلماء البارزين، وسجَّل لنا علوماً ومعارف من عالم كبير وبحر خضمٍّ في أصول الفقه وقواعد الاجتهاد والنظر والاعتبار، فرحم الله شيخنا الشيخ عبد الرزاق رحمة واسعة وجزى الله ابننا الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد خير جزاءٍ وأتمَّه وجعله مباركاً أينما كان، وجعل مجهوداته العلمية وصلاً لأعماله الصالحة في الحياة وبعد الممات.

والله المستعان، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

عبد الله بن سليمان بن منيع

عضو هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية،

والقاضي بمحكمة التمييز بمكة المكرمة

مقدمة
بقلم فضيلة الشيخ
الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد قدوة العلماء العاملين ورسول الله للعالمين أجمعين وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وَبَعْـد : فقد أحسن الظن بي أخونا الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد ففاتحني بعزمه على كتابة ترجمة واسعة للشيخ العالم العلامة عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- وأطلعني على تخطيطه لهذا المشروع فكان مخططاً عظيماً يُصوِّر همة عالية، راغباً منِّي -حفظه الله- أن أصاحبه في رحلته هذه لعله أن يجد عندي ما يعينه على وعثاء السفر ويخفف عنه عناء الطريق، وإنني أعلم من نفسي أنِّي لا أبلغ همة أخينا -وفقه الله- ولكنِّي وجدت أن رغبته في هذا الشأن لا ترد بل لعلها مما يفرح به كلّ محبٍّ للعلم والعلماء، ولاسيَّما أنها تتعلق بالشيخ عبد الرزاق - رحمه الله وعفا عنه - وهو مَن هو في المنزلة والمكانة لدى كل مَنْ عرفه أو اتصل به أو سمع عنه، فكان أن جرى التواصل بين المؤلف وبيني طيلة إعداد المشروع، فكنت متابعاً معه منذ كان فكرة حتى أتمه على هذا النحو الذي بين يديك أيها القارئ الكريم.

ولقد أعان الله بمنِّه وفضله فقرأت الكتاب كلَّه وتابعته في كلِّ مراحله جمعاً وتأليفاً وكتابة وسبكاً وصناعة وصياغة، راجياً أن أكون قد شاركت أخي محمداً أمنيته في أن يكون مرضياً للقارئ وبخاصة طلبة العلم وبوجه أخص مَنْ عرف الشيخ المترجم وأحبه -رحمه الله- لقد يسّر الله بمنِّه وفضله وأعان فكنَّا نُقلِّب صفحات هذا المشروع العظيم والسفر الجليل متأملين ما حبا الله الشيخ من علم وفضل وصلاح وتقى وورع وتواضع. ومن أجلِّ صور تواضعه عزوفه الشديد عن التأليف والنشر واللقاءات العامة على الرغم من أهليته وتمكنه وطول باعه وإلحاح محبيه وطلابه، ويزداد العجب حين تُدرك أن هذا العزوف والتواضع من هذا العَلَم الشامخ قد قيض الله له بعد وفاته من يحفظ علمه وتراثه ويُنقِّب ويُفتِّش في صحائفه ودفاتره وملفاته وماضي أيامه ما استطاع من أثر هنا في المملكة السعودية وفي مصر والاتصال بتلاميذه وزملائه حتى تحصَّل للمؤلِّف -حفظه الله- ما لا يمكن أن يحصل له ولا لغيره لولا توفيق الله سبحانه ثم ما نحسبه من صدق نية للمترجم إن شاء الله.

وإن القارئ الكريم سوف يُدرك الجهد الكبير والعمل المضني الذي بذله أخونا الشيخ محمد، مما أثمر قطوفاً دانية وثماراً يانعة من فنون العلم وأفانينه، في السيرة الذاتية والقدوة الصالحة -إن شاء الله- في العلم والعمل والورع والزهد والصدق وحب الخير للمسلمين والشفقة عليهم، في تعليم جاهلهم وتنبيه غافلهم ونصح مقصرهم والحنو على صغيرهم ومعرفة المنزلة لكبيرهم.

مضافاً إلى ذلك ما يسّر الله تسطيره وتدوينه من بسطٍ لعلوم الشيخ ومعارفه ومشاركاته في العقيدة والتوحيد والسُّنة والحديث والفقه

والأحكام، محاطاً ذلك بآلة العلم وأداته من أصول الفقه والمصطلح وعلوم العربية والمفيد من علم المنطق مما يُصوِّر عِلْم الشيخ وارتفاع مقامه وعلو كعبه ورسوخ قدمه في هذه العلوم والمعارف كلِّها فسبحان العليم الحكيم: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

يخرجون من بطون الأمهات لا يعلمون شيئاً ثم ينبتون في هذه الأرض فيكون منهم المنارات والمصابيح والسرج.

لقد كان الشيخ مناراً من منارات العلم الشامخة في علوها ومصباحاً من مصابيح الهدى الراسخة في ثباتها وسراجاً منيراً يضيء الدروب للسالكين هكذا نحسبه والله حسيبه وحسيب كلٍّ نفس بما عملت ولفظت.

إن المنتسبين إلى العلم في هذا العصر كثير، ولكن قلَّ منهم من يستقي العلم من منبعه ويسنده إلى أصله ويتبع القول العمل ويتحرى الصواب في كل ما يأتي وما يذر.

وإن من هؤلاء القلة القليلة -فيما أحسب ولا أزكي على الله أحداً- شيخنا المترجم، فلقد كان حسن الطريقة مرضي السيرة معتدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلن في مدخله ومخرجه وأحواله.

وإن من تكرار القول الإطالة في نعته وإطرائه، فهذا السفر الجليل حافل بمآثر الشيخ ليُصوِّر نشأته وحياته وتقلبه في مضمار العلم تعلماً وتعليماً، يطلب فرائده وفوائده ثم ينثره وينشره عقيدة وتوحيداً وفقهاً وأحكاماً وأصولاً وفروعاً ولغة ومناظرة.

---

(١) سورة النحل: الآية (٧٨).

وسوف يجسد هذا الكتاب -بإذن الله- شخصية المترجم عالماً عَلَماً فحلاً، يتجلى فيه العلم الغزير والدِّين الثابت والمعتقد الراسخ والكلام الدقيق والعقل الراجح والترجيح العميق.

انظر إليه وهو يُعلِّق على اختلاف العلماء في سيرة سيف الدين الآمدي عالم الأصول والأحكام وهم في اختلافهم فيه ما بين مادح وقادح، يقول صاحب اللسان العف الشيخ عبد الرزاق عفيفي:

«وقصارى القول أن العلماء لهم منازع شتى ومشارب متباينة فمن اتفقت نزعاتهم تحابوا وتناصروا وأثنى بعضهم على بعض خيراً، وإن اختلفت أفكارهم ووجهات نظرهم تناحروا وترامَوا بالنبال إلا من رحم الله..».

..ثم قال: وأسعدهم بالحق من كانت نزعته إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ووسعه ما وسع السلف مع رعاية ما ثبت من مقاصد الشريعة باستقراء نصوصها فكلما كان العالم أرعى لذلك وألزم له كان أقوم طريقاً وأهدى سبيلاً والمعصوم من عصمه الله. وكل يُؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ. وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، وما الآمدي إلا عالم من علماء البشر يخطئ ويصيب فلننتفع بالصواب من قوله ولنرد عليه خطأه ولنستغفر الله له وليكن شأننا معه كشأننا مع غيره من علماء المسلمين وليكن شعارنا مع الجميع:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر: الآية (١٠) انظر ص (١/١٠٠ ـ ١٠٢) من كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف الدين الآمدي.

أما في مجال العقيدة وميدانها الفسيح الرحب للنظر والجدل مع المخالفين فاستمع إليه وهو يردُّ شُبهة المبطلين فتراه ينبه إلى مسألة دقيقة ليربط الماضي بالحاضر بل يربط تاريخ البشرية كله في طبيعة لبني آدم واحدة فها هو يقول:

«ما من شبهة تذاع اليوم إلا وقد سبق لها شياطين الملحدين السابقين في العصور الأولى، ووقَّفها وردها وأبطلها أجلة علماء السلف ببراعة فائقة فلا سبيل أرشد من سبيلهم ولا هدٰى أقوم مما كانوا عليه. فالخير كل الخير في العودة إلى كتاب الله تلاوة له وتفقهاً فيه وإلى أحاديث المصطفى صاحب جوامع الكلم ﷺ دراية ورواية والفتيا بهذين الأصلين وعرض أعمال الناس عليهما فذلك هو الفلاح والرشاد الذي ليس بعده رشاد»[1].

وفي مسألة من دقائق العقيدة تأمل تقريره لها على المعتقد الحق معتقد السلف الصالح أهل السنة والجماعة تلك هي إثبات صفة الفوقية لله عز وجل فهو يقول -رحمه الله:

«... ومع هذا فقد تأوَّل كثير من المتأخرين الفوقية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بأنه تعالى خير من عباده وأنه خير من العرش وأفضل منه وهو كما ترى تأويل بعيد تنفر منه العقول الرشيدة وتأباه الفطرة السليمة فإنه لا تمجيد لله في ذلك ولا تعظيم له بل هو تأويل سمج مرذول فإنه يشبه قول القائل: الجبل أثقل من الحصى ورسول الله أفضل من اليهود والجوهر فوق قشر البصل أو قشر السمك ونحو ذلك مِمَّا التفاوت فيه عظيم. ولا شك أن التفاوت بين الله وبين عباده أعظم ولو

---

(١) راجع مجلة الهدى النبوي تحت عنوان (مبدأ وميثاق).

أن هذا المتأوِّل أثبت الفوقية مطلقاً فوقية الذات وفوقية القهر والغلبة وفوقية القدر والمنزلة لكان ذلك صواباً لاتفاقه مع نصوص الكتاب والسنة مع عدم المحذور أما أن يخص بتأويله نوعاً منها بلا دليل فذلك باطل»[1].

ومن شخصية المترجم الفقهية الأصولية يدرك الناظر في بحوث الشيخ ومباحثاته العمق والأصالة والشمول ودقة الاستيعاب والإحاطة، وأعظم ما يبرز في علمه وتمكنه ميله إلى التأصيل العلمي والتقعيد الفقهي وعقد المقارنة بين مذاهب المجتهدين، في عبارة أصولية دقيقة مع وضوح العرض ودقة المآخذ. وإنك لناظر في بعض مقالاتٍ للشيخ في هذا الباب مما حواه هذا السفر القيِّم ما تقر به العين كمبحث المعاملات المصرفية ومبحث البورصة وعلة الربا وقد ناقش الإمام ابن القيم - رحمه الله- في علة النقدين في طرح علمي أخَّاذ.

وبعد فهذه إشارات وشذرات مما أعان الله عليه أخانا الأستاذ الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد ليحفظ تراث الشيخ الجليل السلفي الإمـــام القدوة عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية بن عبد البر بن شرف الدين النوبي، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه بحبوحة جنته وجمعنا به ووالدينا ومشايخنا وإخواننا المسلمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر إنه سميع مجيب وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلَّم والحمد لله رب العالمين وكفى به هادياً ونصيراً.

وحرره

صالح بن عبد الله بن حميد

مكة المكرمة

٥ رمضان المعظم ١٤١٧هـ

---

(١) راجع ما كتبه في مبحث العرش والكرسي وما يتعلق بهما في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

مقدمة الناشر

بقلم: زهير الشاويش

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة على رسول الله.. أما بعد:

فإن من أجل النعم التي امتن الله بها على أمتنا أن حفظ علينا جهود الأقدمين وكريم أخلاقهم وحُسن فعالهم، ووجدنا فعل رسول الله ﷺ مع «أصحاب خديجة» وبره لهم بعد موتها. وسمعنا الثناء العاطر من علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، ومن أمثاله على أمثالهما مما هو مسطور في الكتب الصحيحة التي جمعت المناقب، واستمرت هذه السُنة الحسنة حتى يومنا هذا.

واليوم بعد أن فقدنا العلامة النحرير شيخنا المربي الجليل، رجل الوعي والألمعية الشيخ عبد الرزاق عفيفي عطية، واتسعت أخبار فقده في الأوساط الإسلامية بين العلماء والدعاة، وبين طلاب العلم ومدرسيه، مع أنه كان يراعي جانب ستر الحال، والابتعاد عن المظاهر التي يألفها بعض الناس واكتفى بتقديم العلم والنصح والنفع بأيسر طريق وأسهل سبيل، وكأنه يطبق الحديث النبوي الشريف عن المنفق في سبيل الله «الذي لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ومنذ مدة قريبة جرى بحث عن أصول الفقه في مجمع علمي، وذكر بعض من اشتهر في عصرنا بإتقان هذا الفن العجيب النادر، فذكر الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ محمد الخضر حسين والشيخ عبد الوهاب خلاف والشيخ عبد المجيد سليم، ثم كان ما يشبه الإجماع على أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي المتمكن في هذا الفن والأكثر علماً به ممن ذكروا مع أن بعضهم من مشايخه، ولكن غمره التواضع وإيثار البقاء وراء الظل. تغمد الله الجميع برحمته.

وتمنيت أن يكتب أحدهم سيرته العطرة، وقدر الله نجاح أمنيتي، وفوجئت بأخي العالم المحقق الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد يطرق أبواب المكتب الإسلامي لطباعة هذا الكتاب، الذي أقدم اليوم للناس عن العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي.

فبادرت ألتهم الكتاب نظراً وتصفحاً، ورأيت في حسن تبويبه وغزارة مادته، وأكداس الوثائق والكتب التي جمع منها الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد مادته.

ومعها خلاصة المقابلات التي أجراها مع العلماء، وما نقل عن كبارهم من كلمات دلت بما هو متيقن عندي من عظيم قدر الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله.

وبقيت مع الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد ما قدر الله من انقطاع إلى هذا العمل في بيروت والنظر فيه، ومحاولة إخراجه بما يليق بسيرة شيخنا الجليل، وما ينفع الناس.

ولا أكتم القارئ الكريم، أننا قد أخرنا الكثير من الموضوعات التي كتبها الشيخ محمد، وتركنا نشرها إلى مقبلات الأيام.

لأن بعضها يخرج عنه كونه جزءاً من رسالة تعريف بعالم، بل هي أبحاث كاملة تصلح أن تقدم رسائل علمية.

وبعضها الآخر لم نرَ من المصلحة أن ينشر على الناس، لأن فيه من دقائق العلم ومشكلات الأمور، ما يصعب عرضه على الناس، فلا بد له من إيضاح موسع لا تحتمله هذه الترجمة.

وإنك أخي القارئ الكريم ستجد في هذا الكتاب ما كان الشيخ عبد الرزاق يهتم به من أمور المسلمين من غير النواحي العلمية، من وساطات وشفاعات وإيثار للناس على نفسه، مما يجعله قدوة في المروءة قلّ نظيره، تغمده الله برحمته.

وأنني وأنا أُقدم هذا الكتاب القيّم الذي عمل على جمعه أخي الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد. وقد تجاوز الكتاب الـ ٨٤٨ صفحة.

وما تخلله من كلام طيب من أفاضل العلماء، وما جمع من أخباره العطرة.

أقول: إن منزلة الشيخ عبد الرزاق في نفسي أعظم وأكبر من هذا الكتاب، وقد فرحت بصدوره، وقديماً قيل: «ما لا يدرك كله لا يترك قِلُّه أو جله».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الشيخ العلامة

عبد الرزاق عفيفي

حياته العلمية، وجهوده الدعوية، وآثاره الحميدة

تأليف

محمد بن أحمد سيد أحمد

المدرس بدار الحديث الخيرية

تقديم وتقريظ

جماعة من كبار العلماء

بالمملكة العربية السعودية

المكتب الإسلامي

المقـدّمة

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رُسُلاً، وباعث الرُّسل مبشِّرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرُّسل، أحاط بكل شيء علماً، ووسع كلّ شيء رحمةً وحلماً، خلَق الإنسان وعلّمه، ورفع قدر العِلْم وعظّمه، وخصّ به مِن خَلْقه مَن كرَّمه، وحضَّ عباده المؤمنين على التفقه في الدِّين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الممتن على المؤمنين بفضله بذل لهم الإحسَان، وزيَّن في قلوبهم الإيمان، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله، ونبيُّه وصفيُّه ونجيُّه وخليله، وأمينه على وحيه وخيرته من خَلْقه، المبعوث بالدين القويم والخُلق العظيم، الموعود يوم القيامة مقاماً محموداً، وحوضاً موروداً وشرفاً مشهوداً، اختصه الله بالمحامد الكثيرة والمآثر الأثيرة، أرسله الله رحمة للعالمين، وقدوةً للعاملين، ومحجةً للسالكين وحُجة على العباد أجمعين، بعثه للإيمان منادياً، وللخليقة هادياً ولكتابه تالياً، ولمرضاته ساعياً وبالمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً.

أرسله الله على حين فترة من الرُّسل، وحاجة مِن البشر، فجاء ﷺ بالدلائل الواضحة والحجج القاطعة والبراهين الساطعة، أيقظ به

العقول مِن سُباتها، وصرف به النفوس عن أهوائها، فكان ﷺ مصدر خير ومبعث نور، وشمس هداية، بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونهض بالحُجَّة، ودعا إلى الحق وحضَّ على الصِّدق، فصلوات الله وسلامه عليه أفضل صلاةٍ وأنماها، وأطيبها وأزكاها، وأبقى الله في العالمين محبته، وفي المقربين مودته، وجعل في أعلى عليين درجته وعلى آله الطيبين الطاهرين.

ورضي الله عن أصحابه الطيِّبين المُطيَّبين، الذين آمنوا به واتبعوه، وعزروه ونصروه، ونقلوا لنا رسالته، وبلغونا أمانته، شهدوا الوحي والتنزيل وعرفوا التفسير وهم الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيِّه ﷺ ونصرته وإقامة دينه وإظهار حقه، وبذلوا في ذلك أنفُسهم ونَفِيسهم، فهدى الله بهم العباد وفتح على أيديهم البلاد، أبّر الأمة قلوباً، وأعمقها عِلْماً، وأحسنها عملاً وأقلّها تكلفاً، رضي الله عنهم وأرضاهم، ومَنْ اقتفىٰ أثرهم وسلك سبيلهم من العلماء العاملين والدعاة المصلحين، الذين فقهوا دين الله وأدركوا مراميه وفهموا مقاصده، واستنُّوا بهديه، وعملوا بأحكامه ودعوا إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

أما بعـــد:

فإن الله جلَّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه، لم يخلق خَلْقه عبثاً ولم يتركهم سُدى، بل خلقهم لأمر عظيم، وخَطْب جسيم، ورضي منهم باليسير من العمل، وتجاوز لهم عن الكثير من الزلل، أفاض عليهم النعمة وكتب على نفسه الرحمة.

ومن كمال رحمته وتمام نعمته أن هيَّأ لهذه الأمة -في كل فترة من الزمن- علماء عاملين، بصراء ناصحين، أمناء مخلصين، يُذكّرون الغافل، ويُعلِّمون الجاهل، يدعون مَنْ ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على

الأذى، هم أحسن الناس هدياً، وأقومهم سبيلاً، رفعهم الله بالعلم، وزينهم بالحلم، بعلمهم يُعرف الحلال من الحرام والحق من الباطل، والضار من النافع والحسَنُ مِن القبيح، فضلهم عظيم ونفعهم عميم، هم ورثة الأنبياء وخيار الأتقياء، وهم أئمة العباد ومنار البلاد، وقوام الأمّة وينابيع الحكمة، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ.

قال ابن القيم رحمه الله: (وهم -أي العلماء- في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب)[1].

كتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء -رضي الله عنهما- «**إنما مَثَلُ المُعلم كمثل رجل عمل سراجاً في طريق مُظلم يستضئ به مَن مرَّ به وكل يدعو إلى الخير**»[2].

ومما يدل على عِظَمِ منزلة العلماء أن الله تعالى أمر الناس بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم، وجعل علامة زيغهم وضلالهم ذهاب علمائهم واتخاذ الرؤوس مِن جهّالهم، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه مِن العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جُهّالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فَضَلّوا وأضلُّوا**»[3].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٩/١).

(٢) أخلاق العلماء للآجري (ص١٧).

(٣) رواه البخاري (الفتح ١/١٠٠) ومسلم (٢٦٧١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ولا شك أن موت العلماء كسر لا يُجبر، وثُلمة لا تُسد، ذلك أن العلم يموت بموت حامليه.

قال محمد بن الحسين: إذا مات العلماء تحيَّر الناس، ودرس العلم بموتهم وظهر الجهل، فإنا لله وإنا إليه راجعون، مصيبة ما أعظمها على المسلمين[1].

قال ابن عبد البر[2] رحمه الله: أنشدني أحمد بن عمر بن عبد الله في قصيدة له:

وذهاب العلم عنّا ... في ذهاب العلماء
فهم أركان دين الـ ... ـلّه في الأرض الفضاء
فجزاهم ربهم عنّـ ... ـا بمحمود الجزاء

وقال آخر:

تعلم ما الرزِّية فقد مالٍ ... ولا شاة تموت ولا بعير
ولكنَّ الرزية فقْد حَبر ... يموتُ بموتهِ خلْق كثير

ولكن الله تعالى برحمته وطَوْله، وقوته وحَوْله، ضمن بقاء طائفة من هذه الأمة على الحق لا يضرهم مَنْ خذلهم ولا مَنْ خالفهم، أولئك هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**». وفي رواية: «**لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**»[3].

---

(١) انظر أخلاق العلماء للآجري ص (١٧، ١٨).

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١٨٤/١).

(٣) رواه البخاري (الفتح ٧٣١١/١٣) ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

ومما لا شك فيه أن هذه الطائفة «هم ورثة الرُّسل وخلفاؤهم في أممهم وهم القائمون بما بُعثوا به علماً وعملاً، ودعوة الخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم». وهذا ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله في بيان طبقات المكلفين ومراتبهم في الآخرة وأكده بقوله: وهذه -الطبقة(1)- أفضل مراتب الخَلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصديقية، ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(2).

فجعل درجة الصدّيقية معطوفة على درجة النبوة، هؤلاء هم الربانيون وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم مَنْ خذلهم ولا مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾(3).

والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل مَنْ علم بتعليمهم وإرشادهم، أو علَّم غيره شيئاً من ذلك كان له مثل أجره ما دام ذلك جارياً في الأُمَّة على أبد الدهور، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك

---

(1) يشير إلى الطبقة الرابعة من طبقات المكلفين مع بيان مرتبتها، وانظر كتاب طريق الهجرتين (ص٦٢٩).

(2) سورة النساء: الآية (٦٩).

(3) سورة الحديد: الآية (١٩).

من حمر النعم»[1].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «من سنَّ في الإسلام سُنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل به لا ينقص من أجورهم شيء»[2]. وصح عنه ﷺ أيضاً أنه قال: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[3]. وصح عنه ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[4].

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «إن العالم يستغفر له من في السماوات والأرض حتى النملة في جحرها»[5]. وعنه ﷺ أنه قال: «إنَّ الله وملائكته يصلون على مُعلِّم الناس الخير»[6]. وعنه ﷺ أنه قال: «إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم، فمنْ أخذه أخذ بحظ عظيم وافر»[7]. وعنه ﷺ: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس بعد»[8]. وعنه ﷺ أنه قال: «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها»[9].

---

(١) رواه البخاري (الفتح ٣٧٠١/٧) ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٠١٧) في الزكاة، باب الحث على الصدقة.

(٣) رواه مسلم (١٦٣١) في الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

(٤) رواه البخاري (الفتح ٧١/١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وهو حديث صحيح صححه الألباني وغيره. وانظر صحيح سنن الترمذي (٢١٦١).

(٦) جزء من حديث رواه الترمذي (٢٨٢٦) وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح.

(٧) جزء من حديث رواه ابن ماجه (٢٢٣) والترمذي (٢٦٨٢) وصححه الألباني وغيره.

(٨) رواه الدارمي في سننه (١٠٧/١) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص٢٨) مرفوعاً وموقوفاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٩) رواه أحمد والترمذي (٢٦٥٧). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

والأحاديث في هذا كثيرة فيا لها من مرتبة، ما أعلاها ومنقبة ما أجلّها وأسماها أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاءً متمزقة، وصحف حسناته متزايدة يُملي فيها الحسنات كل وقت وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها وتوفر عليها الأوقات، وتتوجه نحوها الطلبات، وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماء في ملكوت السماء كما قال بعض السلف: من عَلِم وعَلَّم فذلك يُدعى عظيماً في ملكوت السماء[1].

إن السابر لأغوار التاريخ والمتعمق فيه، يدرك أن تاريخنا الإسلامي حافل بالعلماء الأعلام الذين أوقفوا حياتهم على طلب العلم وتعليمه، وتحملوا المتاعب والآلام، وتجشموا المصاعب والأخطار، في جمع شوارده واقتناص أوابده، واستنباط قوانينه وقواعده، وأنفقوا أثمن ما يملكونه من مال وجهد ووقت في سبيل هداية الخلق.

وإنني أرى أنَّ من حق هؤلاء العلماء علينا أن نُسجِّل سِيَرهم ونُدوّن أخبارهم، وإنَّه لمما يَسُرُّ أعظم السرور أن يكون الحديث متواصلاً عن العلماء، تبصيراً بسيرهم، وتعريفاً بحياتهم، وتذكيراً بأعمالهم، وبما كان لهم من الفضل مما أنتج الأثر العظيم الذي يعيشه أهل العلم اليوم، متواصلاً بجهد جهاد من كان قبلهم.

إن نشر تراجم العلماء والتذكير بفضائلهم، والتعريف بسير حياتهم وجهادهم من الأعمال التي تذكر فتُشكر.

---

(١) انظر طريق الهجرتين ص٦٢٩ ـ ٦٣٥.

ذلك أن الكتابة عن العلماء وتسجيل سِيَرهم بعد رحيلهم يقيها عدوان النسيان مع تباعد الأزمان، إلى جانب ما يحصل من الخير والنفع العاجل والآجل، ومن ذلك أن الناس يقتدون بهم، ويحذون حذوهم ويدعون لهم.

إن مما لا شك فيه أن اقتفاء سير مَنْ كان قبلنا من أهل العلم الذين قد شُهد لهم بالتحقيق، وشُهد لهم بالإمامة في السُّنة، وعُرفوا بنقل العلم صافياً عن الرعيل الأول، أقول: لا شك أن اقتفاء سيرهم سيكون له أبلغ الأثر في نفوس الشببة والناشئة من هذه الأمة ولأن الأمة إن لم يقتدِ شبابها بكهولها من العلماء، وإن لم يتصل أولئك بخبر من تقدم فبمن يتصلون وعمن يأخذون وبمن يقتدون.

وإنه لجميل أن تعرف هذه الأمة للعلماء فضلهم وتحفظ حقهم وتُجل قدرهم، وتنزلهم منازلهم اللائقة بهم، بوصفهم معالم هداها ومصابيح دُجاها.

وفضلاً عن ذلك، فإن تسجيل سِيَر العلماء تُعد بمثابة دعوة مفتوحة إلى رواد العلم ومحبي المعرفة ودعاة الحق لأخذ الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة من سِيَرهم القيّمة وأخلاقهم الفاضلة، بحيث يُلزم القارئ لسيرتهم نفسه بالتحلي بتلك الصفات الرفيعة والخلال الحسنة فيرد من حيث وردوا ويصدر من حيث صدروا، تأسياً بهم ومشابهةً لهم.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إنَّ التشبه بالكرام فلاح

وإنَّ من المحزن والمؤسف حقاً، بل ومن العقوق أن ينسى أبناء هذه الأمة دعاتهم المصلحين ورجالهم المخلصين وعلماءهم العاملين، الذين عبروا بهم إلى شواطئ النجاة وجنحوا بهم عن مراتع الهلكة ومواقع الفتن فسلمت لهم أبدانهم بعد أن سلمت قلوبهم.

ذلك أن صلاح الأمة لا يكون راسخ البناء ولا جميل الطلاء، ولا محمود العقبى إلا إذا كان موصولاً بحقائق الدين، ومصطبغاً بآداب الشرع، وذلك لا يكون ولن يكون إلا حين يقوم العلماء الربانيون بمسؤولياتهم وينهضوا بما استحفظوا من الدين، وما أُوتوا من العلم.

إن قاصد الحق، وصادق الهدف، يجد في سِيَر الصالحين، والعلماء العاملين، والأئمة المصلحين، ما يدفعه إلى صدق العزيمة وإخلاص النية والتجرد للحق ومجاهدة النفس، بل إن من أعظم الدروس المستفادة والعبر المستلهمة من موت العلماء العاملين، استشعار عظم المسؤولية بعد فقدهم، وتحمل أمانة الدعوة بعد رحيلهم، والتي تعتبر بحق واجبنا الأول في هذا العصر الذي ابتليت فيه الإنسانية بما أتلف أعصابها من تقدم مادي، وحضارة انفلت فيها زمام العقل وطغت في جنباتها ظلمات الإلحاد، وانحسرت القيم الخلقية عن حياة الناس فلم تعد تتدخل في شؤونهم بعد أن كانت هي الفيصل بينهم.

عصر يضم بين آفاته أُمماً وشعوباً من البشر مُثقلة كواهلها بالأزمات النفسية والمادية والفكرية، ولا سبيل إلى التخلص من هذه الأزمات على اختلاف ألوانها وأنواعها إلا بالإسلام الذي كمَّل الله به شرائعه العملية في شريعته الخاتمة، ونظَّم به الحياة الإنسانية نظاماً كاملاً في علاقاتها أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً، وحاكمين ومحكومين، فلا عبودية إلا لله، ولا انقياد إلا لأمره، ولا استسلام إلا له سبحانه، وبهذه الصورة العامة الخالدة الواضحة، جاء الإسلام نظاماً عاماً للحياة كلها، خاتماً لوحي السماء على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبهذه الصورة الكاملة رضيه الله تعالى ديناً للإنسانية وامتن به عليها، باعتباره نعمته العظمى على عباده، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

إن الإسلام منذ أن أنزله الله قد فهمه المسلمون الأوائل على أنه دين الله الذي بعث به رُسله، حتى إذا اكتمل للإنسانية رشدها، وبلغ عقلها منزلة القيادة في الكشف عن أسرار الكون، ختم الله النبوة بخاتم النبيين محمد ﷺ، وأنزل عليه القرآن الحكيم دستوراً عاماً شاملاً خالداً، بما اشتمل عليه من قواعد الأحكام وأصول العقائد ودعائم الأخلاق، وأسس السياسة والاجتماع.

ومن هذا كلِّه يتبين أنَّ على علماء الدين وحُرَّاس الملّة ودعاة الحق، مسؤولية عُظمى، وفي أعناقهم أمانة كبرى، فهم مؤتمنون في علمهم وتعليمهم وتوجيههم، تعليماً وتوجيهاً يعصم عن مخالفة أمر الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يبينون للناس كلَّ ما لا يسعهم جهله من أمور العقائد والفرائض وأحكام الحلال والحرام، وقضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في أسهل المسالك وأحكم الوسائل، لا يكتمون العلم ولا يحجبون النصيحة ولا يتأثرون بهوىً ولا يتعصبون لباطل.

وحين يُطالب العلماء بمسؤولياتهم، فيجب على الأُمَّة أن تحفظ حقوقهم، وتشكر جهودهم، وترعى عهودهم، وتعرف مكانتهم، وتلتزم الأدب معهم، إنهم العلماء وارثو علم الرسالة، خلفاء النبي في أمته، المحيون لما مات من سنته،وهم الحملة العدول والحفاظ الفحول، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا.

---

(١) سورة المائدة: الآية (٣).

ومن هؤلاء العلماء الذين تسعد الأُمّة بهم وتشرف بذكرهم العالم العامل كنز المحققين، وقدوة المدققين صاحب العلم الباهر والفضل الظاهر، العلامة الجليل الفاضل الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله-.

كان قوي العزم في معالي الأمور، أطبق عليها همته، وصرف إليها نهمته وقوّى فيها نيّته، وهدفه خدمة العلم وطلابه.

كما كان -رحمه الله- ضليعاً متيناً مُفيداً متقناً عاقلاً مؤصلاً محققاً، قائماً بجلائل الأعمال متجملاً بأكرم الخصال.

اشتغل بالعلم وبرع فيه وبزَّ أقرانه، وهو إلى جانب هذا حلو النادرة، حسن المحاضرة، هادئ الموعظة، رفيقٌ في أمره ونهيه ونصحه وإرشاده، غاية في العفة والأمانة وسعة الصدر، ذو كرم وضيافة وخُلق كريم.

وبالجملة فقد كان -رحمه الله- من نوادر عصره أدباً وفضلاً وكرماً ونبلاً، يقول الحق ويقصده، ويتحرى الصدق ويؤثره.

إن الكتابة عن هذا الطود الشامخ والعَلَم المبرّز والشيخ الثقة، وعرة المسالك صعبة المنال، والحق يُقال أنني توقفت طويلاً أمام هذه الشخصية الفذة والعبقرية المذهلة التي قَلَّ من يفرى فريها، أو يحذو حذوها، وقفت أمامها وسألت نفسي كثيراً كيف الدخول إلى ساحة هذا العالم وباحته، كيف يستطيع طالب علم أن يسبر أغوار عوالمه، وكيف يغوص وليد في أعماق والد اتسعت جوانب عطائه، ترددّت وفكرت طويلاً، وسألت الله أن يُلهمني رشدي، ثم أدركت أن هذا التردد راجع إلى عمق شخصية هذا العالم -المترجم له- وتعدد جوانب الخير فيها كما أنني أدركت حقيقة مؤداها أنني لكي أكون قادراً على النظر في فكره وعِلمه وآثاره وحياته لا بد لي من عُمر طويل، يُحسب بحبات العرق وعدد الصفحات، ولا يُحسب بالساعات والأيام.

ولكي أكون أميناً على تاريخ سيرته وتسجيل وقائع حياته ومواقع حلّه وترحاله، لابد لي من أن أكون قد تشرفت بمشاركة رحلة عمره ومسيرة أيامه، ولكنّي -والحق يُقال- لم أكن كذلك، ومع ذلك، فقد أكرمني الله بمعرفة سماحته -رحمه الله- والتردد عليه والتحدث إليه سنين عديدة أدركت خلالها ما مَنَّ الله به على هذا العالم السلفي التقي من مواهب لا تُحصى، وفضائل لا تُستقصى.

وكنت أشعر عندما كنت أتردد عليه وأتحدث إليه أنني أمام بحر لا ساحل له وكأن الشاعر(١) قد عناه بقوله:

أنا البحر في أحشائه الدُّر كامنٌ فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

لقد عرفت فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- كما عرفه غيري من محبي العلم ورواد المعرفة- فما رأيت منه إلا غزارة في العلم وسعة في الاطلاع وصدقاً في النصح، وما رأت عيني مثله في قوة إرادته وصدق عزيمته مع بعدٍ في النظر، وحصيلة في الأثر.

لقد كان إماماً متبحراً في العلوم، صحيح الذهن سريع الإدراك سيّال الفهم كثير المحاسن، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه، حتى عُدَّ من الراسخين في العلم، واجتمع فيه من الكمال ما تضرب به الأمثال، وكل هذه المظاهر الحسنة والخصال الحميدة التي تحلى بها هذا العالم، هي التي دفعتني واستحثت خُطاي إلى الكتابة عنه، اعترافاً بفضله وقياماً بحقه وآداءً لبعض واجبه.

---

(١) هو محمد حافظ إبراهيم، ولد في ديروط من أعمال مديرية أسيوط حوالي سنة ١٢٩١هـ وتوفي سنة ١٣٥٣م.

ونحن إذ نُعدد من مناقب شيخنا ما نعدد، لا نبتغي إغراقاً في المدح ولا غلوّاً في الرثاء، وإنما القصد إبراز جوانب من حياته تؤكد وتبرهن على أنه -رحمه الله- كان غاية في الصلاح والاستقامة وحب الخير وأهله والمثابرة على العمل الصالح في غير رياء ولا سمعة.

لقد كانت حياة فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -طيب الله ثراه- ترجمة صادقة للأخلاق العظيمة والسجايا الكريمة التي ينبغي أن يتحلى بها كل عالم يقصد بعلمه وجه الله، وإعلاء كلمته وإعزاز دينه وإحياء سنة رسوله ﷺ، لا يخشى في الحق لومة لائم.

ذلك أن الوفاء للحق والقيام بأمره ومواجهة الناس أجمعين به، من أولى الخصال التي يحيا بها الدعاة إلى الله، وتُعد صبغة لازمة لسلوكهم، بل جزءاً خطيراً من كيانهم.

إن الغيرة على الدين والصدع بالحق وإقامة السُّنة والتحذير من البدعة، من الصفات الحميدة والخلال الحسنة التي أقام عليها الشيخ حياته، وكرّس لها جهوده، بل كانت فيما ظهر لي مفتاح شخصيته وسر جاذبيته وتأثيره الآسر لتلاميذه ومعاصريه.

لقد ربّى رحمه الله بهذه الصفات وتلك المؤثرات، جيلاً من الدعاة لا يزالون يحمدون غبها ويذكرون فضلها ويجتنون ثمرها، وهذا يؤكد ويُدلل على أن موت العالم مصيبة لا يجبرها إلا خلف غيره له، ولا شك أن موت العلماء فساد لنظام العالم، ولهذا لا يزال الله يغرس في هذا الدين منهم خالفاً عن سالف، يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده.

لقد فقدنا عَلَماً من أعلام الأمة الإسلامية، ونحن أحوج ما نكون إلى محصول علم قضى في تحصيله وتحقيقه قرابة سبعين عاماً فقدنا

ونحن أحوج ما نكون إلى نضج عقله وسلامة تفكيره ودلالة نظره، فقدنا رجلاً لا يكاد يعرف الناس له شبيهاً في أصالة معدنه وطهارة ذيله وجودة رأيه ورباطة جأشه وعفة نفسه، وغزارة علمه وعمله. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

إن وفاة هذا العالم الجليل ستترك فراغاً كبيراً لن يملأه إلا بقاء علمه وفكره وذكره، لأنَّه من كبار حملة ميراث النبوة، ومن دعاة الهدى وأئمة التربية والتوجيه والإصلاح.

وإن تشييع الآلاف المؤلفة له ليدل دلالة قاطعة على وعي هذه الأمة وتقديرها للمخلصين من رجالها، وللعلماء العاملين بعلمهم من أبنائها وإنه لشاهد عدل، ودليل صدق على صلاحه وورعه، وصلابة دينه، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، وأنه كان ممن طال عمره وحَسُن عمله.

وفي الختام فهذه كلمة عرفان ووفاء لم تخل من تقصير، صدَّرت بها هذه الترجمة الحافلة بالكفاح والعطاء والتضحية وإنكار الذات حتى يكون المترجم له مثلاً يحتذى وقدوة تؤتسى، تتبعت فيها حياته ناشئاً يدرج في مدارج الحياة، وشاباً يستوي للعلم وكهلاً قد تبدت مواهبه واستقامت مناهجه، وشيخاً يفيض بنور العلم والمعرفة على كل مَنْ حوله، يقصده العلماء من كل حدب وصوب، وتزخر مجالسه بطلبة العلم ورواد المعرفة.

وصلت حاضره بماضيه، وتتبعت سيرته، وتعمقت في نشأته وظروف عصره ودراسته، ووقفت على شيوخه وتلاميذه، ومؤهلاته، ثم عرَّجت على جهوده وأعماله مع استقصاء مقالاته، وجمع مسائله ورسائله وفتاواه وتعليقاته التي تتميز بقلة مبانيها، وغزارة معانيها.

فضلاً عن ذلك فقد قمت بوضع خطة دقيقة ومفصلة لهذا الكتاب اشتملت على مقدمة وثمانية فصول، سبرت من خلالها أغوار هذه الشخصية العلمية الفذّة، والتي تعتبر بحق رمزاً شامخاً من رموز العطاء الإنساني، وها هي خطة هذا العمل مفصلة.

خُطّة البَحْث

المقدمة وتشتمل على ما يأتي:

أولاً: بيان أهم الدوافع التي حملتني على الكتابة عن المترجم له مع إبراز أهمية مثل هذه البحوث والدراسات.

ثانياً: بيان الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها الشيخ وعاصرها إبّان حياته في مصر والمملكة العربية السعودية، ومدى تأثير هذه الظروف في جوانب شخصيته.

الفصل الأول: نشأته وصفاته وفيه مبحثان:

المبحث الأول:

أ- اسمه ونسبه.

ب- نشأته وبيئته.

جـ- أصوله وفروعه.

المبحث الثاني: أوصافه الخلْقية، وصفاته الخُلُقية.

أ- أوصافه الخَلْقية: هيئته ولباسه، هيبته، فصاحته، فراسته، قوة حافظته وحضور بديهته، وفور عقله وبعد نظره، مواهبه وسجاياه.

ب- صفاته الخُلُقية: زهده وعفته، تواضعه،صدقه وأمانته، حلمه وسعة صدره، كرمه ومروءته، احترامه لنفسه وحسن معاشرته لغيره، ثباته على مبدئه، ابتلاؤه وصبره، نظرته إلى المجتمع ونظرة المجتمع إليه.

الفصل الثاني: حياته العلمية والعملية، وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: مكانته العلمية وبداية تلقيه للعلم.

المبحث الثاني: نبوغه المبكر وتقدمه على أقرانه.

المبحث الثالث: شيوخه ومؤهلاته.

المبحث الرابع: تلاميذه ومؤلفاته ورأيه في التأليف.

المبحث الخامس: مذهبه وفقهه وتضلعه في أصول الفقه.

المبحث السادس: تدريسه وقدرته الهائلة على إيصال المعلومات.

المبحث السابع: علو همته وغزارة مادته العلمية واحترامه لطلابه.

المبحث الثامن: جهوده الدعوية ودروسه العلمية.

المبحث التاسع: مكتبته وعمل يومه وليلته.

المبحث العاشر: تعليقاته القيِّمة ونقده الهادف البنَّاء.

المبحث الحادي عشر: فتاواه وبحوثه.

الفصل الثالث: أعماله ومناصبه ويشتمل على المباحث التالية:

المبحث الأول: أعماله ووظائفه في مصر.

المبحث الثاني: أعماله ووظائفه في المملكة العربية السعودية.

المبحث الثالث: علاقاته الطيبة والمتميزة بالعلماء والوجهاء ورجال العلم والسياسة.

الفصل الرابع: عقيدته السلفية وجهوده في مجال العقيدة. ويشتمل على المباحث التالية:

المبحث الأول: معنى العقيدة وأهميتها.

المبحث الثاني: منهجه في العقيدة وعنايته البالغة بالتوحيد.

المبحث الثالث: إمامته في السنَّة وحثه على التمسك بها.

المبحث الرابع: اهتمامه بكتب العقيدة وتأثره بعلماء السلف.

المبحث الخامس: دعوته إلى الاعتصام بالكتاب والسنة وكفاحه ضد البدع والمنكرات.

المبحث السادس: نماذج من كتاباته وتعليقاته وتحقيقاته في العقيدة.

الفصل الخامس: أعماله المبرورة ومساعيه المشكورة، وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: سعيه الحثيث في قضاء الحوائج وبذل المعروف.

المبحث الثاني: وفاؤه لزملائه وتلطفه بتلاميذه واحتفاؤه بهم.

المبحث الثالث: عمله الدؤوب في إنشاء المؤسسات الإسلامية والصروح العلمية.

الفصل السادس: ثناء العلماء عليه.

الفصل السابع: وفاته ومراثيه.

الفصل الثامن: رسائل ووثائق.

وفي الختام، فإني أرجو أن تقر أعين القُرّاء وتسعد نواظرهم بمطالعة سيرة هذا العالم الربَّاني الذي عاش لدينه وعقيدته وأمته، يواسي جراحها ويُخفف أتراحها، يُربِّي ويُعلِّم ويُؤسِّس ويُقوِّم، يُوالي في الله ويُعادي فيه، ويُعطي لله ويمنع فيه.

أتمنى وأرجو أن تكون حياته معالم انطلاقة كبرى نحو الخير والجد والمثابرة، وإنكار الذات، والبعد عن الشهوات، والعمل المثمر البنّاء لهذا الدين وأهله.

فإلى رحمة الله تلك النفس الزكية الطاهرة، التي جدَّت في البُعد

عن الشهوات واجتناب الشبهات، وهي تشعر بالغربة في زمان تتابعت فيه الفتن وتنوعت وتكاثرت، حتى أصبح ذو القلب الحي يُنكر مَنْ يراه، وما يراه.

وإنا لنرجو أن الله قد قبض إليه هذه النفس المطمئنة غير مفتونة ولا مخذولة، وهذا هو حُسن ظنّنا بربّنا إنه هو البر الرحيم.

فيالله ما أسعدها من رحلة لصاحبها، وما أشد أثرها في عدد قليل من الناس يعرفون أيّة دُرة يتيمة فقدوا، وأيّة نفس كريمة ودّعوا.

والله تعالى أسألُ أن يتقبل عملي، وأن يجعله خالصاً لوجهه إبتغاءَ لمرضاته، كما أسأله سبحانه أن يتغمد فقيد هذه الأمة والدنا وشيخنا - الشيخ عبد الرزاق عفيفي - بواسع رحمته وأن يسكنه فسيح جناته وأن يجمعنا به في دار كرامته، ومستقر رحمته، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه
محمّد بن أحمد سيّد أحمد
المدرّس بدار الحديث الخيرية
بمكة المكرمة
غرة شهر رمضان المبارك ١٤١٧هـ

كلمة موجزة
عن الحالة السياسية والاجتماعية
والثقافية في عصره

أولاً: في مصر:

اليوم امتداد للأمس، والغد امتداد لليوم، والحياة الإنسانية تفاعل مستمر بين الحاضر والماضي والمستقبل، فهي بأحداثها وحدة واحدة متكاملة ترتبط ببعضها ويؤثر بعضها في الآخر، لذا نجد من العسير إيجاد فواصل بين الأحداث والعصور التاريخية، ومن ثم يتعين علينا ونحن بصدد الكتابة عن فترة تاريخية عن حياة المترجم له، أن نلُمَّ إلماماً سريعاً بالوضع السياسي في عصره الذي عاش فيه لنتعرف على أبرز سمات هذا العصر من الناحية السياسية وغيرها، ومدى تأثر شخصية هذا العالم بظروف بيئته.

أ- الحالة السياسية:

لقد عاصر الشيخ عبد الرزاق عفيفي -في الشطر الأول من حياته في مصر- أحداثاً مهمة، وعايش صوراً من الاضطراب والقلق والحيرة في جميع الميادين «السياسية والاجتماعية والثقافية» والحق يُقال إن هذه الصور من الاضطرابات كانت ترجمة لنزعات مختلفة، وآراء متباينة خلّفها تقلب مصر في أحضان الفتن والقلاقل سنين عددا، برزت خلالها تيارات

معادية للإسلام والمسلمين، سلكت مسالك الكيد الخفي للإسلام وأهله، وكان مقصدها الأول تخريب عقائد المسلمين، وتفكيك أواصر المحبة والأخوة بينهم حتى يسهل القضاء عليهم واستئصال شأفتهم، وزاد الطين بلّة سقوط الدولة العثمانية سنة (١٣٤٢هـ) بعد أن عانت من الضعف والتفكك فترة من الزمن، ونتيجة لذلك فقدت الدولة الإسلامية آخر مظهر من مظاهر الوحدة، وكان لهذا الضعف والتردي أثره الكبير والخطير على المسلمين، كمّاً ونوعاً، حتى أضحت الأمة العربية والإسلامية مجزأة وخاضعة للاستعمار الذي حاول بكل الوسائل والأساليب الخبيثة أن يطمس معالم تلك الدول وأن يفقدها هويتها الإسلامية.

ولعل الراصد للأحداث التي شهدتها مصر في عصر المترجم له (١٣٢٣-١٣٦٨هـ) (١٩٠٥-١٩٥٠م) يجد أن أبرز هذه الأحداث وأهمها ما يلي:

١- ظهور الحزب الوطني برئاسة مصطفى كامل عام (١٣٢٥هـ-١٩٠٧م).

٢- عزل الخديوي عباس حلمي وتعيين السلطان حسين كامل (١٣٣٠هـ-١٩١٢م).

٣- إعلان الحرب العالمية الأولى وفرض الحماية الانجليزية على مصر (١٣٣٢هـ-١٩١٤م).

٤- هجوم الأتراك على قناة السويس (١٣٣٤هـ-١٩١٦م).

٥- تألف حزب الوفد برئاسة سعد زغلول (١٣٣٧هـ-١٩١٨م).

٦- أحداث مارس (١٩١٩م) وقيام الشعب المصري بكل فئاته وطبقاته بمواجهة الانجليز وكبح جماحهم.

٧- إعلان استقلال مصر وتعيين السلطان فؤاد ملكاً على مصر (١٣٤٠هـ-١٩٢٢م).

٨- إعلان وفاة الملك فؤاد وتعيين الملك فاروق خلفاً له (١٣٥٦هـ-١٩٣٧م).

٩- إعلان الحرب العالمية الثانية عام (١٣٥٨هـ-١٩٣٩م).

١٠- إعلان قيام الجامعة العربية عام (١٣٦٤هـ-١٩٤٥م).

١١- مشاركة مصر في حرب فلسطين (١٣٦٦هـ-١٩٤٨م)(١).

هذه بعض الأحداث المهمة التي عاصرها الشيخ المترجم، ومما لا شك فيه انه تأثر بهذه الأحداث وتفاعل معها، وتذكر كتب التاريخ أن الأزهر أدّى دوراً مهماً وفاعلاً في الحياة السياسية في مصر، وفي صنع القرار السياسي فضلاً عن مواجهة المستعمر بكل حزم وقوة.

ذلك أن الاستعمار حاول بكل ما يملك من قوة القيام بعملية اختراق سياسي واقتصادي وثقافي تستهدف القضاء على ثوابت الإسلام، ومعالم النهضة الإسلامية، فضلاً عن ذلك فقد قام الاستعمار بمحاولات عديدة تهدف إلى غرس الحقد وبذور التفرق بين أبناء الأُمَّة وأفراد الشعب في مصر خاصة. وفي البلاد المجاورة لها عامة، ولكن المخلصين من أبناء هذا الشعب كانوا لهم بالمرصاد.

لقد كان الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- من هؤلاء المخلصين الذين أبانوا للأُمَّة عن مقاصد الاستعمار الخبيثة، حتى لا تنطلي عليهم أساليبهم

---

(١) انظر تطور الحركة الوطنية في مصر لمؤلفه عبد العظيم رمضان (ص٦٥ ـ ٨٠)، ودور القصر في الحياة السياسية في مصر للدكتور سامي أبو النور (ص١٢٩ ـ ١٤٠). ومذكرات عباس حلمي الثاني (طبع دار الشروق).

الوقحة ومخططاتهم المنحطة، وأهدافهم الدنيئة، فكان -رحمه الله- يوضّح بلسانه وقلمه أن الاستعمار عندما يفشل في تحقيق أطماعه وأغراضه بالقوة والسيف، يلجأ إلى أسلحة أخرى ربما تكون أشد فتكاً، ومن هذه الأسلحة، سلاح الدّس البغيض، والتلبيس على الشعوب، فيلبسون لذلك لأمَة النفاق، ويتدرعون بدروع التقية، خشية أسياف الغيورين من المجاهدين مستبطنين الكفر والعدوان.

وعلى الرغم من تسلّط الاستعمار وسيطرته على مقدرات الشعب المصري فلم يفلح في توهين عزيمة أبناء هذا الشعب وإبعادهم عن دينهم وعقيدتهم بل كان الأمر على عكس ما أرادوا، فقد هب الشعب من غفوته، وأفاق من سُباته، وكان لهم بالمرصاد، وأدرك المستعمر أن احتلال هذا الشعب مستحيل، فرجعوا إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة والعار، ولكنهم مع ذلك لم ييئسوا ولم يستكينوا، بل تتابعت محاولاتهم ولاتزال تتابع للنيل من الإسلام وأهله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

ب- الحالة الاجتماعية والثقافية:

وصلت الأمور الاقتصادية والاجتماعية في مصر إلى مستوى خطير من الفساد والانحراف على الرغم من وجود فائض مالي ضخم في ميزان المدفوعات، فلقد كان ٥٪ من مُلاك الأراضي، يملكون ٢٤٪ من المساحة المزروعة، في مقابل ٢٪ من المُلاك يملكون ١٣٪ فقط، فضلًا عن وجود أحد عشر مليونًا من المعدمين في الريف المصري، كما كانت زمامات قرى بأسرها مملوكة لفرد أو لأسرة، فضلًا عن وجود نظام الاستغلال الزراعي الذي كان شائعاً آنذاك.

لقد ارتفعت الأسعار في تلك الفترة ارتفاعاً هائلاً مما خلق عبئاً ضخماً على كاهل الجماهير، وهكذا فإن الوضع الاقتصادي والاجتماعي قد وصل إلى مستوى منخفض وخطير تعذر معه الإصلاح.

والخلاصة أن النشاط الاقتصادي في مصر كان يتركز عندما نشبت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢هـ-١٩١٤م) في يد العناصر الأجنبية التي تموله وتشرف عليه، وفي خلال العشرين سنة قبل بدء الحرب العالمية الأولى، توغلت رؤوس الأموال الأجنبية في الشؤون المالية المصرية إلى أن بلغ رأس المال الأجنبي عام (١٣٣٢هـ) ما يعادل ٩١٪ من مجموع الأموال التي تُستغل في الشركات المساهمة، ومع ذلك، فإن معظم هذه الأموال لم تكن تُستغل في الصناعة لأن المموّلين الأجانب كانوا غير راغبين في منافسة صناعات بلادهم، كما أن سياسة الاحتلال الإنجليزي تقضي ببقاء مصر بلدًا زراعيًا.

ويكفي للدلالة على سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وسيادة العناصر الأجنبية في مصر، وتحكمها في النشاط الاقتصادي -في تلك الفترة- أن نعلم أن الذين كانوا يعملون في التجارة المصرية سواء أكانوا مصدرين أم موردين أم باعة لم يكونوا من المصريين، فضلاً عن ذلك، فقد خصصت المناصب الدنيا للمصريين، وقصر المناصب العليا على غيرهم.

وأما من الناحية الثقافية والتعليمية، فلقد فشا الجهل، وعمّت الأمية وحُرم كثير من أبناء مصر من التعليم، وكان الانجليز يعملون جاهدين على إبقاء مصر في حالة من القصور والعجز، وأوضح دليل على ذلك، أن سياسة التعليم التي وضعها الانجليز لم يكن من شأنها أن تفضي إلى

تخريج كفاءات علمية تسد حاجة البلاد[1].

وبالجملة فلقد عايش الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- في مصر أحداثاً مؤسفة، وظروفاً قاسية، ومحناً وفتناً كثيرة، ولكنه بالرغم من هذه الأحوال المتقلبة استطاع وبتوفيق من الله، ثم بحسن معالجته للأمور أن يجتاز هذه المصاعب وأن يستلهم منها الدروس والعبر حتى أضحى شغله الشاغل جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، وتصحيح عقائدهم، وذلك بتصدِّيه للنزعات الضالة، والأفكار المنحرفة التي راجت في ذلك الوقت.

وقد ساعد الشيخ وآزره في ذلك علماء أجلاء، ومن هؤلاء فضيلة الشيخ عبد العزيز بن راشد، وفضيلة الشيخ عبد الله بن يابس -رحمهما الله- وهما من أهل الرياض.

ثانياً: في المملكة العربية السعودية:

قدم فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- إلى المملكة العربية السعودية أرض الحرمين الشريفين عام (١٣٦٨هـ-١٩٥٠م)، على سجيّته لم يجتذبه طمع في مال أو منصب، وإنما قدم إليها استجابة لرغبة كريمة واختيار موفق من جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود -تغمده الله بواسع رحمته- وحباً في الحرمين الشريفين، وحباً في الإسلام والمسلمين وعلماء الدعوة السلفية، الذين صاروا على منهج الدعوة الإصلاحية للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله.

ولاشك أن هذه البلاد المباركة التي هي مأزر الإيمان، وموئل

---

(١) انظر تطور الحركة الوطنية في مصر للأستاذ عبد العظيم رمضان (ص٦٥ ـ ٨٠).

العقيدة عُنيت وتُعنى دائماً بالمنهج الاعتقادي الصحيح.

لقد كان الشيخ عبد الرزاق -وهو من كبار علماء السُّنة في عصره- حريصاً على أن يكون في ظل هذه البلاد، يُفيد أهلها، وينعم بالأمن، والجو الإيماني الذي تعيشه المملكة العربية السعودية بتوفيق الله تعالى، ثم بحرص حكامها منذ عهد الملك المؤسس عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -رحمه الله- إلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، -أيده الله- على تطبيق شرع الله، وتكريم العلماء، والحرص على التزام منهج السلف الصالح في العلم والعمل والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولم يُخفِ الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- إعجابه بالملك عبد العزيز -طيب الله ثراه- بل كان يُظهر هذا الإعجاب لطلابه ومحبيه، وقد ذكر ذلك فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان -حفظه الله.

قلت: ولعل ذلك راجع إلى ما كان عليه الملك عبد العزيز -رحمه الله- من صفات نادرة وخلال كريمة، فلقد كان رجل دين ودولة وجهاد وعبادة، محباً للعلم، مؤثراً لأهله، حدباً عليهم. وضع أُسس الدولة السعودية الحديثة من مديريات ومرافق ومؤسسات إلى وزارات إلى مجلس للوزراء، إلى سلطات إدارية منظمة تنظيماً دقيقاً على أسس واضحة وبقيادة ناجحة.

ويلاحظ على النظام السياسي من خلال هذا التطور عدد من الخصائص ذات العلاقة بالتأثير على الأفراد وبخاصة المشايخ والعلماء:

أولاً: إن النظام بكامله يستند في أسسه وتكوينه وشرعيته على الشريعة الإسلامية ومبادئها المستمدة مباشرة من كتاب الله وسنة

نبيه ﷺ لذلك لم يكن للمملكة دستور وضعي وإنما اكتفت بالقرآن الكريم والسنة النبوية مصدرين أساسيين للتشريع.. ومن خلال التعليمات الأساسية لنظام الحكم والتي وضعت في ١٣٤٥/٢/٢١هـ الموافق ١٩٢٦/٨/٣٠م.

ولا تزال مضامينها قائمة حتى اليوم، ونلحظ أن هذه التعليمات في قسمها الأول قد نصت على أن الدولة ملكية شورية إسلامية.. وهذا الأمر ضاعف من مهمة العلماء في سياسة الدولة حيث تولوا استنباط الأحكام التفصيلية للحكم والإدارة من القرآن الكريم والسنة النبوية تبعاً لما يعرض من مشكلات ومتطلبات لتسيير أمور الدولة..

ثانياً: أخذت المملكة بنظام التنسيق بين السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية مع الالتزام بالفصل بين هذه السلطات في الجوانب التي تتطلب ذلك..

ثالثاً: أعلى النظام السياسي في المملكة من قيمة السلطة القضائية ومنحها استقلالاً كبيراً في مواجهة السلطات الأخرى في البلاد.. فالسلطة القضائية في المملكة سلطة مستقلة ومقيدة معاً.. فهي مستقلة عن السلطات الأخرى التنظيمية والتشريعية والتنفيذية وليس لأحد التدخل في القضاء كما أن تعيين وترقية القضاة ونقلهم وتأديبهم وعزلهم من اختصاص مجلس القضاء الأعلى (طبقاً لنظام القضاء الصادر في ١٤/٧/١٣٩٥هـ والمعدل بالمرسوم الملكي رقم م وتاريخ ١٣٩٥/١٠/٢٤)..

وهذا الاستقلال هو تطبيق حازم لمبدأ «حصانة القضاة» المعروف عند جميع علماء المسلمين..

والسلطة القضائية مقيدة في نفس الوقت بأحكام الشريعة الإسلامية

والأنظمة المرعية.. وقد نص نظام القضاء في مادته الأولى على أن «القضاة مستقلون لا سلطان عليهم في قضائهم غير أحكام الشريعة والأنظمة المرعية»..

وكان لهذه السلطة القضائية علاقة وثيقة بالعلوم الدينية وبالعلماء ورجال الشريعة والمتخصصين في العلوم الدينية في المملكة:

* فلم يتول منصب القضاء في المملكة سوى رجال أجلاء أفاضل من أهل العلم واقتصرت هذه المهمة الخطيرة عليهم..

* كذلك فإن استقلال القضاة التام أتاح لهؤلاء العلماء كل الفرص لترسيخ شرع الله دون أي رقيب أو قيد سوى ضمائرهم ونصوص شريعة الله بحيث أصبحت أحكام المحاكم السعودية مرجعاً رائداً في تطبيق شرع الله في كل شؤون الحياة وما يستجد من قضايا ومشكلات[1].

وأما بالنسبة للحالة الاجتماعية والاقتصادية في المملكة العربية السعودية، فقد شهد الشيخ عبد الرزاق عفيفي -في الشطر الثاني من حياته- التحولات الكبرى التي عاشها المجتمع السعودي في ظل قيادته الحكيمة، وقد أدرك الفارق بين الحالتين، حالة التشتت والقلق والاختراق الاستعماري لمصر، وحالة الاستقرار والأمن والازدهار في المملكة العربية السعودية.

لقد كان هذا التحوّل وذلك الفارق له -بلا أدنى شك- أثره على شخصية (المترجم له).

---

(١) انظر ابن باز الداعية الإنسان، مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر ص١٢، ١٣.

بل وشخصية كل الرواد والعلماء الذين عايشوا هذه الفترة الاقتصادية من حياة المجتمع العربي السعودي وشاهدوا الجهد الذي بذل في بناء الدولة السعودية في ظل أوضاعها المالية آنذاك..

وهذه المعايشة جعلتهم -بالتأكيد- أكثر حرصاً وتصميماً وكفاحاً من أجل التمسك بالقيم الإسلامية الصحيحة النابعة من العقيدة الصافية لإدراكهم أن تلك المبادئ هي التي أقامت تلك النهضة التي يعيشونها والتي قد يتعامل معها بعض أبناء الأجيال الجديدة كمعطيات واقعة دون إدراك الفارق بينها وبين ما قبلها..

لقد تطورت مسيرة النهضة السعودية في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية وتغيرت أوجه الحياة في المملكة بشكل جذري وأقيمت بنية أساسية متطورة وارتبطت كل مناطق المملكة بشبكة من المواصلات والاتصالات الحديثة وأتيحت فرص العمل والكسب لكل مواطن وقدمت خدمات التعليم والمرافق والخدمات الاجتماعية لجميع مواطني ومناطق المملكة بمستوى واحد.

هذه الجوانب من التطور والتنمية الشاملة كان لها علاقة بمهمة ودور العلم والعلماء في المجتمع من أكثر من وجه:

* فقد أدى تعقد الحياة الحديثة وتزايد المشكلات المرتبطة بهذه الحياة إلى إيجاد مشكلات وقضايا مستجدة تتطلب جهداً وشجاعة واجتهاداً من العلماء في التعامل معها وابداء حكم الشرع فيها.

* كما أدى الترابط الدولي وسهولة المواصلات والاتصالات بين مختلف مجتمعات العالم إلى وفود بعض القيم والسلوكيات الغريبة إلى المجتمع العربي السعودي والتي تطلبت نوعية متميزة من العلماء وفقهاء

الشرع للتعامل معها وتجنيب المجتمع شرورها والتعامل مع السلطات المختصة لتأكيد أفضل مستوى من (الأمن الفكري) في البلاد.

وهكذا تضاعفت مهمة العلماء في نشر أصول العقيدة والعبادات والسنة النبوية والاضطلاع بمهمة خطيرة وكبيرة في الحفاظ على المجتمع المسلم والتعامل مع إفـــرازات العالم المعاصر طبقاً لأصول ديننا وصفاء عقيدتنا.. وهي مهمة كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي أحد رجالها الشجعان والأكفاء..

وأما بالنسبة للحالة الثقافية والتعليمية، فلقد عاصر فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي الدولة السعودية وهي تخطو بخطى ثابتة وتقفز قفزات عملاقة في مجال التعليم والثقافة.

ففي وقت مبكر من مسيرة بناء الدولة السعودية الحديثة قرر الملك عبد العزيز -يرحمه الله- إنشاء مديرية المعارف العامة في غرة رمضان عام ١٣٤٤هـ ووضعت المديرية برامجها لكل المراحل التعليمية وفتحت المدارس في منطقة الحجاز.. وكان من أول مهام مديرية المعارف هو توحيد المناهج التعليمية في الحجاز.

وفي عام ١٣٤٦هـ أنشئ أول مجلس للمعارف وقام بوضع أول نظام تعليمي.. وبعد توحيد المملكة عام ١٣٥١هـ اتسعت مهمة مديرية المعارف لتشمل كل أنحاء المملكة وليس الحجاز فقط، وفي عام ١٣٥٧هـ صدر نظام جديد للمعارف ألغى ما كان من أنظمة سابقة..

أما من حيث المناهج التعليمية فقد كانت هناك أغلبية واضحة للعلوم الدينية واهتمام كبير بها لدرجة أنها كانت تمثل ٥٧,٣٪ من مناهج المرحلة التحضيرية ومع التوسع في مجالات التعليم ومستوياته

أنشئت وزارة المعارف عام ١٣٧٣هـ واختار الملك عبد العزيز -يرحمه الله- لها خادم الحرمين الشريفين ليضع الأسس الراسخة للانطلاقة التعليمية الحديثة للمملكة والتي أثمرت اليوم مجتمعاً متعلماً يضم مئات الآلاف من خريجي الجامعات وآلافًا من الحاصلين على درجات علمية رفيعة ونحو ثلاثة ملايين طالب وطالبة.

وبالطبع نهضت هذه الانطلاقة التعليمية على الأسس نفسها التي وضعت لبناء دولة حديثة تستمد مقوماتها من شريعة الإسلام(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- أسهم وبشكل فعال ومؤثر في بناء النهضة التعليمية التي وصلت إليها المملكة العربية السعودية اليوم، وشارك سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية والرئيس العام للمعاهد والكليات الشيخ محمد بن إبراهيم - تغمدهما الله بواسع رحمته- في وضع مقررات ومناهج المعاهد التعليمية وجامعة الإمام والجامعة الإسلامية وغيرها، والتي خرجت بدورها أمماً لا يحصون كثرة من العلماء والدعاة وطلبة العلم.

---

(١) انظر ابن باز الداعية الإنسان، مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر ص١٤، ١٧.

الفصل الأول

نشأته وصفاته

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ونشأته

المبحث الثاني: أوصافه الخَلْقية، وصفاته الخُلُقية

الفصل الأول

نشأته وصفاته

وفيه مبحثان:

المبحث الأول

اسمه ونسبه ونشأته

اسمه ونسبه:

هو العالم الجليل، والسلفي النبيل عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية بن عبد البر بن شرف الدين النوبي، ولد في الرُّبع الأول من القرن الرابع عشر الهجري، وعلى وجه التحديد في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٢٣هـ الموافق ١٦ ديسمبر سنة ١٩٠٥م، في قرية شنشور مركز أشمون التابع لمحافظة المنوفية، وهي إحدى محافظات مصر.

نشأته وبيئته:

نشأ الشيخ عبد الرزاق في بيئة معطرة بأنفاس القرآن الكريم وسط أسرة محافظة وفي مجتمع ريفي بعيد عن فتن الحواضر ومفاسدها.

ففي قرية شنشور، تلك القرية الهادئة المتواضعة التي تترابط أُسرها وتمتزج في كيان واحد، وتتنسم عبير الإخاء والود: في هذه القرية نشأ الفتى عبد الرزاق عفيفي، نشأة صالحة، تغمرها العاطفة الدينية الجياشة وتوثِّق عراها سلامة الفطرة وحُسن الخُلق والبعد عن الخرافات

والخزعبلات، وكان لهذه النشأة الطيبة أثرها البالغ في حياة -المترجم له- حيث بدأ حياته العلمية بحفظه لكتاب الله تعالى حفظاً متقناً مع تجويده على يد عدد من مشايخه آنذاك، ومنهم الشيخ محمد بن حسن عافية، والشيخ محمد بن عبود عافية، هذا فضلاً عن والده، الذي قام على تربيته وتنشئته أحسن ما يُنشأ الفتيان الذين هم في مثلِ سنّه، قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عوّده أبوه

وما كان الفتى نجماً ولكن يُعوِّده التديُّن أقربوه

أصوله وفروعه:

ينتمي الشيخ عبد الرزاق عفيفي إلى أسرة كريمة، طيبة الأخلاق، محمودة السيرة حسنة السمعة، متمسكة بالأخلاق الإسلامية وأخلاق أهل القرية والريف التي لم تتلون بمظاهر الحضارة الكاذبة.

فوالده هو الشيخ عفيفي بن عطية النوبي، من مشاهير قرية شنشور وصالحيها، كان حافظاً لكتاب الله تعالى ،وكان الشيخ عبد الرزاق كثيراً ما يتحدث عن والده للخاصة من طلابه،وقد ذكر لي فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام -حفظه الله- أنه رأى والد الشيخ عبد الرزاق عند أول قدوم له إلى المملكة سنة(١٣٦٨هـ) وهي نفس السنة التي قدم فيها الشيخ عبد الرزاق إلى أرض الحرمين الشريفين، وكان والد الشيخ عبد الرزاق يرتدي العمامة البيضاء المستديرة فوق رأسه وهي لباس أهل مصر آنذاك.

فروع الشيخ عبد الرزاق عفيفي:

إن من أعظم النِّعم وأكبر المنن أن يُوفَّق الإنسان بعد تقوى الله عز وجل إلى زوجة صالحة تعينه على أمر دينه ودنياه، تُطيعه إذا أمر وتسره

إذا نظر، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله، تتقن عملها وتعتني بنفسها وبيتها وزوجها، فهي زوجة صالحة، وأم شفيقة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، ولا أدلّ على ذلك من قوله ﷺ:«المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها»(١). وقوله عليه الصلاة والسلام: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»(٢). وقوله ﷺ: «من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح»(٣).

ولقد كان من نعم الله وحُسن بلائه على فضيلة الشيخ عبد الرزاق أن وفّقه لزوجة صالحة وسيدة فاضلة، من أسرة كريمة وعائلة فاضلة هي عائلة (سالم) بالأسكندرية، وأصلها من إسنا بصعيد مصر، وقد رزقه الله منها عدداً من البنين والبنات(٤).

أما الأبناء فهم:

١- المهندس الزراعي أحمد عاصم بن عبد الرزاق عفيفي، ولد سنة ١٣٦٤هـ-١٩٤٤م، وتوفي في حرب العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م بمصر.

٢- الأستاذ محمد نبيل بن عبد الرزاق عفيفي -حفظه الله- ويعمل مراقباً مالياً بالخطوط السعودية بجدة، وهو من أبر أبناء الشيخ وأرعاهم

---

(١) متفق عليه، البخاري (الفتح ٧١٣٨/١٣) ومسلم (١٨٢٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) رواه أحمد (١٦٨/١) والحاكم (١٦٢/٤) وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٢/٣) وقال: رواه أحمد بإسناد صحيح والطبراني والبزار.

(٤) وقد توفيت يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة عام ١٤١٦هـ ـ رحمها الله.

لحقوقه في حياته وبعد وفاته، جزاه الله خيراً، وهو من مواليد سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م.

٣- الأستاذ محمود بن عبد الرزاق عفيفي -حفظه الله- عمل مدرساً بالرياض ثم ترك التدريس وتفرغ لخدمة والده في السنوات الأخيرة من حياته -رحمه الله- فجزاه الله خيراً، وجعل أعماله الصالحة في موازين حسناته، وهو من مواليد سنة ١٣٦٩هـ-١٩٤٩م.

٤- الأستاذ عبد الله بن عبد الرزاق عفيفي، تُوفي في حياة والده سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م -رحمه الله.

٥- الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الرزاق عفيفي، توفي في حياة والده إثر حادث وقع عليه سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، وكان من طلبة العلم المبرَّزين ومن أكثر أبناء الشيخ التصاقاً به وكان يعمل بالرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض -رحمه الله.

وأما البنات فثلاث: وقد أكرمه الله بأصهار صالحين بررة ولا نزكي على الله أحداً نحسبهم كذلك وكان الشيخ عبد الرزاق -يرحمه الله- يهتم بتربية أولاده بل وحتى أحفاده وينشئهم تنشئة صالحة، فكانوا مثالاً في الاستقامة والبر ورعاية الحقوق، وآداء الأمانات.

المبحث الثاني
أوصافه الخَلْقية وصفاته الخُلقية

أ- أوصافه الخَلْقية:

كان رحمه الله قوي البُنية، جسيماً مهيباً، طويل القامة، عظيم الهامة، مستدير الوجه، قمحي اللون، له عينان سوداوان يعلوهما حاجبان غزيران ومن دون ذلك فم واسع ولحية كثة غلب البياض فيها على السواد، وكان عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكفين والقدمين، ينم مظهره عن القوة في غير شدة.

هيئته ولباسه:

كان الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- حَسَن الهيئة، جميل المظهر في غير تكلف، له سمت خاص في لباسه، يرتدي ثوباً فضفاضاً أشبه ما يكون بلباس أهل مصر، إلا أنه مُحاك على السُّنة، وكان يعجبه اللباس الخشن من الثياب في غالب الأوقات، وهو سلفي المظهر والشارة.

ومجمل القول: أن الشيخ -رحمه الله- كان رجلاً متميزاً في هيئته ولباسه يرتدي ما يراه متفقاً مع مكانة العلم والعلماء، وظل متمسكاً بهذه الهيئة المتميزة من اللباس إلى آخر حياته المليئة بالجد والكفاح والمثابرة.

هيبته:

كان الشيخ -رحمه الله- رجلاً مهيباً، من رآه بديهة هابه، فيه عزة

العلماء، لايتزلف إلى أصحاب المناصب زائراً أو مَزوراً، يقول أحد تلاميذه[1]: إن الشيخ كان يفرض احترامه على طلابه، وكان الطلاب يهابونه حياءً ويقدرونه في أنفسهم، وما سمعت منه كلمة مؤذية قط[2].

لقد كان الشيخ مهيباً حقاً، ومع هذه الهيبة كان آية في التواضع وحُسن المعاشرة وعلو الهمة، بعيداً عن الصلف والتكلف المذموم، أبيّاً عزيز النفس، وكأن الشاعر قد عناه بقوله:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذُّل أحجما
أرى الناس مَنْ داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أُكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلّما ... بدا طمعٌ صَيَّرتُه لي سُلَّما
وما كلُّ بَرْق لاح لي يَستفزُّني ... ولا كلُّ مَنْ لاقيتُ أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظَّما[3]

فصاحته:

اللغة العربية لغة جميلة، فهي لغة القرآن والسُنَّة، أسلوباً ومنهجاً، ومقصداً ومغزىً، فهي الطريق إلى فهمهما والعمدة في إدراك أسرارهما، فهي بحق من مستلزمات الإسلام وضروراته[4].

والشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- يُعد وبجدارة من أرباب الفصاحة وأساطين اللغة في علم النحو خاصة وعلوم العربية كافة.

كان آية في التحدث بلغة الضاد (اللغة العربية الفصحى) كتابة

(١) هو الشيخ أبو عبد الرحمن ابن عقيل حفظه الله.

(٢) انظر كلمة الشيخ ابن عقيل في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

(٣) هذه الأبيات لعلي بن عبد العزيز القاضي، انظر أدب الدنيا والدين للماوردي ص٩٢.

(٤) هذا التعبير الجميل من كلام فضيلة الشيخ عبد الرزاق عميفي وانظر مقدمة الإحكام في أصول الأحكام للآمدي.

ومحادثة. وكان ذا بيان مشرق متدفق، وأداء جميل ونبرات مؤثرة في غير تكلف، وكان إذا تكلم أسمع وعُقل عنه.

وكانت إحاطته بمفردات اللغة العربية تكاد تكون شاملة،[1] وهو إلى جانب ذلك، سهل العبارة، عذب الأسلوب، تتسم عباراته بالإيجاز والإحكام والبيان والجزالة، وكان بعيداً عن التكلف، والتمتمة والفأفأة والتنطع والتشدّق.

وإني أتمنى أن يعتني طلبة العلم وحملة الشريعة ورواد المعرفة بهذه اللغة العظيمة، اللغة العربية، لغة القرآن الكريم.

عن عمر بن الخطاب رضي عنه قال: «تعلموا العربية فإنها من دينكم»، وعن عمرو بن زيد قال: «كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري -رضي الله عنهما- أما بعد: «تفقهوا في السُّنة وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي». وقال عبد الحميد بن يحيى: «سمعت شعبة يقول: تعلموا العربية فإنها تزيد في العقل».

وقال عبد الملك بن مروان: «اللّحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه». وأوصى بعض العرب بنيه فقال: «يا بني أصلحوا ألسنتكم، فإن الرجل تنوبه النائبة فيحتال فيها فيستعير من أخيه دابته، ومن صديقه ثوبه ولا يجد من يُعيره لسانه».

وقال ابن تيمية -رحمه الله-: «الدين فيه فقه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو الطريق إلى فقه أعماله»[2].

(١) انظر كلمة فضيلة الشيخ محمد بن لطفي الصباغ في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص (٢٠٧).

فراسته:

قال ابن القيِّم -رحمه الله- :الفراسة الإيمانية سببها نور يقذفه الله في قلب عبده، يفرِّق به بين الحق والباطل والحالِ والعاطل، والصادق والكاذب، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدُّ فراسة، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أعظم الأُمَّة فراسة، وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووقائع فراسته مشهورة فإنه ما قال لشيء: «أظنه كذا إلا كان كما قال» ويكفي في فراسته موافقته ربه في مواضع عِدَّة.

وفراسة الصحابة رضي الله عنهم أصدق الفراسة، وأصل هذا النوع من الفراسة من الحياة والنور اللَّذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ. قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(١).

قال بعض السلف: من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمَّر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السُّنة لم تخطئ فراسته.

قال الماوردي -رحمه الله-: ينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلِّم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه، أو يضعف عنه ببلادته، فإنه أروح للعالم، وأنجح للمتعلم(٢).

والشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- ولا أُزكِّي على الله أحداً كان صاحب بصيرة نافذة، وفراسة حادة، يعرف ذلك عنه مَنْ خالطه

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٢٢).

(٢) انظر أدب الدنيا والدين للماوردي (ص٢٠).

وأخذ العلم على يديه[1]، ومما يدلِّل ويؤكد على فراسة الشيخ أنَّه كان يتأمل وجوه تلاميذه ويتفرس فيهم، فيعرف المجد من الخامل، والنابه من الجاهل فيخص هؤلاء بعلم قد لا يخص به أولئك. وثمَّ دليل آخر على فراسة الشيخ أنَّه كان -رحمه الله- يدرك حقيقة ما يعرض عليه من المشكلات ويتأمل وجوه أصحابها فيكشف ما وراءها من الدوافع ببصيرته الفذة وقلّما ينطلي عليه مكر أو احتيال. ومما يدل كذلك على صدق فراسة الشيخ ومعرفته بالرجال ما ذكره فضيلة الشيخ عبد العزيز بن محمد عبد المنعم قائلاً: حدثني -رحمه الله- في مجلس الفتوى في (مِنَى) فقال: إذا سأل البدوي عن مسألة وكان الجواب موافقاً لما يهوى فإنه يسأل سؤالاً آخر قريباً من الأوّل أو بعيداً، أما إذا كان الجواب بخلاف ما يهوى فإنه يسكت وينصرف[2].

وهكذا أكسبه طول التعامل مع المستفتين معرفةً لنفسياتهم، فكانت إجاباته بإيضاح الحكم فيما يُسأل عنه من التوسع أو من الإيجاز، ملحوظاً فيها ما ينقدح في ذهنه من مقصد السائل عند إلقاء السؤال من رغبة في معرفة الحكم الشرعي في المسألة أو في خلاف ذلك.

ولله در من قال:

أَلْمعيٌّ يرى بأوّل رأيٍ آخرَ الأمر من وراء المغيبِ
لَوذَعيٌّ له فؤادٌ ذكيٌّ ما له في ذكائه من ضريبِ
لا يُروِّي ولا يقلِّب طرْفا وأكفُّ الرجال في تقليبِ[3]

---

(١) انظر كلمة فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان في الفصل السابع، وقد جاء فيها بأن الشيخ عبد الرزاق كان يفرض احترامه على جليسه، كثير التأمل، دقيق الفهم، نافذ الفراسة.

(٢) انظر كلمة فضيلة الشيخ عبد العزيز بن محمد عبد المنعم في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٣) انظر أدب الدنيا والدين للماوردي (ص٢١).

قوة حافظته وحضور بديهته:

كان رحمه الله قوي الحافظة، سريع البديهة، مستحضر الفهم، شديد الذكاء وافر العلم غزير المادة، صاحب ألمعية نادرة ونجابة ظاهرة.

إن نعمة الحفظ، وقوة الذاكرة، من أقوى الأسباب -بعد توفيق الله عزَّ وجل- على طلب العلم، ولقد كان لهذه الحافظة القوية، والذاكرة الجبارة أثرها البالغ في تحصيل ثروته العلمية، والتي بُنيت على محفوظاته التي علقت بذاكرته في مرحلة التعلم والتعليم، وقد رزقه الله من الذكاء وقوة الحفظ ما مكّنه من إدراك محفوظاته العلمية عن فهم وبصيرة، فكان الشيخ يُدرك حقيقة ما يُعرض عليه من المشكلات فيكشف ما وراءها من الدوافع بتوفيق الله ثم بذكائه الحاد وبصيرته النافذة، ولم يكن ينطلي عليه خداع أو احتيال.

ومما يؤكد ويبرهن على قوة حافظة الشيخ، وسيلان ذهنه أن أحد الموظفين بإدارات البحوث العلمية والإفتاء، سأل الشيخ وأنا جالس بجانبه -في مقر هيئة كبار العلماء بمدينة الطائف- عن مرجع لمسألة يريد أن يرجع إليها، فدلّه الشيخ على كتاب المغني لابن قدامة، وذكر له الجزء والصفحة والمكان وهذا إن دلَّ فإنما يدل على شدة ملاحظته وتوقد ذهنه -رحمه الله.

وثمّ دليل آخر يؤكد على قوة ذاكرة الشيخ، وهو أنه رحمه الله كان يقصُّ قَصَصاً ويذكر أحداثاً ووقائع من أعماق التاريخ ترجع إلى أكثر من ثلاثة أرباع القرن، يذكرها وكأنها ماثلة أمام عينيه.

وثمّ دليل ثالث على عمق حافظة الشيخ وحضور بديهته، ما ذكره

أحد تلامذته، من أن الشيخ، أملى عليهم من حفظه في مادة التفسير أكثر من مائة صفحة[1].

ويؤكد هذا كلَّه فضيلة الشيخ محمد بن سعد السعيد[2] قائلاً: «لقد حباه الله قوة الحافظة والدقة في الفهم وسرعة البديهة وحصافة الرأي، مع اتسامه بالورع والزهد والتواضع.

وفور عقله وبُعد نظره:

إنَّ مِن المسلَّم به أنَّ لكلٍّ فضيلة أُسّاً، ولكلٍّ أدبٍ ينبوعاً، وأُسّ الفضائل، وينبوع الآداب هو العقل، الذي جعله الله تعالى للدِّين أصلاً، وللدنيا عماراً، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مُدبَّرة بأحكامه، وألَّف به بين خلْقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصل الرجل عقله، وحسَبه دينه، ومروءته خُلُقُه، وقال الحسن البصري رحمه الله: ما استودع الله أحداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً، وقال بعض الأدباء: صديق كل امرئ عقله.

وقال إبراهيم بن حسّان:

يزينُ الفتى في الناس صحّة عقلِهِ ... وإن كان محظوراً عليه مكاسبُهْ
يشينُ الفتى في الناس قِلَّةُ عقله ... وإن كَرُمت أعراقُهُ ومناسِبُه

---

(١) ذكر ذلك الدكتور (حمد الجنيدل) وانظر كلمة رثاء وعزاء في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٢) هو إمام وخطيب مسجد سلطانة بالرياض، وانظر كلمته في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

يعيش الفتى بالعقل في الناس إنَّهُ ... على العقل يجري عِلْمُه وتجاربه
وأفضلُ قَسْم الله للمرءِ عقلُه ... فليس من الأشياء شيٌ يقاربُه
إذا أكمل الرحمن للمرءِ عقله ... فقد كَملَتْ أخلاقُه ومآربُه[1]

وإنَّني لأشهد بالله أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي -يرحمه الله- كان مِن العلماء القلائل، الذين جمع الله لهم بين وفرة العلم ووفور العقل وبُعد النظر، فكان مثالاً للداعية المسلم الحق الذي يدعو إلى الله على بصيرة، وإلى جانب تعقل الشيخ وبُعد نظره فقد تميَّز -رحمه الله- بسعة علمه، ومقدرته على الفهم الدقيق، والاستنباط الواعي، والتمييز المستبصر.

إنَّ كلَّ مَنْ رأى الشيخ وجلس إليه يشهد له بحنكة باهرة، وحكمة ظاهرة واطلاع واسع، وعدم خوضه فيما لا يعنيه، وإعراضه عن التحدث في الموضوعات ذات الحساسية، وهو مع ذلك فقيه بواقع أُمَّته ومُطَّلع على ظروف عصره، يعيش آمال الأُمَّة وآلامها ساعة بساعة ولحظة بلحظة.

ولقد أكسبته هذه الخصال الحميدة والسجايا الحسنة، احترام الناس له، وتقديرهم لعلمه وفضله، حتى أصبح موضع تقدير الجميع، علماء وعامة.

يقول فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان: كان الشيخ -رحمه الله- كثير الصمت يفرض احترامه على جالسيه، كثير التأمل، شديد الملاحظة، وافر العقل، نافذ الفراسة[2].

---

(١) انظر أدب الدنيا والدين للماوردي (ص٢٠).

(٢) هو فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان، وانظر كلمته وداعاً أيها الإمام في الفصل السابع.

وقال فضيلة الشيخ محمد بن ناصر العبودي[1]: ما رأيت رجلاً من المصريين أعقل من الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- جمع بين العلم والعقل فيا سعادة مَنْ جمع بين العلم والعقل، وكما قيل ليس على عاقل غربة.

وقال فضيلة الشيخ صالح بن عبد الرحمن الأطرم: لقد جمع فضيلة الشيخ عبد الرازق عفيفي العلم والعقل، فيا سعادة من جمع العلم والعقل، إذ لا يستغنى أحدهما عن الآخر[2].

لقد كان الشيخ -يرحمه الله- صافي الذهن، بعيد النظر، ينظر إلى عواقب الأمور، ويوازن بين المصالح والمفاسد ويُبيِّن لجالسيه وطلابه أن التعجل والتهّور وعدم النظر في العواقب، يجلب على الأمة ويلات كثيرة، فلله درُّه من عالم فحل، وعاقل متأدب وداعية محنك، لم يهزه طيش، ولم يستفزه خَرَق.

ولقد صدق من قال:

إذا تمَّ عقلُ المرءِ تمّتْ أمورُهُ | وتمّت أمانيهِ وتمَّ بناؤُهُ

وقال أبو بكر بن دريد:

العالم العاقل ابن نفسِهِ | أغناه جنسُ عِلْمهِ عن جِنْسِهِ
كن ابن مَنْ شئتَ وكن مؤدَّباً | وإنما المرء بفضل كَيْسِه
وليس مَنْ تكرمهُ لغيره | مثل الذي تكرمهُ لنفسِه[3]

(١) هو فضيلة الشيخ محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي، وقد حدثني فضيلته بأن الشيخ عبد الرزاق من الرجال الذين قرنوا العلم بالعمل.

(٢) انظر كلمة (لمحات من حياة الشيخ عبد الرزاق) الفصل السادس: (ثناء العلماء عليه).

(٣) انظر أدب الدنيا والدين للماوردي ص(٧٦).

مواهبه وسجاياه:

لقد كان الشيخ عبد الرزاق -يرحمه الله- يتمتع بمواهب وسجايا وخصال قَلَّ أن تجتمع في غيره، فقد كان -رحمه الله- يتحلى بسعة العلم والأناة والحلم، والهدوء في المحاورة والمناقشة، والقدرة على الإقناع وتقريب الأمور إلى الأذهان.

يقول أحد طلابه: لقد حباه الله قوة الحافظة ودقة الملاحظة، وسرعة الفهم وسيلان الذهن وحصافة الرأي، مع اتسامه بالورع والزهد والتواضع، ولين الجانب، وكان كثير الصمت قليل الكلام إلا فيما ترجحت فائدته ومصلحته. أهـ.

وبالجملة فقد كان الشيخ -رحمه الله- يتمتع بصفات حسنة وسجايا كريمة. لقد كان مثالاً يحتذى في أدبه وعلمه وأخلاقه وقدوة في تصرفاته. لقد كان موهوباً.

صفاته الخُلُقية:

إنَّ من عاصر الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- وخالطه وعاشره يتفق معي أنه كان رجلاً قوي الشخصية متميز التفكير،مستقل الرأي نافذ البصيرة، سليم المعتقد حَسن الاتباع، جم الفضائل، كثير المحاسن، مثال العلماء العاملين، والدعاة المصلحين، فيه عزة العلماء وإباء الأتقياء، غاية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع حكمة ولطف وبُعد نظر، لا يجابه أحداً بما يكره ولا ينتصر لنفسه.

كان زاهداً عابداً أميناً صادقاً كثير التضرع إلى الله، قريب الدمعة، زكي الفؤاد، سخي اليد، طيب المعشر، صاحب سنة وعبادة، كثير الصمت، شديد الملاحظة، نافذ الفراسة، دقيق الفهم، راجح العقل، شديد

التواضع، عف اللسان. وبالجملة: فقد اتصف الشيخ -رحمه الله- بصفات جميلة، وخلال حسنة، وشيم كريمة، يجمُل بنا أن نتناولها بشيء من التفصيل.

زهده وعفته:

إن الزهد في الدنيا معنىً جميل، لا يستقيم إلا لكل نفس كبيرة، فهو خيرُ معين على التفرغ للعظائم، وأقوى محققٍ لمعاني القوة في النفس والعقل والبدن. وأكبر عامل على صفاء القلب وصونه عما يتورط فيه من الحقد والغل والحسد وأدعى شيء إلى العفاف والترفع عن السفاسف وإلى عزة النفس والصدع بالحق ومقاومة الشر.

وعلى الجملة فهو كنز النفس العظيمة وميزة الصفوة المختارة، والخيِّرة الأبرار.

والزهد ليس كما يزعم بعض الجاهلين، قبوعاً عن كل جليلٍ وعظيم من الأعمال، وليس الزهد كما يُخيَّل للحمقى والمغفلين الذين غرَّر الشيطان بهم. هو الذلة والمسكنة والفقر والمتربة والضعف والحاجة، والكسل اللاصق بالأرض القانع بالدون من الحياة.

لكنه زهد تربية، وزهد النفس التي تعف فيما تملك، وتترفع عن أن تمد عينيها إلى ما لا تملك، إنَّه العزة التي لا يُذلها مطمع من مطامع الدنيا ولا تغريها شهوة من شهواتها، إنه زهد القلب وعفة الروح وطهارة الجوارح، إنه التجرد الكامل من رِقِّ النفس وأهوائها وشهواتها[1].

لقد كان زهد السلف الصالح رضي الله عنهم وخشونة ملبسهم

(١) انظر مقدمة كتاب الزهد لهناد بن السري ـ تحقيق محمد الليث الخير آبادي.

وجثوبة مطعمهم، من أبلغ عوامل الرهبة في قلوب أعدائهم، وأوكد أسباب خضوع الدنيا لهم.

وعندما خَلَفَ من بعدهم خلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، ورغبوا في العاجل، وأعرضوا عن الآجل، تبددت الرهبة من صدور أعدائهم وتمنَّعت الدنيا وعزَّتْ على عمّالهم، وتكالبت عليهم الأمم، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: **«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها»** فقال قائل أو من قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: **«بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهْنَ»**، فقال قائل: يارسول الله وما الوهْن. قال: **«حبُّ الدنيا وكراهية الموت»**[1].

لقد كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- رمزاً ومثالاً يُحتذى وقدوة تُؤتسى في الزهد والورع وإنكار الذات.

كان زاهداً في الدنيا مُتقلِّلاً منها مُعرضاً عنها، مُتحلِّياً بالطاعة، مستشعر العفاف والكفاف، مقتصراً من نفقته وملبسه على ما تدعو إليه الحاجة والضرورة.

لقد كان -رحمه الله- متواضعاً في مسكنه ومأكله ومشربه وسائر أموره، وما عرفتْ الدنيا طريقاً إلى قلبه ولم يكن يهتم بها، ومع أن غيره ممن هو دونه كان يتقلب في النعيم وينام على الوثير من الفراش، كان الشيخ -رحمه الله- يؤثر خشونة العيش وعدم التوسع في الملذات، على الرغم من أنه مُدّ بأسبابها.

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤٢٩٧) وأحمد في المسند (٢٧٨/٥) من طريق آخر وسنده قوي.

والبرهان على أنه ليس طالب مجد دنيوي أنه ما سلك سبيلاً لازدياد كسبٍ مادي، وما أكثر سُبل الكسب المادي لو أرادها، ومما يؤكد ذلك ويدعمه أنه كان -رحمه الله- محباً للتستر، بعيداً عن المظاهر والتصدّرِ، يكره الشهرة ويأبى أن تُسلَّط عليه الأضواء، ويبتعد عن وسائل الإعلام بُعداً لا هوادة فيه.

يقول أحد طلابه: لقد جاء الشيخ إلى السعودية على عِلْمه وسجيته لم يجتذبه طمعٌ في مال أو جاه أو منصب، وقد عَلِم الله صلاح نيته فانقادت له كل أسباب العز الدنيوي وهو لم يطلبها، فكان في هذه المملكة أستاذ جيل بحق[1].

قلت: ومما لا يُنكر من أخلاقه الظاهرة وزهده وورعه، كراهيته الشديدة للمدح والثناء عليه وتقبيل رأسه ويديه، فما كان يرضى من أحد أن يُثني عليه أو يبالغ في مدحه.

وأما عفَّة الشيخ وتعففه فهو بحر لا ساحل له، وقد تكفي الإشارة إن لم تُسعف العبارة، وصفوة القول أن الشيخ -رحمه الله- كان شديد التعفف، غاية في الزهد، نموذجاً للأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة.

كما كان رحمه الله عف اللسان عفيف النفس طاهر الذيل، بعيداً عن المحارم، مجانباً للمآثم.

يبيتُ مُشمِّراً سهر الليالي ... وصام نهاره لله خيفة
وصان لسانه عن كلِّ إفك ... وما زالتْ جوارحه عفيفة
يعفُّ عن المحارِمِ والملاهي ... ومرضاة الإله له وظيفة

---

(1) انظر كلمة فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

تواضعه:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»[1]. والتواضع هو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة للخلق، ومنشأ التواضع من معرفة الإنسان قدر عظمة ربه ومعرفة قدر نفسه، فمن عرف نفسه وتواضع لربه فإنه لا يتمرض على خالقه باقتراف الجرائم والآثام، كما أنه يعامل الناس معاملة حسنة بلطف ورحمة ورفق ولين جانب، لا يزهو على مخلوق ولا يبالي بمظاهر العظمة الكاذبة، ولا يترفع عن مجالسة الفقراء والمشي معهم وإجابة دعوتهم، ومخاطبتهم بالكلام اللين ولا يأنف من استماع نصيحة من هو دونه، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[2].

لقد كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي ليّن الجانب، سهل الخلق، شديد الزهد في أعراض الدنيا، يلبس الخشن من الثياب، ويرتاح لذلك ويعلله بأنه يناسب بدنه صحياً، ولم يكن له ترتيب خاص في حياته كما هي عدة الأثرياء والوجهاء، كما أنه ليس له ترتيب خاص به في مجلسه وطعامه ولقائه بالعلماء والعامة وطلبة العلم، وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس،وكان كثير التأمل، شديد الملاحظة، يؤثر الصمت ولا يتكلم إلا عند الحاجة، ولا يزيد عن المطلوب منه، وكان لا يتشدق في الكلام، ولا يتكلف ما ليس عنده، ولا يزهو على أحد بعلمه ولا يترفع على جلسائه بل يباسطهم ويمتزج بهم، ومع هذا فهو بتواضعه متميزٌ بخفض

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٣).

جناحه لطلابه وجلسائه، متعزز قد زاده التواضع رفعة، وخفض الجناح شرفاً.

يقول الدكتور عبد الله بن حافظ الحكمي: كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- محل القدوة والأسوة ،شديد التواضع تغلب عليه البساطة في مجلسه، إذا ارتاح لمحدثه استرسل في ذكر الأحداث والمواقف، ونزل معه على قدره صغيراً كان أو كبيراً[1].

وقال الدكتور محمد بن لطفي الصباغ: كان الشيخ عبد الرزاق متواضعاً يكرم الصبيان والفتيان ولا يدعوهم إلا بألقاب التكريم، وقد رأيته يوم أن جاء الشيخ حسن حبنكة أحد كبار علماء بلاد الشام لزيارة مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- رأيته في قمة التواضع، إذ كان يؤثر الكثيرين في الجلوس في المقاعد المتقدمة مع أنه أحق منهم بهذا التقديم[2].

صدقه وأمانته:

إن من أعظم مكارم الأخلاق التي أمر الله بها وأمر بها رسوله ﷺ، الصدق. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3].

وقال ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة»[4].

---

(١) انظر كلمة (ذكريات مع الحبر الفقيد)، الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٢) انظر كلمة (الشيخ عبد الرزاق من بقية السلف) الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٣) سورة التوبة: الآية (١١٩).

(٤) رواه البخاري (الفتح ٦٠٩٤/١٠) ومسلم (٢٦٠٢).

لقد بلغ الشيخ عبد الرزاق عفيفي -يرحمه الله- من الصدق والأمانة مبلغاً وغاية جعلته موضع التقدير والاحترام والتوقير من طلابه ومحبيه، كان لا يتكلم إلا بما يعتقد أنه الحق، وكان يؤثر الصمت في بعض الأوقات، ولكنه إذا تكلم في أمر من الأمور أقنع محدثه لقوة حُجته وصدق لهجته وبعده عن الكلام المبتذل والتلوّن في الحديث، وهذه الصفات الحسنة والخلال الحميدة جعلت الشيخ يحتل مكان الصدارة بين أساتذة الكليات والمعاهد العلمية والمؤسسات الدعوية بالمملكة.

ويؤكد هذا أحد طلابه(١) قائلاً: عرفت الشيخ عبد الرزاق أستاذاً ماهراً وبحراً زاخراً بمختلف علوم التفسير والعقيدة والفقه والأصول وغيرها من جوانب العلوم الشرعية واللغة العربية، وعرفته كذلك محدثاً واعظاً ومرشداً أميناً، جم المعرفة، غزير العلم، متواضعاً كثير الزهد والتقشف مقبلاً على الله في جميع أقواله وأعماله(٢).

قلت: ومنْ قرأ فتاوى الشيخ واستمع إلى ردوده على المستفتين يُدرك أنه كان -رحمه الله- صادقاً في قوله أميناً في نقله لكلام أهل العلم ومذاهبهم، وأنه -رحمه الله- كان يلتمس الحق من وجهته، ويتبعه من مظانه.

حلمه وسعة صدره:

من الصفات الحميدة والفضائل الرشيدة، التي ميّز الله بها الإنسان على غيره من بقية المخلوقات، فضيلة الحلم.

فالحلم من أشرف الأخلاق وأنبل الصفات، وأجمل ما يتصف به

---

(١) هو فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان ـ حفظه الله.

(٢) انظر الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

ذوو العقول الناضجة والأفهام المستنيرة. وهو سبيل كل غاية حميدة، ونتيجة حسنة ونهاية سعيدة.

ولقد بيَّن رسول الله ﷺ منزلة الحليم وما له من أجر وثواب عظيم عند الله وكفى بمحبة الله له، وثناء رسول الله ﷺ عليه، ودليل ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: لأشج عبد القيس: «أن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة». رواه البخاري ومسلم.

وفي سنن أبي داود أن المنذر الأشج قال: يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما»، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلَّتين يحبهما الله ورسوله.

وبلوغ الحليم هذه المنزلة ليس بعجيب ولا غريب، ذلك أن الحلم هو سيد الفضائل، وأُسّ الآداب، ومنبع الخيرات، قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ..﴾ الآية.

قال عطاء بن أبي رباح في تفسير قوله تعالى ﴿هَوْنًا﴾: «حُلماء علماء»[1].

وقال أكثم بن صيفي: «دعامة العقل الحلم، وجماع الأمر الصبر، وخير الأمور العفو»[2].

وقال عطاء بن أبي رباح[3]: «كان يُقال ما أُضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم».

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي (٢٧١/٦) وإحياء علوم الدين (١٧٧/٣).

(٢) انظر إحياء علوم الدين للغزالي (١٧٨/٣).

(٣) سنن الدارمي (١٥٢/١) رقم ٥٧٦.

ولقد منَّ الله تعالى على فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، فجمع له بين أكرم خصلتين، وأعظم خلتين: هما العلم والحلم، والعالم العظيم حقاً كلما حلَّق في آفاق الكمال اتسع صدره، وامتد حلمه، وعذر الناس من أنفسهم، والتمس الأعذار لأغلاطهم.

يقول الدكتور محمد بن لطفي الصباغ: من الصفات التي تَميَّز بها الشيخ عبد الرزاق، سعة صدره، وبعد نظره، وزهده في الدنيا ومتاعها(١).

كان رحمه الله من سعة صدره يتحمل مسايرة جميع أصناف البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعوائدهم وأخلاقهم، وتباين آرائهم، لا يمل حديثهم، ولا يسأم من سماع مشكلاتهم، ولا يغضب من كثرة أسئلتهم وفتاواهم. ويؤكد هذا فضيلة الشيخ يوسف المطلق فيقول: كان الشيخ عبد الرزاق يشجع على العلم والدعوة، وكان يخصص وقته بين إجابة السائل شخصياً أو تحريرياً، وما كان يسأم من السائلين بل كان يبذل جهده حتى يفهم سائله(٢).

وبالجملة فقد كان -رحمه الله- رحب الصدر، عميق الفكر، واسع المدارك، حليماً رفيقاً، لا يواجه أحداً بما يكرهه وذلك لسعة صدره وغزارة علمه وحيائه رحمه الله.

كرمه ومروءته:

الكرم في اصطلاح العلماء هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والإطعام في المحل، وإكرام السائل مع بذل النائل.

---

(١) انظر الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٢) انظر كلمة (هكذا عرفنا الشيخ عبد الرزاق عفيفي) الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

والشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- كان كريماً كرماً أصيلاً لا يتكلف لأحد، وكان يكره المباهاة والمفاخرة، يقدم ما تيسَّر من الطعام ومما كان يعده لنفسه، وكان بذلك قادراً على أن يُقيم في كل يوم وليمة، وكان إذا علم بمجيء عالم أو صديق يعرفه دعاه إلى الطعام وكان طعامه طيب النكهة شهي المذاق، كان يفد إلى بيته طلبة العلم والعلماء والدعاة والذين يبغون الشفاعة في أمر من أمورهم، فكان بيته ملتقى الضيوف وذوي الحاجات ومنتدى العلماء وطلبة العلم، كان جواداً بالخير جالساً على محجة بارزة للضيوف.

وهذه الصورة المشرقة عن كرم الشيخ ومروءته تعتبر بمثابة دعوة مفتوحة إلى التنافس في الخير والتسابق في ميادين الفضيلة والبعد عن الشح والحرص، ذلك أن الإسلام دين يقوم على التعاون والبذل والإنفاق، ويُحذِّر من الأنانية والإمساك، ولذلك رغَّب ﷺ في أن تكون النفوس بالعطاء سخية، والأكف بالخير ندية، ووصَّى أُمَّته بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر وبذل المعروف، وإلى كل خُلُق نبيل.

وأما مروءته، فهي بحر زخَّار، ونهر غمر، ولا شك أن المروءة من شواهد الفضل ودلائل الكرم، وهي حلية النفوس وزينة الهمم.

إنَّ المروءة كلمة يُراد بها الشهامة والرجولة ونصرة المظلوم وكف يد الظالم، وبذل الإحسان، وقِرى الضيف، وكل هذه المعاني الحسنة والخلال الطيبة كانت من أبرز سمات الشيخ عبد الرزاق، بل كانت أُسَّ حياته، ومفتاح شخصيته، وكأن لسان حاله يقول:

وإني لتطربني الخلال كريمة ... طرب الغريب بأوبة وتلاق
وتهزني ذكرى المروءة والندى ... بين الشمائل هزَّة المشتاق

فـإذا رُزِقـتَ خـلـيقـةً محمـودة فقـد اصطـفـاكَ مُقـسِّـم الأرزاق

فـالـنـاس هـذا حـظـه مـال وذا عـلـم وذاك مـكـارمُ الأخـلاق

احترامه لنفسه وحُسن معاشرته لغيره:

إنّ الخُلُق الحسن والأدب الجم، هما المعيار لسلامة النفس من الآفات الظاهرة والباطنة، ولقد جمع الشيخ عبد الرزاق ولا أُزكي على الله أحداً أخلاقاً عالية وأداباً سامية، إلى جانب كرمه وعفته وزهده ومروءته، ولا يعرف ذلك عنه إلا من خالطه عن قرب ونهل من علمه، واستفاد من تجاربه، وفضلاً عن ذلك فإن الشيخ رحمه الله كان ذا هيبة ووقار بريئاً من الكذب بعيداً عن التصنع، مستقل الرأي لا يدّعي ما ليس فيه، ولم يكن متكبّراً ولا ذليلاً، وكان يعرف لنفسه قدرها. ولم يكن من شأنه التلاعب بالأقوال والقضايا الجدلية المؤدية إلى العبث بالحقائق، بل كان جاداً يكره أن يحوط نفسه بمظاهر العظمة الكاذبة.

ولا شك أن هذه الصفات الحسنة والخلال الكريمة جعلت الشيخ موضع تقديرٍ واحترامٍ وإكبارٍ من أقرانه من العلماء ومن طلابه ومحبيه وعارفي فضله والفضلُ يعرفه ذووه.

وفضلاً عن ذلك كلِّه، فإن الشيخ -رحمه الله- كان غايةً في حُسن المعاشرة وقدوة في روعة المؤانسة، لا يحسد ولا يحقد، مجلسه مجلس خير وعِلْم، ومحله محل حياء وحِلْم، يجيب دعوة مَنْ دعاه، ويعود المرضى، ويتجاوز عمن أساء إليه، ويدفع بالتي هي أحسن، ويدعو أصدقاءه وطلابه بكُناهم وأحبّ أسمائهم إليهم، ويميل إلى محادثتهم والتلطف معهم ،وهو مع ذلك عزيز النفس موفَّر الكرامة قوي الإرادة زاهداً فيما عند الناس.

ثباته على مبدئه:

إن الأخلاق إذا تعاورتها الشدائد والأهوال سبكتها وأخرجت منها خُلُقاً قويماً ثابتاً، فالشدائد تظهر ما هو كامن في الإنسان فإما أن تجعل منه خُلَقاً عظيماً يظل على مر الليالي والأعوام نبراساً يستضاء به، وإما أن تقضي عليه فتجعله أثراً بعد عين.

ومن أجل ذلك وجب على من يطمحون الى الظفر وبلوغ المقاصد العظيمة أن يعدُّوا أنفسهم لركوب متن الأهول واحتمال الشدائد وتوطين أنفسهم على المكاره.

وما أروع ما قاله صفي الدين الحِّلي:

لا يمتطي المجد مَنْ لم يركب الخطرا ... ولا يَنال العلا مَنْ قدَّم الحذرا

ومن أراد العلا عفواً بلا تعب ... قضى ولم يقضِ من إدراكها وطرا

لا بد للشهد من نحل يمنِّعه ... لا يجتنِ النفع من لم يحمل الضررا

لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ... ولا تتم المنى إلا لمن صبرا(١)

إن على أصحاب النفوس الكبيرة والهمم العالية والأغراض السامية، أن يتأسوا برسول الله ﷺ في ثباته وسائر أخلاقه.

إن السابر لأغوار الشيخ عبد الرزاق والواقف على سيرته والمتتبع لمراحل حياته، يدرك تمام الإدراك أن الشيخ تميَّز بصفة الثبات على المبدأ ،فما عُرف منه التذبذب في الرأي والتعددية في القول، وما عرفت المداهنة والمجاملة طريقاً إليه، بل كان يقول الحق ويقصده، ويتحرى الصدق ويؤثره، وأدلّ دليل على ذلك أن الشيخ -رحمه الله- كانت له

---

(١) انظر ديوان صفي الدين الحلي ص(٦٩) طبع دار صادر بيروت.

آراء خاصة في بعض المسائل العلمية لا يذكرها إلا للخاصة من أصحابه ولا يسوؤه أن يكون هناك منْ يخالفه فيها وإذا ذُكِرتْ أمامه الآراء التي تخالفه لا ينفعل ولا يتشنج لأنها تخالفه، بل يقول: لكلٍ رأيه[1] وكثيراً ما كنت أسمعه يقول لمن يستفتونه ويسألونه في أمور دينهم بعد أن يُبيِّن لهم الحكم الشرعي فيما سألوا فيه «ما أعرفه قلته إسألوا غيري؟» وهذا إن دَّل فإنما يدل على ثقته بنفسه واعتزازه بدينه وخوفه من ربه، لا يخشى في ذات الله لومة لائم وفضلا عن ذلك فقد كان رحمه الله قوياً صلباً ليناً سهلاً، قوياً، صلبا فيما يعتقد أنه الحق، لينا سهلاً في الرجوع إلى الصواب وإلى ما يظهر له أنه خلاف الحق الذي ثبت بالأدلة الصحيحة الصريحة.

ابتلاؤه وصبره:

الابتلاء سنة من سنن الله الكونية، به يتميز الطِّيب من الخبيث والمؤمن من المنافق.

إن الشدائد والنوازل تستجيش مكنون القوى وكوامن الطاقات، وتتفتح في القلوب منافذ ما كان ليعلمها المؤمن من نفسه إلا حين يتعرض للابتلاء. إن من حكمة الله في الابتلاء أن تستيقظ النفس ويرق القلب بعد طول غفلة فتتوجه الخلائق إلى ربِّها، يتضرعون إليه، يرجون رحمته وعفوه.

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله: لابد من الابتلاء بما يؤذي الإنسان، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة، ولهذا ذكر الله سبحانه في غير

---

(١) انظر كلمة (الشيخ عبد الرزاق عفيفي من بقية السلف) للدكتور محمد بن لطفي الصباغ، الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

موضع من كتابه أنه لابد أن يُبتلي الإنسان بما يسرُّه وما يسوؤه فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً[1].

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

لقد ابتلي الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- بابتلاءات عظيمة في هذه الدنيا ونزلت به كوارث شديدة، فلم تضعفه هذه الابتلاءات وتلك الكوارث بل كان صابراً محتسباً، ومن هذه الابتلاءات التي ابتلي بها الشيخ في حياته، أنه أصيب بشلل نصفي، وعافاه الله منه، وأصيب بعدد من الأمراض فكان نعم العبد الصابر، وقُتل ولده الأكبر أحمد عاصم، فتلقى الخبر صابراً محتسباً، ثم تُوفي أصغر أبنائه عبد الرحمن، فكان كذلك في غاية الصبر والرضى بقضاء الله وقدره ثم توفي ابنه عبد الله فجأة فكان أيضاً مثالاً في الصبر والاحتساب.

ومما يدل على صبر الشيخ وتجلده أنه لما جاءه خبر وفاة ابنه أحمد، وهو مدير ومحاضر في المعهد العالي للقضاء، لم يتوقف عن برنامجه اليومي بل جاء إلى طلابه، وألقى المحاضرة عليهم دون تأثر أو تلعثم[3].

فرحم الله الشيخ رحمة واسعة وضاعف مثوبته.

نظرته إلى المجتمع ونظرة المجتمع إليه:

أما نظرته إلى المجتمع الإسلامي، فقد كان الشيخ -رحمه الله- يعيش عصره ويدرك بعمق شراسة الغزو الفكري الاستعماري

(١) انظر كتاب الفوائد ص٢٠٤.

(٢) سورة البقرة: الآية (١٥٥).

(٣) انظر كلمة الدكتور صالح بن سعود آل علي ـ الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

للمسلمين، ويعرف التيارات الفكرية والسياسية التي تسود العالم وتغزو بلاد المسلمين يعرفها تمام المعرفة، ويدرك واقع الأمة الإسلامية تمام الإدراك ويعي قضاياها، ويعيش أحداثها ساعة بساعة ولحظة بلحظة، وكانت معرفته بالرجال المعاصرين من الأعلام وغيرهم معرفة دقيقة، وكان حكمه عليهم حكماً سديداً، يعرف أوضاعهم الاجتماعية وعادات بيئاتهم، ومدى تأثرهم بذلك كله.

كان قوي العزم في معالي الأمور، لا يعتريه فتور ولا خور في نصر العقيدة الصافية والمبادئ الإسلامية، ولا يقعده عن البلاغ رغبة ولا رهبة ولا خوف من ذي سلطان، لأن القلب الذي أُشرب حلاوة الإيمان يكتسب قوة روحية وحصانة دينية ونوراً ربانياً، فلا يجد أحد لإغوائه سبيلاً.

أما نظرة المجتمع إليه، فقد كانت نظرة تقدير واحترام وإكبار، ذلك أن الشيخ -رحمه الله- كان محبوباً من المجتمع، ومِن كلِّ مَنْ عرفه وخالطه وتتلمذ على يديه، كما كان محل التقدير والإجلالِ من كلِّ الناس على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم.

كان يتميز -رحمه الله- بطيب المعشر، والزهد في الدنيا والبعد عن مباهجها، وكان يُصدِّق قوله فعله، وكان غاية في التواضع يُقدر الناس ويكرمهم مهما كانت منازلهم، وقد حببه ذلك لكل من عرفه أو جالسه أو درس على يديه ونهل من مناهل علمه الغزير[1].

---

(١) انظر كلمة فضيلة الدكتور صالح بن عبد الرحمن الأطرم في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

لقد كان العلماء والعامة وطلبة العلم يقبلون على مجلس الشيخ، يستمعون إلى نصائحه القيِّمة وتوجيهاته السديدة وآرائه النيّرة، مع توقيرهم لشخصه وتقديرهم لعلمه، مع محبة صادقة خالصة يُرجى بها وجه الله لعالم بذل علمه ووقته وماله دفاعاً عن دينه وذبّاً عن عقيدته وغيرة على مجتمعه وأُمَّته.

لقد كان -رحمه الله- حريصاً على صيانة المجتمع الإسلامي من الانحرافات العقدية، وصيانته من الاعتقادات الشركية، كان مجاهداً في سبيل الله ونشر دعوة التوحيد بقلمه ولسانه.

ومما يؤكد هذا ويدعمه ما كتبه فضيلة الدكتور صالح بن سعود آل علي قائلاً: لقد خبرت فضيلة الشيخ عبدالرزاق -رحمه الله- عن قرب، ورأيت فيه ما كنت أقرأ عن علماء السلف من العلم الجم، والفقه في الدين والتحلي بمبادئ هذا الدين، من تواضع وتقيً وزهد وورع وصبر وحبٍ لهذه الأُمَّة، وحرصٍ على أن تظل كما هو مُؤمَّل منها، منارة هدى، ومصدر إشعاع، وموئل عز للإسلام والمسلمين[1].

(١) انظر كلمة (العفيفي المفتي والعالم والمربي) الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

الفصل الثاني

حياته العلمية والعملية

المبحث الأول: مكانته العلمية وبداية تلقيه للعلم.

المبحث الثاني: نبوغه المبكر وتقدمه على أقرانه.

المبحث الثالث: شيوخه ومؤهلاته.

المبحث الرابع: تلاميذه ومؤلفاته ورأيه في التأليف.

المبحث الخامس: مذهبه وفقهه وتضلعه في أصول الفقه.

المبحث السادس: تدريسه وقدرته الهائلة على إيصال المعلومات.

المبحث السابع: علو همته وغزارة مادته العلمية واحترامه لطلابه.

المبحث الثامن: جهوده الدعوية ودروسه العلمية.

المبحث التاسع: مكتبته وعمل يومه وليلته.

المبحث العاشر: تعليقاته القيِّمة ونقده الهادف البنَّاء.

المبحث الحادي عشر: فتاواه وبحوثه.

الفصل الثاني
حياته العلمية والعملية

المبحث الأول
مكانته العلمية وبداية تلقيه للعلم

مكانته العلمية:

إن العلم حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول ولذة الأرواح، وأُنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي تُوزن به الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرِّق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال، به يُعرف الله ويُعبد ويذكر ويُوحَّد، وبه تُعرف الشرائع والأحكام ويتميز الحلال من الحرام، وهو كُلٌّ لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كُلّك، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وفي السلوك سادة.

ومن هذا يتبين ما للعلم من مزية وفضيلة ومكانة في الحياة العاجلة والآجلة، ولهذا سارع في طلبه العقلاء وتنافس فيه المتنافسون، وبه تفاوت الكثير من الناس في منازلهم ودرجاتهم حسب تفاوتهم في مداركهم وتحصليهم وإنتاجهم، وبه انتظم أمر الكون ونهضت الأمم، وكان لمن برز فيه القدح المعلَّى والمقام الأسمى، وإنما يكون ذلك لمن سَّدد الله خطاه، وبصَّره بشؤون دينه ودنياه فَعَلِم وعلَّم، وكان مثالاً يحتذى في قوله وعمله وسيرته وخُلقُه.

ومن هؤلاء العلماء -ولا نزكي على الله أحداً- فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -يرحمه الله- فقد كان من العلماء الذين عُرفوا بجهادهم ودعوتهم إلى الله، وبذلهم أنفس أوقاتهم وزهرة شبابهم دفاعاً عن دينهم، وذباً عن عقيدتهم وقد اشتغل -يرحمه الله- بالعلم منذ نعومة أظافره حتى صار عالماً فحلاً، وصار العلم شغله الشاغل فلا تراه إلا دارساً متعمقاً محباً للعلم منكباً عليه، صاحب بصر نافذ، ونفس طُلعة لا تكاد تشبع من العلم ولاتمل من البحث، ولا تُروى من المطالعة، مع التوفر على ذلك وقطع النفس له وصرف الهمة نحوه، يصيب الإنسان عنده العلم الذي لا يصيبه عند غيره.

وبالجملة فقد رُبِّي الشيخ عبد الرزاق عفيفي تربية عالية فتعلم كثيراً من العلوم التي كانت رائجة في عصره، ومن ثَّم احتل مكانة بارزة بين أقرانه من رجال العلم وعلماء الدِّين وحملة الشريعة.

وقد تميَّز الشيخ -يرحمه الله- عن كثيرٍ من علماء عصره بزهده في الدنيا وتقلله من متاعها وحرصه الشديد على نشر العلم وتعليمه والعمل بمقتضاه.

وكان يرى أن من أوجب الواجبات إرشاد المسلمين وإفتاء المستفتين، ونصح الطالبين وإظهار العلم للسائلين. وقد أبان عن هذا كلّه وحرره في كلمته الوافية التي ألقاها عند توليه لرئاسة جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر،ذاكراً في كلمته وموضحاً واجب العالم نحو أُمَّته ودينه فقال:

«لقد كان العالم من سلف هذه الأُمَّة يجد نفسه وقد أنعم الله عليه بنعمة العلم وعهد إليه أن يبلغه للناس مضطراً إلى القيام بهذا

العلم فلا يعتريه في نشر الثقافة الدينية والمبادئ الإسلامية فتور ولا خور ولا يقعده عن البلاغ رغبة ولا رهبة ولا خوف من سلطان، لأن القلب الذي أُشرب حلاوة الإيمان يكتسب قوة روحية وحصانة دينية ونوراً ربانياً، فلا يجد أحد إلى إغوائه سبيلاً فمهما جاهد الشيطان هذا المخلص فلن يتاح له أن يوهن عزيمته أو أن يمس عقيدته.

وإن قلباً قد صُبغ بصبغة الله وتشبع بتعاليم الإسلام حتى ملكت سويداءه، ليأبى أن يخضع لسلطة قاهر، أو يرهب بطش جبار في الجهر بكلمة الحق بعد ما خشع لسلطان ربه، واشتد خوفه منه وعلم أنه ملك قهار جبار بيده نواصي العباد، وأن ذلك ليخلق منه سيفاً مسلَّطاً وناراً متأججة يقذف بها من عاد الله وبارزه بعصيان. لا يخاف في الله لومة لائم.

كان العلماء بذلك قوّامين على الدِّين حفظاً ونشراً وبلاغاً ونصيحة وإرشاداً، وكانوا خير قدوة للناس ومُثلاً عليا في إصابة الحق وتأييده وكشف الباطل وإزهاقه قولاً وعملاً، يقصدهم الناس ليكشفوا لهم وجه الصواب بما ورثوه عن نبيِّهم ﷺ فيجدوا لديهم ما يروي غلتهم ويزيل شبهتهم ويزيد يقينهم وإيمانهم وتعلقهم بشريعة سيِّد المرسلين، ولم يكن يدخل في أمر الفُتيا مَنْ ليس من أهله، فعرف كلٌ قدره ووقف عند حده..»[(١)].

قلت: وقد ثبتت له الإمامة في كثير من الجوانب العلمية، فهو إمام في العقيدة ومن المبرَّزين في هذا الباب، وإمام في السُّنة لشدة تمسكه بها، ودفاعه عنها، وإمام في الفقه وأصوله لا يشق له غبار، وإمام في

(١) مجلة الهدى النبوي ـ العدد الأول ربيع الآخر سنة ١٣٥٦هـ.

التفسير، وقد ذكر ذلك عنه كثيرٌ من تلاميذه، وأبانوا عنه في كتاباتهم.

يقول الدكتور صالح بن سعود آل علي: كان رحمه الله ذا باع طويل في الشريعة، وله القدح المعلّى في التفسير وعلوم القرآن. وقلَّ أن يوجد له نظير في التوحيد وعلوم العقائد والمذاهب والملل والنِّحل، أما في علم أصول الفقه فهو عَلَم من أعلامه، له في ميدانه اليد الطولى، وأما الفقه فإليه فيه المنتهى(١).

بداية تلقيه للعلم:

تعتبر البداية الحقيقية لطلب الشيخ للعلم عندما وجَّهه والده إلى كُتَّاب القرية لحفظ كتاب الله تعالى، ذلك أن الناشئ من العلماء ينشأ مرتبطاً بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد أكب الشيخ -رحمه الله- على حفظ كتاب الله فأحسن تلاوته وحفظ كثيراً منه، وقد أوتي سرعة في الحفظ وقوة في الفهم وجودة في الخط، وكل هذا وغيره مكّنه من حفظ كتاب الله تعالى والإقبال عليه بكليته على الرغم من صغر سنِّه، وحُق للقرآن أن تُفنى فيه الأعمار وأن تُعمر به الأزمان، لقد كان حفظ الشيخ لكتاب الله في سن مبكرة هي الخطوة الأولى للدخول في طلب العلم الشرعي بصورة جادة ومنتظمة، ثم واصل الشيخ بعد ذلك دراسته في همة لا تعرف الكلل ونفس طلعة لا تعرف الملل. وقد أكد هذا كلّه فضيلة الشيخ عبد الحميد بن عبد المطلب الهلالي من أعيان قرية (شنشور) في كلمته التي تناول فيها نشأة الشيخ ووضَّح فيها بداية تلقيه للعلم قائلاً: لقد نشأ فضيلة الشيخ عبد

(١) انظر: كلمة «العفيفي المفتي، والعالم والمربي» الفصل السادس «ثناء العلماء عليه». وبتوسع أكثر انظر الفصلين السادس والسابع.

الرزاق نشأة طيبة وسط أسرة طيبة الأعراق حسنة السمعة، درس القرآن الكريم منذ نعومة أظافره على يد كل من والده الشيخ عفيفي عطية النوبي ثم في كُتَّاب القرية حيث كان نابغاً في حفظ كتاب الله تعالى، وقد أُعفي من الجندية (الخدمة العسكرية) حسب النظام المعمول به وقتئذ لحفظه القرآن الكريم كاملاً[1].

قلت: وإلى جانب حفظ الشيخ للقرآن، كان يحفظ بعض المتون كما هي عادة طلبة العلم الذين كانوا يدرسون في الكتاتيب في هذا الوقت، فضلاً عن ذلك فقد كان يُعطي جلَّ وقته -على الرغم من حداثة سِّنه- لمراجعة محفوظاته ولتعلم قواعد النحو والإملاء والحساب، بتوجيهٍ من والده.

(١) انظر كلمة «العالم الكبير»، الشيخ «عبد الرزاق عفيفي» الفصل السادس «ثناء العلماء عليه».

المبحث الثاني

نبوغه المبكر وتقدمه على أقرانه

لقد عُرف الشيخ عبد الرزاق عفيفي منذ صغره بالألمعية النادرة، والنجابة الظاهرة، والذكاء المفرط، والنبوغ المبكر(١)، حتى بزَّ أقرانه،وفاق أترابه، وعلى الرغم من حداثة سِنِّه فقد كان صاحب هِمة عالية، ونفس أبيّة جعلته موضع تقدير، ومحل تبجيل من كلِّ مَنْ عرف الشيخ وخالطه وزاملهُ.

ومن الأدلة على نبوغ الشيخ وشدة ذكائه، حفظه المتقن لكتاب الله تعالى في سن مبكرة، مما كان سبباً في إعفائه من الخدمة العسكرية بمصر. ولعل سائلاً يسأل: ما سر تفوقه؟ وما سبب نبوغه وتقدمه؟ والجواب:

إن المتأمل في سيرة المترجم له، السابر لأغواره، يدرك أن وراء ذلك أسباباً عديدة منها:

١- إخلاص النية في طلب العلم، مع حُسن القصد وصدق التوجه إلى الله تعالى.

---

(١) انظر كلمة أهالي شنشور في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه). وفي كلمة فضيلة الشيخ مناع بن خليل القطان في الفصل السادس ما يشهد لما ذكرته من نبوغ الشيخ منذ صغره، فقد ذكر في كلمته بأن الشيخ عبد الرزاق عفيفي كان موهوباً بين أقرانه الذين هم في مثل سنه وعزا ذلك لحفظه للقرآن الكريم وإقباله على العلم.

إن من عمَّر ظاهره بالسُّنة وباطنه بالإخلاص تفجرت في صدره ينابيع العلم ولم يكن ينطق إلا بالحكمة وقد أكد ذلك الشوكاني - رحمه الله- بقوله: «إن لحسن النية وإخلاص العمل تأثيراً كبيراً في هذا المعنى».

٢- نشأته الصالحة في بيئة ريفية لم يُكدر صفوها مظاهر الحضارة الكاذبة، ولا بريق المدنية الزائف.

٣- عناية ربانية رحيمة، ومنن إلهية امتن الله بها على الشيخ فكان لها أعظم الأثر في تفوقه العلمي ونبوغه المبكر.

٤- استعداده الفطري، وصفاء ذهنه، وحضور بديهته، وقوة حافظته، وغير ذلك من المواهب التي أنعم الله بها عليه، وكان لها أبلغ الأثر في حياته.

٥- دقة استحضاره، وسلامة منهجه واستقامة حياته، وجَولان ذهنه، ورعاية والده له، وحُسن استجابته لتوجيهات ونصائح أساتذته وشيوخه.

٦- استثمار وقته في البحث والمطالعة، مع توفر همته وتوقد رغبته في مدارسة العلم بمختلف فنونه، ومجالسة العلماء والاستفادة منهم.

المبحث الثالث

شيوخه ومؤهلاته

في تراجم العلماء كثيراً ما تُذكر الأسماء العديدة لمشايخ المُترجَم له وبخاصة الشخصيات العلمية البارزة، والكفاءات العالية ذات التأثير القوي، وغالباً ما يكون هؤلاء عدداً قليلاً ومحدوداً.

ومن العلماء الذين تتلمذ الشيخ لهم ونهل من علمهم، واستفاد من دروسهم.

الشيخ محمد بن حسن عافية، والشيخ محمد بن عبود عافية وهما من علماء قريته (شنشور) وأما أشهر شيوخه وأكثرهم تأثيراً فيه، فمنهم الشيخ أحمد نصر شيخ السادة المالكية، والشيخ دسوقي العربي، والشيخ عبد المعطي الشربيني، والشيخ يوسف الدجوي، والشيخ محمد العتريس، والشيخ إبراهيم الجبالي، والشيخ مصطفى المراغي، وغيرهم.

وأما أقران الشيخ ومعاصروه فهم أمم لا يُحصون ومنهم على سبيل المثال لا الحصر:

- الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب مجلة المنار، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر، والشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية في مصر آنذاك، والعلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ العلامة محمد الخضر حسين، والشيخ الإمام حسن مأمون مفتي مصر في زمنه، والشيخ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار الأمين العام

للمجلس الأعلى للأزهر سابقاً، والشيخ الإمام جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر سابقاً رحمهم الله جميعاً. ومن أقرانه أيضاً: فضيلة الدكتور محمد حسن فايد -رحمه الله- والدكتور عبد المنعم النمر والدكتور محمد الطيب النجار- حفظهما الله. وكذلك فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية سابقاً، وفضيلة الشيخ عبد الظاهر أبو السمح مدير دار الحديث ومؤسسها بمكة المكرمة وإمام وخطيب المسجد الحرام، وفضيلة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، والشيخ محمد علي عبد الرحيم، والشيخ محمد عبد الوهاب بحيري، والشيخ محمد خليل هرّاس، والشيخ عبد الله بن يابس، والشيخ عبد العزيز بن راشد، وفضيلة الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز بن مانع رحمهم الله جميعاً.

ومن أبرز أقرانه وأشهر معاصريه:

سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم المفتي السابق للمملكة العربية السعودية ورئيس الكليات والمعاهد العلمية -رحمه الله.

وسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء حفظه الله.

ومنهم سماحة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله.

وسماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رحمه الله.

ومنهم فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله.

ومنهم فضيلة الشيخ عبد الرحمن الأفريقي رحمه الله.

ومنهم فضيلة الشيخ محمد ناصرالدين الألباني حفظه الله.

ومنهم فضيلة الشيخ محب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية رحمه الله.

ومنهم فضيلة الشيخ محمد بهجت البيطار رحمه الله.

ومنهم فضيلة الشيخ سعدي ياسين رحمه الله.

ومنهم فضيلة الشيخ إسماعيل الأنصاري -رحمه الله.

ومنهم فضيلة الشيخ محمد نصيف رحمه الله.

وأمم يصعب حصرهم واستقصاؤهم.

مؤهلاته العلمية:

وأما مؤهلات الشيخ العلمية فهي على النحو التالي:

لقد تحصل الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- على عدد وافر من الشهادات والإجازات العلمية، وأعلى هذه الشهادات والمؤهلات التي نالها الشيخ حفظه المتقن والمجود لكتاب الله، والذي أتاح له فرصة الالتحاق بالأزهر في عصره الذهبي حيث التقى الشيخ في ساحته وبين أروقته وباحته بجبال العلم وشيوخ المعرفة وأفذاذ الطلبة وجهابذة المحدثين.

وقد تخرَّج الشيخ في الأزهر من أعلى مستوياته، فقد تحصَّل على الشهادتين الابتدائية والثانوية ثم تحصَّل على شهادة العالمية في الرابع والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٥١هـ الموافق السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٣٢م.

وفي الرابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٥٥هـ الموافق الثامن والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٦م منح شهادة التخصص في الفقه وأصوله، وهي التي تُعرف اليوم بشهادة (الدكتوراه).

ثم واصل الشيخ تحصيله العلمي حتى أضحى من العلماء الفحول والحفظة العدول.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن الشيخ عبد الرزاق - يرحمه الله- لم يكن يعبأ بهذه الشهادات، ولم يفاخر بها، وما سمعته قط يتحدث عنها ذاكراً أو آثراً.

ويؤكد هذا فضيلة الدكتور محمد بن سعد الشويعر قائلاً: كان الشيخ عبد الرزاق رحمه الله ممن يزهد في الشهادات الدراسية، والتشدق بذكرها، وإنما يراها وسيلة لحمل العلم، وثقل الأمانة التي يجب أن تؤدى، ولم نسمعه يوماً يتحدث عن المؤهل الذي تحصّل عليه[1].

فرحم الله هذا العالم المحقق، والحافظ المدقق، والمحدث الجهبذ، والعالم الجليل، والفقيه النبيل.

(١) انظر كلمة (من نوادر العلماء) الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

المبحث الرابع

تلاميذه ومؤلفاته ورأيه في التأليف

تلاميذه:

من الصعب جداً حصر الطلاب الذين تلقُّوا العلم على فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- وقعدوا منه مقعد الدرس والتحصيل، ولكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه.

لقد تخرّج به أعداد كبيرة من العلماء والدعاة والمُحصِّلين تسلموا مناصب علمية وعملية مرموقة في داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، ومن هؤلاء العلماء الذين تخرجوا به -رحمه الله- وأصبحوا أنجماً متألقة في سماء العلم والمعرفة:

- صاحب الفضيلة الشيخ: صالح بن محمد لحيدان، رئيس مجلس القضاء الأعلى وعضو هيئة كبار العلماء.

- صاحب الفضيلة الشيخ: ناصر بن حمد الراشد، رئيس ديوان المظالم بالمملكة العربية السعودية.

- صاحب الفضيلة الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

- صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد الرحمن البسام، رئيس هيئة التمييز بالمنطقة الغربية.

- صاحب الفضيلة الشيخ: عبد العزيز السعيد، الرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- صاحب الفضيلة الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، عضو هيئة كبار العلماء وإمام وخطيب جامع الإمام تركي بن عبد الله بالرياض.

- صاحب الفضيلة الشيخ: عبد العزيز بن محمد عبد المنعم، الأمين العام لهيئة كبار العلماء.

- صاحب الفضيلة الشيخ: ناصر بن عبد العزيز بن محمد الشثري، المستشار بالديوان الملكي.

- صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد الرحمن بن غديان، عضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية وعضو هيئة كبار العلماء.

- صاحب الفضيلة الشيخ: صالح الفوزان آل فوزان، عضو هيئة كبار العلماء.

- صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن عبد الله السُّبيل، الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي وعضو هيئة كبار العلماء.

- صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين، الأستاذ بجامعة القصيم وعضو هيئة كبار العلماء.

- صاحب الفضيلة الشيخ: مناع بن خليل القطان، عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام سابقاً.

- صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن عبد الله العجلان، مدير جامعة الإمام سابقاً وعضو مجلس الشورى.

- صاحب الفضيلة الدكتور: محمد بن لطفي الصباغ، الأستاذ بجامعة الملك سعود بالرياض.

- صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن سليمان بن منيع، القاضي بمحكمة التمييز بمكة المكرمة، وعضو هيئة كبار العلماء.

- صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، عضو الإفتاء بالرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء.

- صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن حسن بن قعود من علماء المملكة العربية السعودية.

- صاحب الفضيلة الدكتور: عبد العزيز كامل وزير الأوقاف المصري سابقاً.

- صاحب الفضيلة الشيخ: راشد بن خنين، المستشار بالديوان الملكي.

- صاحب الفضيلة الدكتور: صالح الأطرم، عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية.

وأما تلاميذه بالمعهد العالي للقضاء بالرياض فمنهم:

فضيلة الشيخ: إبراهيم بن محمد بن سلطان، وفضيلة الشيخ علي بن حمد التركي وفضيلة الشيخ محمد العسكري، وفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم العريني، وفضيلة الشيخ محمد بن حمد الحناكي، وفضيلة الشيخ سعيد بن محمد بن رشيد، وفضيلة الشيخ محمد بن مرزوق بن معيتق، وفضيلة الشيخ إبراهيم بن عيسى العود، وفضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان، وفضيلة الشيخ سالم بن محمد السالم،

وفضيلة الشيخ صالح بن محمد النجيدي، وفضيلة الشيخ محمد بن عبد الله الأمير، وفضيلة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الهويش، وفضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الراشد، وفضيلة الشيخ مسفر البحري، فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم بن قعود، وأممٌ لا يحصون كثرة قد تخرجوا به في المملكة العربية السعودية ومصر والشام وغيرها من البلاد.

مؤلفاته ورأيه في التأليف:

كان الشيخ عبد الرزاق -يرحمه الله- لا يرى التأليف ولا يرغب فيه، مع غزارة علمه وسعة إدراكه ووفرة مادته، وكان يعلّل ذلك بأن الناس عامة،وطلبة العلم خاصة بحاجة ماسة إلى القراءة والاطلاع أكثر من حاجتهم للتأليف والتصنيف.

ولعل السبب الحقيقي الذي حمل الشيخ على ترك التأليف مع التمكن من أدواته، زهدهُ في الشهرة والسمعة والمناصب، وتفرغه لتربية الأجيال، وبناء النفوس، وإعداد العلماء وتهيئتهم بالعلم والعمل وحمل أمانة التبليغ.

وبينما يرى الشيخ أنه لا حاجة للناس في التأليف، وأنّ هذه الكتب والمؤلفات الحديثة لا فائدة فيها، وأنّه يُكتفى بما كتبه وجمعه العلماء السابقون، حيث إنهم تطرّقوا إلى كل فن، وأوضحوا ما يحتاج إلى توضيح، وأنَّ مَن جاء بعدهم عيال عليهم.

أقول: بينما يرى ذلك الشيخ ويؤكده في كلِّ مجلس يجلسه، يرى غيره من العلماء ومن طلبة العلم، رأياً آخر يخالف رأي الشيخ، يدعو إلى التوسع في التأليف والتصنيف ويحتج لذلك بقول الشاعر:

قُلْ لِمَنِ لا يرى المُعاصرَ شيئاً ... ويرى للأوائل التَّقديما

إنَّ ذاكَ القديَم كان حديثاً   وسيبقى هذا الحديثُ قديماً

قلت: ومن أجمل ما قرأت في هذا الخصوص، ما كتبه جمال الدين القاسمي في كتابه القيِّم (قواعد التحديث)، قال رحمه الله:

إعلم: أن نتائج الأفكار لا تقف عند حدٍ، وتصرفاتِ الأنظار لا تنتهي إلى غاية، بل لكلٍّ عالمٍ ومتعلمٍ منها حظٌّ يحرزه في وقته المقدر له، وليس لأحدٍ أن يزاحمه فيه، لأن العَالَم المعنوي واسع كالبحر الزَّاخر، والفيض الإلهي، ليس له انقطاع ولا آخر، والعلوم مِنحٌ إلهية، ومواهب صمدانية، فغيرُ مستبعدٍ أن يدَّخر لبعض المتأخرين، ما لم يدَّخر لكثير من المتقدمين، فلا تغترَّ بقول القائل: «ما ترك الأول للآخر!» بل القول الصحيح الظاهر: «كم ترك الأوّل للآخر»، فإنَّما يُستجاد الشيء ويُسترذل، لجودته ورداءته في ذاته، لا لِقِدَمِه وحدوثه. ويقال: «ليس كلمة أضر بالعلم من قولهم: ما ترك الأول شيئاً» لأنه يقطع الآمال عن العلم ويحمل على التقاعد عن التعلم فيقتصر الآخر على ما قدَّم الأوّل من الظاهر، وهو خطرٌ عظيم، وقول سُقيم، فالأوائل وإن فازوا باستخراج الأصول وتمهيدها، فالأواخر فازوا بتفريع الأصول وتشييدها[1].

وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد: «إني رأيتُ آخر كلِّ طبقة، واضعي كلِّ حكمة، ومؤلِّفي كلِّ أدب، أهذب لفظاً، وأسهَل لغة، وأحكم مذهباً، وأوضَح طريقةً من الأوّل، لأنَّه ناقد متعقب والأول بادئ متقدم»[2].

(١) انظر قواعد التحديث ص٣٨، ٤٩.

(٢) انظر العقد الفريد (١/١٦٦).

المبحث الخامس

مذهبه وفقهه وتضلعه في أصول الفقه

مذهبه وفقهه:

لعل من نافلة القول، ومكرور الكلام أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي -يرحمه الله- كان إماماً متفقاً على إمامته وجمعه على جهة التمكن بين علمي الحديث والفقه.

وكان مالكي المذهب ،وكان يتمثل بقول الشاعر الذي كان يتمثل به مالك رحمه الله:

وخير أمور الدنيا ما كان سُنة ... وشر الأمور المحدثات البدائع

لكن من المؤكد أن الشيخ -رحمه الله- وهو صاحب العقل الراجح، والفكر المستنير لم يكن يتعصب للمذهب المالكي ولا لغيره. بل كان يكره التعصب والهوى ولا ينتصر لغير الدليل.

لذا فإنه لم يقف في دراسته الفقهية عند حدود مذهب بعينه بل خرج عن هذا الإطار المحدد إلى الدراسة الواسعة الشاملة كما أننا نجد له في ثنايا فتاواه وكتاباته اختيارات من مختلف المذاهب الإسلامية وأحياناً يخرج عنها إلى اجتهاده ويدعمه بالدليل والبرهان.

وكان يرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وهو رأي كل حكيم عليم بداء الأمة

ودوائها قديماً وحديثاً. ومما يؤكد ويبرهن على مصداقية ما ذكرته ما كتبه أحد معاصريه قائلا: كان الشيخ عبد الرزاق -يرحمه الله- فقيهاً مجتهداً، وما كان يرضى التعصب لمذهب من المذاهب مع إحاطته بها بل كان يمشي مع الدليل، وقد تكونت لديه ملكة فقهية عظيمة[(١)].

ويقول فضيلة الشيخ صالح الأطرم: كانت دراسة الشيخ في الفقه على مذهب مالك ويدرسنا المقنع على مذهب أحمد بكل يسر وسهولة[(٢)].

وبالجملة فقد كان -رحمه الله- غاية في معرفة المذاهب وأقوال الفقهاء لا يقلد أحداً، وله عادات جميلة في نقل المذاهب وأقوال أهل العلم، فإنه لا ينقل قولاً منسوباً إلى أحد الفقهاء إلا وهو على ثقة تامة أنه قوله، وكانت له عناية شديدة بالحديث وطرق رواته فلا يذكر باباً من أبواب الفقه أو مسألة من مسائله إلا وهو يذكر الحديث وطرقه ودرجته استدلالاً به على المسألة.

ويمتدح فضيلة الدكتور عبد الله بن حافظ الحكمي فقه الشيخ وتضلعه في هذا العلم فيقول: كان الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- في علم الفقه سريع الاستحضار للأحكام الشرعية محيطاً بأدلتها، عالماً بقواعدها وأصولها، مدركاً لأشباه المسائل ونظائرها، سديد الرأي، صائب الاجتهاد، يفتي السائل على حسب حالته ومستواه من الجهل والعلم[(٣)].

وتأكيداً لما ذكره العلماء من ثبوت الإمامة للشيخ عبد الرزاق في

(١) انظر ما كتبه فضيلة الدكتور محمد بن لطفي الصباغ في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٢) انظر كلمة الدكتور صالح الأطرم في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

(٣) انظر كلمة (ذكريات مع الحبر الفقيد) الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

الفقه وغيره يقول فضيلة الدكتور صالح بن سعود آل علي: كان - رحمه الله- ذا باع طويل في علوم الشريعة، له القدح المعلّى في التفسير وعلوم القرآن، وقل أن يوجد له نظير في التوحيد وعلوم العقائد، وأما علم أصول الفقه فهو عَلَم من أعلامه، له في ميدانه اليد الطولى، وأما الفقه فإليه فيه المنتهى[1].

وبعد هذه الكلمات المضيئة التي أثنى فيها كاتبوها على فقه الشيخ وتضلعه في كثير من العلوم والفنون، فإنه يجمل بي أن أُوقف القارئ الكريم على مقتطفات من كتابات الشيخ وبحوثه الفقهية، وهي كتابات وبحوث تتسم بالأصالة والعمق والشمولية والاستيعاب والإحاطة بالمباحث والمسائل من جميع جوانبها. ومن هذه المباحث الفقهية التي أدلى الشيخ فيها بدلوه، «مبحث المعاملات المصرفية، ومبحث البورصة»، وفي هذين المبحثين يلحظ القارئ أن الشيخ عبد الرزاق كان من العلماء المتمكنين في الفقه الإسلامي الواقفين على مستجداته، كما يلحظ ميل الشيخ إلى التقعيد الفقهي، وعقد المقارنة بين المذاهب الفقهية في المسائل المطروحة للبحث والترجيح بينها، وقد تجلّى ذلك في مقدمة مبحث «المعاملات المصرفية» فقال:

«المعاملات المصرفية أنواع كثيرة متشعبة الجوانب، وبعضها واضح قريب المأخذ لا يحتاج إلى كثير تفكير أو بذل مزيد من الجهد، وآخر منها يشوبه الغموض ويداخله الاشتباه فيحتاج إلى دقة في بحثه وبذل جهد في تمحيصه وتشخيصه وتخليصه مما شابه، وإلى بُعد نظر في عرضه على القواعد الشرعية الإسلامية، وتطبيقها عليه، مع الاقتصار على الخطوط

---

(١) انظر كلمة (العفيفي المفتي والعالم والمربي) الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

الرئيسية لهذه الأنواع والمعاملات المهمة التي كثر تداولها وانتشر التعامل بها، والتي إذا مُحِّصت وعُرف حكمها في الشريعة الإسلامية عُرف حكم ما تشعب عنها من فروعها الجانبية».

ثم يستعرض الشيخ في هذا المبحث عدداً من أنواع المعاملات المصرفية التي قام ببحثها ممهداً لهذه الدراسة الموسعة بتعريف دقيق للربا مع بيان حكمه وعلته فيقول:

الرِّبا بالقصر: الزيادة، وهو مصدر ربا الشيء يربو إذا زاد سواء كانت زيادة الشيء في نفسه أم بالنسبة لغيره، وفي اصطلاح الفقهاء، زيادة أحد عوضين من جنس على الآخر، أو تأخير بعضه، في عقد معاوضة على معادن أو أطعمة مخصوصة بيَّنتها السُّنة النبوية.

وقد نص القرآن صريحاً على تحريمه وتوعد مَنْ اقترفه بالمحق وآذنه بالحرب إلا من تاب واكتفى بأخذ رأس ماله فإن الله يتوب عليه. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ إلى أن قال: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

وبيَّن النبي ﷺ نوعية ربا الفضل وربا النساء وحرّم كُلاًّ منهما في كثير من الأحاديث منها قوله ﷺ: «لاتبيعوا الذهب بالذهب إلا مِثلاً

(١) سورة البقرة، الآيات (٢٧٥ ـ ٢٧٩).

بمثل، ولا تُشِفُّوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا الوَرِق بالوَرِق إلا مثلا بمثل، ولا تشفوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائباً بناجز» رواه البخاري ومسلم.[1] ومنها قوله ﷺ: «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مِثْلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد» رواه أحمد ومسلم.[2] وأجمعت الأُمَّة على تحريمه واشتهر ذلك بين المسلمين شهرة تغني عن الاستدلال عليه وصار تحريمه معلوماً من الدين بالضرورة، فمن أنكره فهو كافر يستتاب فإن تاب وإلا قتل كفرا، إلا إذا كان جاهلاً يتوقع من مثله جهله فيعذر ويُعلَّم كحديث عهدٍ بكفر، وما وقع بين الفقهاء من اختلاف فيه فإنما هو في التفاصيل وتطبيق النصوص على الوقائع والجزئيات.

وصرحت السُّنة بستة أنواع يجري فيها الربا وهي المذكورة في رواية أحمد ومسلم السابقة فلذا لم يختلف فيها الفقهاء، وإنما اختلفوا في قياس غيرها عليها بناء على الاختلاف في تعليل حكمها فمن قال أنه غير معلل قصر تحريم الربا على الأصناف الستة السابقة، وأقدم من يُروى عنه ذلك قتادة وهو مذهب أهل الظاهر، واختاره ابن عقيل في آخر مصنفاته مع قوله بالقياس، قال: لأن علل القياسيين في مسألة الربا علل ضعيفة، وإذا لم تظهر فيه علة امتنع القياس. والذين قالوا أنه معلل اختلفوا في علته فقال عمار وأبو حنيفة: هي الكيل والوزن وهو ظاهر مذهب أحمد وخصه الشافعي بالطعام وإن لم يكن مكيلاً ولا موزوناً وهو رواية عن أحمد. وخصه سعيد بن المسيب بالطعام إذا كان مكيلاً أو

---

(١) رواه البخاري (الفتح ٢١٧٧/٤) ومسلم (١٥٨٤).

(٢) مسلم (١٥٨٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

موزوناً وهو قول للشافعي ورواية عن أحمد. وخصَّه مالك بالقوت وما يصلحه، ورجحه ابن القيِّم بما ذكر في كتابه إعلام الموقعين. وهذا الخلاف بينهم في علة الربا في البر والشعير والتمر والملح.

والذي يعنينا هنا بيان علة الربا في الذهب والفضة عند الجمهور القائلين بالتعليل مع الترجيح وقد ذكر ابن القيم في إعلام الموقعين ما فيها من خلاف بين الفقهاء فقال: وأما الدراهم والدنانير فقالت طائفة: العلة فيهما كونهما موزونين، وهذا مذهب أحمد في إحدى الروايتين عنه ومذهب أبي حنيفة.

وقالت طائفة: العلة فيهما الثمنية، وهذا قول مالك والشافعي وأحمد في الرواية الأخرى، وهذا هو الصحيح بل الصواب، فانهم أجمعوا على جواز إسلامهما في الموزونات من النحاس والحديد ونحوهما، فلو كان النحاس والحديد ونحوهما ربويين لم يجز بيعهما إلى أجل بدراهم نقدا، فإن ما يجري فيه الربا إذا اختلف جنسه جاز التفاضل فيه دون النَّسَاء، والعلة إذا انتقضت من غير فرق مؤثر دلَّ على بطلانها. وأيضا فالتعليل بالوزن ليس فيه مناسبة، فهو طرْد مَحْض، بخلاف التعليل بالثمنية فإن الدراهم والدنانير أثمان المبيعات، والثمن هو المعيار الذي به يعرف تقويم الأموال، فيجب أن يكون محدوداً مضبوطاً لا يرتفع ولا ينخفض، إذ لو كان الثمن يرتفع وينخفض كالسِّلع لم يكن لنا ثَمَنٌ نعتبر به المبيعات، بل الجميع سِلَع، وحاجة الناس إلى ثمن يعتبرون به المبيعات حاجة ضرورية عامة، وذلك لا يمكن إلا بسعر تُعرف به القيمة، وذلك لا يكون إلا بثَمَن تُقَوَّم به الأشياء ويستمر على حالة واحدة ولا يقوم هو بغيره، إذ يصير سلعة يرتفع وينخفض، فتفسد معاملات الناس ويقع الخُلْف ويشتد الضرر، كما رأيت من فساد معاملاتهم والضرر اللاحق

بهم حين اتخذت الفلوس سلعة تعد للربح، فعم الضرر وحصل الظلم، ولو جُعِلَتْ ثمناً واحدا لايزداد ولا ينقص بل تُقوَّم بها الأشياء ولا تقوم هي بغيرها لَصَلُح أمر الناس، فلو أبيح ربا الفضل في الدراهم والدنانير - مِثل أن يعطى صحاحاً ويأخذ مكسَّرة، أو خفافاً ويأخذ ثقالاً أكثر منها- لصارت مُتَّجَرا، أو جرَّ ذلك إلى ربا النَّساء فيها ولا بد، فالأثمان لاتقصد لأعيانها بل يقصد التوصل بها إلى السِّلع، فإذا صارت في أنفسها سِلَعاً تقصد لأعيانها فسد أمر الناس، وهذا معنى معقول يختص بالنقود لا يتعدى إلى سائر الموزونات.أهـ[1].

ثم ذكر ابن القيم أن ربا الفضل حُرِّم تحريم الذرائع وأن ربا النَّساء حُرِّم تحريم المقاصد فكان تحريم ربا الفضل وإن كان من الكبائر أخف من تحريم ربا النَّساء، ولذلك استثنى منه بيع المصوغ والحلية المباحين بجنسهما من الدراهم والدنانير نقداً مع التفاضل لشدة الحاجة إلى استعمالهما ولا يمكن تكليف كل إنسان أن يصنع لنفسه ولا يعقل إهدار الصنعة ببيعها بجنسها من الدراهم والدنانير وزناً بوزن ولا يعقل إبطال هذه الصناعة، ومن الحرج تكليفهما المعاوضة مع اختلاف الجنس، وبيَّن أن الضرورة الداعية إلى استثنائها لا تنقص عن الضرورة الداعية إلى استثناء العرايا ونحوها مما رُخِّص فيه من فروع الفقه، وأورد اعتراضات منها إنه يلزم على ذلك جواز بيع الفرع بأصله متفاضلاً كالخبز بالبر. فالتزم جوازه، ومنها أنه يلزم جواز الزيادة في معاوضة الرديئة من الفضة بالجيدة منها لتقابل الزيادة الجودة، وأجاب عن ذلك بالفرق بأن الجودة هنا طبيعية والصناعة كسبية، فأورد عليه الدراهم والدنانير المضروبة مع

(١) انظر إعلام الموقعين لابن القيم (٢/١٣٧ ـ ١٣٨).

المكسرة، فأجاب بالفرق أيضاً فإن السَّكة لاتتقوم فيها الصناعة للمصلحة العامة المقصودة منها وهي أن تكون معياراً للناس فلا تقابل بالزيادة في العرف وإلا لفسدت المعاملة بخلاف المصوغ فإن العرف جرى بتقويم زيادة الصناعة فيه وليس في تقويمها نقض للمصلحة العامة ولا إفساد المعاملة للناس.

وقد يناقش نقد ابن القيِّم تعليل الربا في النقدين بالوزن بأنه لا إجماع على جواز إسلام الذهب أو الفضة في الحديد والنحاس والرصاص ونحوها من الموزونات، فإن من الحنابلة مَنْ منع من ذلك وجعلها ربوية بناء على أن العلة الوزن كما في إحدى الروايتين عن أحمد أما على الرواية الأخرى وهي تعليل الربا في النقدين بالثمنية فيجوز إسلامهما في الحديد ونحوه من الموزونات[1].

وقد يناقش أيضا تعليل الربا في النقدين بالثمنية بأنه غير منعكس، فإن التفاضل محرم باتفاق في المعاوضة بين أفراد الجنس الواحد من الأجناس الأربعة، البر والشعير والتمر والملح وإن كانت يداً بيد، وكذا النَّساء محرم باتفاق في المعاوضة بينها وان اختلف الجنس وليس منها ما هو ثمن عرفاً، فوُجِدَ الحكم ولم توجد علة الثمنية، ويمكن أن يجاب بأن الحكم بتحريم الربا واحد بالجنس لا بالشخص، فيصح تعليله في كل نوع بعلة، فيعلل تحريم الربا في النقدين بالثمنية، ويعلل تحريم الربا في الأربعة المذكورة بكونها قوتاً مثلاً وكل منهما علة مطردة منعكسه فيما جعلت علة فيه.

وقد يناقش التعليل بالثمنية أيضاً بأنها قاصرة غير متعدية

(١) انظر مبحث الربا في الجزء الثاني من إعلام الموقعين لابن القيِّم ـ رحمه الله.

مستنبطة، ليست منصوصاً على عليَّتها ولا مجمعاً عليها، فلا يصح التعليل بها لعدم الفائدة. ويجاب أن فائدة التعليل غير منحصرة في التعدية، فإن الحكم إذا كان معقول المعنى كان أدعى إلى الانقياد وأسرع إلى القبول، وأيضاً يمتنع بتقدير ظهور وصف آخر في محل العلة القاصرة تعدية الحكم به دون ترجيحه على القاصرة إلى فوائد أخرى للتعليل، فصح التعليل بها[1].

ومما يدل على أنه صاحب ملكة فقهية، وأنه مُطَّلع على مستجدات العصر، واقف على مشاكله ما كتبه من وجهة نظره -معقباً به على مبحث الأوراق النقدية بعد استعراض هيئة كبار العلماء له، وما تضمنه من أقوال فقهية قيلت في حقيقة الأوراق النقدية من اعتبارها أسناداً أوعروضاً أو فلوساً أو بدلاً عن ذهب أو فضة أو نقداً مستقلاً بذاته، وما يترتب على تلك الأقوال من أحكام شرعية- فقد كتب ما نصه: «فلمَّا كانت الأوراق النقدية لا قيمة لها في نفسها، ولم تكن قيمتها مستمدة من مجرد إصدار الدولة لها وحمايتها إياها، وإنما قيمتها فيما أكسبها ثقة الدول بها، وجعلها مع سن الدولة لها قوة شرائية وأثماناً للسلع ومقياساً للقيم، ومستودعاً عاماً للادخار، ولما كان الذي أكسبها ذلك وجعلها صالحة للحلول محل ما سبقها من العملات المعدنية هو ما استندت إليه من الغطاء ذهباً أو فضة أو ما يُقدَّر بهما من ممتلكات الدولة أو انتاجها أو احتياطها، أو أوراق مالية أو أوراق تجارية.. لما كان الأمر كذلك كانت الأوراق النقدية بدلاً عما حلت محله من عملات الذهب أو الفضة التي سبقتها في التعامل بها، وكانت تابعة لهما فما

---

(١) انظر المجموع للنووي، ومبحث العلة القاصرة من كتاب إحكام الأحكام للآمدي.

كان منها متفرعاً عن ذهب فله حكم الذهب، وماكان منها متفرعاً عن فضة فله حكم الفضة وعلى هذا تجب فيها الزكاة كأصلها، ويقدَّر فيها النصاب بما قُدِّر به في أصلها ويجري فيها ربا الفضل والنسيئة مع اعتبار أن ما كان منها متفرعاً عن فضة حسب الأصل جنس، وما كان متفرعاً عن ذهب في الأصل جنس، ولا يجوز بيع الورقة النقدية بما تفرعت عنه من الذهب أو الفضة مع التفاضل، ويعتبر قبض الأوراق النقدية في حكم قبض ما حلَّت محله من الذهب أو الفضة.. هذا وليس بلازم أن يكون في خزينة الدولة ذهب أو فضة بالفعل ما دامت خاماتها وسائر إمكانياتها التي تقدَّر بوحدتها السابقة من الذهب أو الفضة قائمة محققة تقوم مقامها في استمرار الثقة بالأوراق النقدية في دولة الإصدار وغيرها من الدول، وليس بلازم أيضا أن تسلم مؤسسة النقد ذهباً أو فضة لحامل الورقة النقدية مقابل ما فيها ما دامت الأوراق النقدية تؤدي وظيفتها وتقوم بما أُنشئت من أجله، فإنَّ لولي الأمر أن يتصرف في غطاء الأوراق النقدية أيّاً كان الغطاء فيما يعود على أُمَّته بالمصلحة من وجوه تنمية الثروة والترفيه عن الرعية حتى لاتبقى معطلة في خزينة الدولة أو معرضة للتبديد والتهريب في أيدي الأفراد.

وبهذا يُعرف أن عدم وجود الغطاء في خزينة الدولة بالفعل وعدم رد المقابل لحاملها لايعتبر إلغاءً للغطاء ولا إبطالاً له ما دام الغطاء الذي هو روح العملة وسر الثقة بها موجوداً قائماً ممثلاً فيما يثبت ملاءة الدولة وقوة إمكانياتها، ويكسب الثقة بها في الداخل والخارج من كل ما يُقَدَّر بوحدتها التي كانت الدولة تتعامل بها قبل إصدار الأوراق النقدية. وإنَّ وجود وحدة متفق عليها كالذهب مثلاً تقاس بها موجودات وإمكانيات الدول ليعرف بها مدى ملاءة كل دولة بالنسبة للأخرى لا

ينافي وجود غطاء لأوراق الدولة النقدية وإن تنوع، كما أنه لا ينافي وجود وحدة خاصة بكل دولة تتصل بعملتها المعدنية السابقة وقد سئل سعادة محافظ مؤسسة النقد أسئلة منها ما هو في الموضوع ومن اختصاصه كالأسئلة المتعلقة بالغطاء وبالسر في ارتفاع سعر العملة وانخفاضها فسلم وجود الغطاء وإن تنوع وأن من الدول ما لها احتياطي ومنها ما ليس لها احتياطي أو لها احتياطي ضعيف، ومنها ما ليس من اختصاصه بل من اختصاص الهيئة كالسؤال: هل الأوراق النقدية عملة قائمة بنفسها أو بدل عن غيرها، فإن الجواب عن هذا السؤال من اختصاص الهيئة بعد سؤالها عن مقدمات اقتصادية يبنى على الجواب عنها حكم الهيئة بأن الأوراق النقدية عملة قائمة بنفسها أو بدل عن غيرها حالة محلها، وهناك أسئلة أخرى لم توجه إلى سعادة محافظ المؤسسة إمَّا لضيق الوقت وقد كان من الممكن أن يستدعى في جلسة أخرى، وإمَّا لاكتفاء الأكثرية بالإجابة عن بعض الأسئلة، وبالرجوع إلى ما كتب الأعضاء من الأسئلة وجُعل عند فضيلة الأمين والمقارنة بينها وبين الأجوبة يتبين ما ذكرت من عدم توجيه كل الأسئلة لسعادة المحافظ.. والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم... في ١٣٩٣/٤/١٦هـ[1].

وفي مبحث هدْي التمتع والقران يوضح فضيلة الشيخ عبد الرزاق وجهة نظره فيما يتعلق بتحديد نهاية ذبح هدْي التمتع والقران، فيقول:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وبعد: ففي الدورة الثامنة لمجلس هيئة كبار العلماء المنعقدة بمدينة الرياض في

---

(١) انظر مجلة البحوث الإسلامية العدد (٣١) ١٤١١هـ ص(٣٨١، ٣٨٢).

النصف الأول من شهر ربيع الآخر عام ١٣٩٦هـ. بحث المجلس موضوع ذبح هدْي التمتع والقران من جميع نواحيه، واتخذ في ذلك قراراً، وأنا أوافق على جميع ما جاء فيه من الأحكام ما عدا تحديد آخر وقت الذبح بغروب شمس اليوم الثالث من أيام التشريق، فأرى أن من أخّر ذبح هدي التمتع والقران عن أيام التشريق يجزئه ولا يأثم بذلك لعموم قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾[1].

بالنسبة لزمن الذبح، لم يثبت في الكتاب ولا السُّنة مايخص هذا العموم من حيث نهاية وقت الذبح، وغاية ما يدل عليه ذبح النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في يوم العيد وأيام التشريق أن ذلك سنة لا فرض ولا شرط صحة في الذبح، وقد جاء ما يخص هذا العموم بالنسبة لتقديم ذبح هدْي - التمتع والقران وهو امتناع النبي ﷺ عن ذبح هديه بعد أن أدى العمرة حتى يبلغ محله ثم ذبح هديه يوم العيد، فدل على أنه لا يصح تقديم ذبحه عن يوم العيد، وكان هذا من البيان العملي والقولي للمجمل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾[2] وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم...

هذا، وهناك كتابات أخرى ومسائل فقهية تطرّق الشيخ إليها ورأيت أنه من الأكمل أن يطلّع القارئ عليها، إتماماً للفائدة، وتعميماً للنفع، ومن هذه المسائل: مسألة تحية المسجد والإمام يخطب يوم الجمعة، وقد ذكر الشيخ أقوال العلماء في هذه المسألة فقال:

اتفق العلماء على طلب تحية المسجد في الجملة لمن دخل المسجد،

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٦).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٩٦).

كما اتفقوا على طلب الإنصات والإصغاء للخطيب يوم الجمعة في الجملة أيضاً، واختلفوا فيما ينبغي لمن دخل والخطيب يخطب للجمعة: هل الإنصات والإصغاء فلا يصلي التحية؟ أم يصلي صلاة التحية. فذهب إلى الأوّل مِن الأئمة الأربعة مالك وأبو حنيفة وإلى الثاني منهم الشافعي وأحمد. وهاك مأخذ الفريقين ومنزع المذهبين، وبيان ما يعطيه الحِجَاجُ[1] من الحق: إحتج الأولون أولاً: بعموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[2].

قالوا: أمر الله تعالى بالإنصات والاستماع للقرآن: فالخُطبة كذلك، إذ هي قرآن، وفي أداء التحية وقتئذ تشاغل وإعراض عن امتثال الأمر، فلا يجوز.

وثانياً: بقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب فقد لغوت» -متفق عليه- قالوا: أُعتبر إرشاده لجليسه إلى الخير، وأمره بالمعروف لغواً مع قِصَر زمنه، فالتشاغل بالتحية أولى أن يكون لغواً فيمنع.

وثالثاً: بما رواه الطبراني من حديث ابن عمر مرفوعاً: «إذا دخل أحدكم والإمام على المنبر فلا صلاة ولا كلام حتى يفرغ الإمام».

والجواب عن الثلاثة جملة أنها مخصوصة بمن دخل فلا يعمّه حكمها لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما» رواه مسلم وأحمد وأبو داود، فإنه إذا تعارض الخاص والعام قضي بالخاص على العام.

---

(١) الحجاج: النقاش والحوار.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠٤).

ويخص الأول: أن إطلاق القول بأن الخطبة قرآن دعوى لا دليل عليها. نعم يجوز أن يكون فيها منهُ آية أو أكثر، ومع ذلك فالحكم للغالب.

ويخص الثاني: أن مُصلِّي الركعتين يطلق عليه مُنصِتٌ، ونظيره في ذلك: ما رواه أبوهريرة في افتتاح الصلاة أنه قال: يا رسول الله سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول فيه؟ فأطلق السكوت على القول سراً، فهنا كذلك.

ويخص الثالث: أنه حديث ضعيف، فيه أيوب بن نهيك، قال أبو زرعة وأبو حاتم إنه منكر الحديث فلا تقوم به حجة.

واستدلوا رابعاً: بما رواه أبو داود والنسائي وصحّحه ابن خزيمة من طريق عبد الله بن بسر قال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس والنبي ﷺ يخطب، فقال له: «اجلس فقد آذيت» وفي رواية «وآنيت». قالوا: أمره بالجلوس دون التحية فدل على عدم مشروعيتها حينئذ.

والجواب عنه من وجوه الأول: أنه يحتمل أن يكون هذا الرجل قد صلَّى التحية في مؤخرة المسجد على مرأى منه ﷺ، ثم تقدم ليتمكن من سماع الخطبة فتخطى الرقاب فأنكر عليه.

الثاني: يحتمل أن يكون الرجل دخل في أواخر الخطبة، وقد ضاق الوقت بحيث لا يتمكن من التحية قبل الإقامة فلا يطالب بها، ويدل على ذلك ما في بعض الروايات: «فقد آذيت وآنيت» أي أبطأت.

الثالث: أن معنى قوله ﷺ «اجلس» النهي عن تخطي الأعناق، بدليل قوله «لقد آذيت» وأما التحية فقد وكله ﷺ إلى ما علمه الرجل

قبل ذلك من ضرورة التحية، ومع هذه الاحتمالات لا يقوى الحديث المذكور على الاحتجاج به في محل النزاع.

ذلك جملة حجج المانعين. وقد بيّنا ما فيها من عيوب. واحتج الآخرون أولاً: بقوله ﷺ: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب. فليركع ركعتين وليتجوّز فيهما»[1]. وهو قاض على عموم لفظ ما ذكروه من الأدلة، ولا مطعن فيها، قال النووي: لا أظن عالماً يبلغه هذا اللفظ صحيحاً فيخالفه.

واحتجوا ثانياً :بما رواه جابر بن عبد الله قال: جاء رجل والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقال: «صلّيت يا فلان» قال: لا، فقال: «قم فاركع»، وفي رواية: «فصل ركعتين»، رواه الجماعة، وهذا الرجل هو سُلَيك الغطفاني، وأجاب المانعون بأنها واقعة حال لا عموم لها. ويدل على اختصاصها بسليك ما روى من حديث أبي سعيد أن الرجل كان في هيئة بذّه[2] فقال له: «أصلّيت؟» قال: لا، قال: «صل ركعتين»، وحض على الصدقة.

وأيضاً في هذا الحديث عند أحمد أن النبي ﷺ قال: «إن هذا الرجل دخل في هيئة بذّة وأنا أرجو أن يفطن له رجل فيُتصدّق عليه».

ورُدَّ بأن الأصل عدم الخصوصية، وما ذكروه من قصد الصدقة لا يمنع القصد إلى التحية -أيضاً- معها فيكون كل منهما جزء للأمر، ولو كان للفت النظر إلى الرجل فحسب لقال: إذا رأيتم ذا بذة فتصدقوا عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٧٥) في الجمعة باب التحية والإمام يخطب.

(٢) البذاذة: هي الرثاثة وترك الزينة.

وأجابوا عن حديث سليك -أيضاً- بأن النبي ﷺ سكت حتى فرغ سليك من صلاته، فقد جمع سليك بين التحية والإنصات، فلم يبق في حديثه حجة لمن أجاز التحية وقتئذ. وُردَّ بأن حديث سكوت النبي ﷺ حتى يفرغ سليك ضعيف، فإن الدارقطني الذي أخرجه من حديث أنس بن مالك قد ضعفه، وقال الصواب: إنه من رواية سليمان التيمي مرسلاً أو معضلاً فلا صحة فيه: على أنه لو ثبت لكان مخالفاً لقاعدتهم، فإن العمل بعد الشرع فيه لا يجوز قطعه عندهم. لاسيما إذا كان واجباً فعلى كلا الأمرين لا حجة لهم فيه، وقد تعللوا بأجوبة أخرى يأباها النظر فلا داعي إلى سردها.

وبالجملة فلكل منزع، وقد عرفت وجه الصواب في ذلك، وهو ضرورة صلاة تحية المسجد للداخل والإمام يخطب للأحاديث الصريحة الثابتة في ذلك مع ضعف جميع الأحاديث التي تمسك بها المانعون، ولا نرى ما يحملنا على ترك الصحيح الثابت. والتحول عنه إلى الضعيف الواهي .اللهم إلا العصبية الممقوتة والتقليد الأعمى(١).

هدانا الله إلى سواء السبيل.

المسألة الثانية
العيد يوم الجمعة

اختلف العلماء فيما إذا كان العيد يوم الجمعة، فقال جماعة: من صلَّى العيد مع الإمام سقطت عنه الجمعة ولا ظُهْر عليه أيضاً ذلك اليوم، واستدلوا بما رواه النسائي في سننه بسنده عن وهب بن منبه بن

(١) انظر مجلة التوحيد، السنة الثالثة والعشرون، العدد الخامس جمادى الأولى ١٤١٥هـ.

كيسان قال: «اجتمع عيدان على عهد ابن الزبير فأخَّر الخروج حتى تعالى النهار، ثم خرج فخطب فأطال الخطبة، ثم نزل فصلّى، ولم يُصلِّ للناس يومئذ الجمعة، فذكر ذلك لابن عباس رضي الله عنهما فقال: أصاب السُّنة».

وبما رواه أبو داود في سُننه بسنده عن عطاء بن أبي رباح قال: صلّى بنا ابن الزبير في يوم عيد في يوم جمعة أول النهار، ثم رحنا إلى الجمعة فلم يخرج إلينا فصلَّينا وحداناً، وكان ابن عباس بالطائف فلما قدم ذكرنا ذلك له، فقال: أصاب السُّنة.

وبما رواه أبو داود أيضاً عن عطاء قال: اجتمع يوم جمعة ويوم فطر على عهد ابن الزبير رضي الله عنهما فقال: اجتمع عيدان في يوم واحد، فجمعهما جميعاً فصلاهما ركعتين بكرة لم يزد عليهما حتى صلى العصر،أ.هـ. فترك ابن الزبير صلاة الجمعة ذلك اليوم وهو الإمام إذ ذاك، وقول ابن عباس: أصاب السُّنة، وعدم إنكار أحد من الصحابة عليه وعدم خروجه ذلك اليوم عند الزوال لصلاتها أو صلاة الظهر بالناس دليل على سقوطها وسقوط الظهر يومئذ عنه وعمن صلّى العيد معه، بل دليل على سقوطها عنهم وعن غيرهم ممن لم يصلّ معه العيد ذلك اليوم.

ثم إن هذه المسألة من مسائل العبادات، والعبادات مبنية على التوقيف في مثل ذلك، فكان عمل ابن الزبير رضي الله عنهما في حكم المرفوع.

لكن قال أبو البركات ابن تيمية في المنتقى عقب ذكر ابن الزبير: قلت: وجهة هذا أنه رأي تقدمة الجمعة قبل الزوال فقدمها واجتزأ بها عن العيد،أ.هـ.

ويقال أيضاً: إن إسقاط صلاة الجمعة والظهر عمّن صلّى العيد خارج عن الأصول التي فرضت على المكلفين خمس صلوات في كل يوم وليلة، وعن الأصول التي دلّت على إقامة كل من الصلوات في جماعة، وهؤلاء قد صلوا الجمعة أو الظهر وحداناً حينما لم يخرج لهم ابن الزبير، وكان المشروع لهم على مقتضى دليلهم ألا يصلوها أصلاً اكتفاء بصلاتهم العيد، أو أن يُصلوها جماعة بمقتضى دليل مشروعية الجماعة في الفرائض.

وقال أكثر الفقهاء: لا يُرخص لمن صلّى العيد في ترك الجمعة ذلك اليوم ولا لغيرهم بل يجب على من توفرت فيه شروط وجوبها أن يصليها، لأن أدلة وجوبها عامة ولم تفرق بين من صلى العيد ذلك اليوم ومن لم يصله، والأصل بقاء ذلك حتى يثبت من أدلة الشرع ما يدل على خلافه.

المسألة الثالثة
الوقوف بعرفة والنزول بمزدلفة

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

أفضتم من عرفات -دفعتم مسرعين في السير منها إلى المزدلفة، المشعر الحرام- المزدلفة كلها، سُمّيت بذلك لأنها داخل الحرم.

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (١٩٨، ١٩٩).

من حيث أفاض الناس: المراد إبراهيم الخليل أو إمام المسلمين أو العرب ما عدا قريشا.

ثبت أنَّ قريشاً غيَّرت العمل في مواقف الحج، فمن ذلك أنهم كانوا يقفون بالمزدلفة دون عرفات ويقولون نحن أهل الله في بلده وقطان بيته الحرام، وكان سائر العرب وجمهورهم يقفون بعرفات ثم يُفيضون منها إلى المزدلفة، فلما جاء الإسلام أمر الله جلَّ شأنه حجاج بيته الحرام أن يقفوا بعرفات ثم يدفعوا منها إلى المزدلفة ليذكروا الله فيها عند المشعر الحرام.

روى البخاري في صحيحه من طريق عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كانت قريش ومَنْ دان دِينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمّون الحمس[1] وسائر الناس يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيَّه أن يأتي عرفات، فيقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[2].

وفي ذلك إبطال لما كان من تغيير أهل الجاهلية وتبديلهم للمناسك، وقضاءٌ على تلاعبهم بها وافتياتهم على شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبيان مِن الله لعباده أنَّ العبادات توقيفية، وأنَّ الاعتماد في أصل العمل بها وفي صفتها على الوحي من الله لا على آراء الناس وما تهواه نفوسهم،قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم والحُمس هم قريش ومن ولدتهم قريش وكنانة وسمُّوا حمساً لأنهم تحمسوا في دينهم أي تشددوا.

(٢) سورة البقرة: الآية (١٩٩).

(٣) قال النووي: حديث صحيح والحديث أخرجه البغوي في شرح السنَّة(١/٢١٣) وابن أبي عاصم في السُّنة (١/١٢١) وأعله الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٦٤) بثلاث علل.

وفي هاتين الآيتين إثبات لأصل الوقوف بعرفة والنزول بالمزدلفة والكر بها، وبيان لترتيب الوقوف بهما. لكن فيهما إجمال بالنسبة لزمن كلٍ منهما وتقديره،وما يتعبد به الحجاج فيهما وبيان صفته وهذا هو الشأن في القرآن، يُنزِّل الله فيه أصول الأحكام كقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[1].

وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[2]. وقوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ..﴾[3].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[4]. وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[5].

وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بالبلاغ والبيان، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[6].

فبيَّن رسول الله ﷺ بقوله وعمله زمنهما وما يفعل فيهما من نُسك وعبادة وشرح المناسك في خُطبته في حجة الوداع، وقال لأصحابه: «خذوا عنِّي مناسككم»، وذلك أنه ﷺ مكث بمنى بعد أن صلى بها فجر اليوم التاسع حتى طلعت الشمس، وأمر بُقبةٍ من شَعَر تُضرب له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند

---

(١) سورة الحج: الآية (٢٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٥).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٥٨).

(٤) سورة البقرة: الآية (٤٣).

(٥) سورة البقرة: الآية (٢٧٥).

(٦) سورة النحل: الآية (٤٤).

المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع»[1] وذكر نصائح ووصايا كثيرة، ثم أذَّن المؤذن ثم أقام فصلَّى الظهر بالناس ركعتين ثم أقام فصلى العصر ركعتين، فقصرهما وجمع بينهما جمع تقديم، ولم يُصلِّ بينهما شيئاً، ثم ركب ﷺ حتى أتى الموقف إلى جانب الجبل المعروف اليوم بجبل الرحمة، ولم يصعد عليه وقال: «وقفت هنا وعرفة كلها موقف»، ثم استقبل القبلة وأخذ يذكر الله تلبية وتسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً، ولم يزل على ذلك حتى غربت الشمس، ولم يُصلِّ بها المغرب بل أفاض إلى المزدلفة، وأخذ بزمام راحلته، فإذا وجد متسعاً في الطريق أسرع، وإلا كَفَّها عن السرعة رحمة بالمسلمين، وكان يشير بيده اليمنى قائلاً: «أيها الناس السكينة السكينة»، ونزل بالطريق فتوضأ وضوءاً خفيفاً وقيل له: الصلاة يا رسول الله، فقال: «الصلاة أمامك»، واستمر في سيره حتى أتى المزدلفة فصلَّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامة لكلٍّ منهما وقَصر العشاء وجمع بينها وبين المغرب جمع تأخير، ولم يُصلِّ بينهما نافلة، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، وصلَّى الفجر في أول الوقت بأذان وإقامة، ثم ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة ودعا الله وكبَّره وهلَّله ووحَّده، ولم يزل واقفاً حتى أَسَفَر جِداً ثم دفع قبل أن تطلع الشمس

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢١٨) باب حجة النبي ﷺ، ومن حديث جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري رضي الله عنهما.

حتى أتى بطن مُحسِّر فأسرع حتى جاوزه ثم تابع السير حتى أتى جمرة العقبة فرماها من بطن الوادي بسبع حصيات بعد طلوع الشمس يُكبِّر مع كلِّ حصاة[1].

هذا بيان من رسول الله ﷺ قولاً وعملاً لما ينبغي أن يكون عليه الحجاج في عرفات، وفي الإفاضة منها ثم في المزدلفة، وفي الإفاضة منها إلى منى، وقد اتفق الفقهاء على أن الوقوف بعرفة ركن من أركانه ولا يصح حج من تركه عمداً أو نسياناً، واختلفوا في أقل ما يُجزئ من الوقوف بها.

فذهب الجمهور إلى أنه يجزئ الوقوف بها ساعة ما بين ليل أو نهار بعد الزوال من يوم عرفة، وذهب طائفة إلى أنه يجزئ الوقوف بها ساعة من نهار عرفة أو ليلة النحر، وهو الظاهر- لحديث عروة بن مضرس الطائي قال: قلت: يا رسول الله أتيتك من جبلي طيء، أكللت مطيتي وأتعبت نفسي، والله ما بقي من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج، فقال رسول الله ﷺ: «**من صلى الغداة ههنا، ثم أقام معنا وقد وقف قبل ذلك بعرفة ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه**».

ورأت طائفة أنه لا يجزئ، إلا وقوف جزء من ليلة النحر، واتفقوا على أن من بات بالمزدلفة ليلة النحر، وجمع فيها بين المغرب والعشاء مع الإمام ووقف بعد صلاة الصبح مع الإمام إلى الإسفار بعد الوقوف بعرفة فحجه تام، واختلفوا في المبيت والوقوف بعد الفجر بعد صلاة الصبح: هل هو من سنن الحج أو واجباته أو فرائضه؟، ومهما يكن من

(١) انظر حديث جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري رضي الله عنهما الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢١٨) باب حجة النبي ﷺ.

الخلاف بين الفقهاء فيما يتعلق بعرفة ومزدلفة فأنَّه ينبغي للحاج وقد أتعب نفسه وبذل ماله وترك وطنه وأهله وعمله للحج أن يؤدي نسكه على الصفة التي كانت من النبي ﷺ في حجِّه، تحقيقاً لمعنى الاقتداء به وعملاً بقوله: «خذوا عنِّي مناسككم». واحتياطاً لصحة هذه العبادة التي هي ركن من أركان الإسلام، فليجمع في الوقوف بعرفة بين جزء من ليلة النحر وجزء من نهار عرفة بعد الزوال، وليبت بمزدلفة وليُصلِّ بها المغرب والعشاء والصبح، إلا إذا كان من جنس الضعفة الذين رخَّص لهم الرسول ﷺ في الإفاضة منها إلى منى بعد منتصف الليل، ولا ينبغي أن يتساهل في عبادته ويتتبع الرخص فيها وخاصة نسك الحج، فإنه قد لا يتيسر له إلا مرة واحدة في العمر، ولا يليق أن يرجع بحج مشوَّهٍ قد انتقص من أطرافه بترك سُنَنِه أو واجباته، طلباً للراحة باتباع السهل من أقوال العلماء دون نظر إلى الأدلة الشرعية، بل عليه أن يحرص على الكمال ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ليكون حجُّه مبروراً، فيغفر الله له ويرجع من حجِّه كيوم ولدته أمه[1].

تضلعه في أصول الفقه:

إنَّ من المسلَّم به أنَّ عِلْم أصول الفقه من أهم العلوم الموصِّلة إلى معرفة أحكام الله تعالى في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ، فهو العلم الذي ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع فأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل، فلا هو تصرف بمحض العقول الذي لا يتلقاه الشرع بالقبول، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتسديد والتأييد.

---

(١) انظر المصورات الخطية في الفصل الثامن (رسائل ووثائق).

إنَّ المطّلع على ما كتبه الشيخ -رحمه الله- من تعليقات نفيسة وقيِّمة على كتاب «الموافقات» للشاطبي، و«المستصفى» للغزالي، و«الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي يدرك غزارة علمه ،وعمق إدراكه ونفاذ بصيرته، وصحة قريحته، يجيب على الإشكالات، وينقد الاستدلالات التي يرى أن غيرها أقوى منها بعبارة واضحة ومأخذ سليم.

إنَّ ما كتبه الشيخ في هذا العلم (علم أصول الفقه) متقن الأسلوب محكم البناء، واضح القصد، راسخ القواعد.

وهذا يدلُّ على أن «المترجم له» أصولي متبحر في هذا العلم واقف على دقائقه، مطلع على كتبه، مستحضر لما فيها، فإذا سألته عن كتاب من كتب الأصول ذكر لك خصائصه ومزاياه وطريقته والمآخذ التي تؤخذ عليه.

وبالجملة فقد كان الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- إماماً شهيراً وعلامة كبيراً ونظاراً متضلعاً في كثير من العلوم وبخاصة علمي الفقه وأصوله. مع الإحاطة بكثير من أسرارها، ومعرفة محاسنها وغوامضها وتحرير عويصها وحل مشكلاتها. وساعده في ذلك أن له باعاً في المنطق والعقليات، وسائر العلوم.

لقد تميز الشيخ -رحمه الله- بسعة علمه، ومقدرته على الفهم الدقيق، والاستنباط الواعي والترجيح السديد.

يقول أحد تلامذته: لقد عرفت في فضيلة شيخنا الدقة العلمية، والاستيعاب الواسع لجوانب المباحث المطروحة متميزاً -رحمه الله- بدقة فهمه واستيعابه للأصول والقواعد التي تصدر عنها الأحكام، وسرعة استحضاره لكلام أهل العلم.

ويقول آخر: لقد كان الشيخ -رحمه الله- يقوِّم كل بحث أو رأي على ضوء الأسس والأصول الصحيحة التي التزمها السلف الصالح والأئمة الكبار حينما واجهوا الفلسفات المادية والاختلافات في الأصول والفروع.

إن من المؤكد بعد عرض هذه الأقوال أنَّ الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- كان بمثابة مدرسة فريدة في التأصيل والتقعيد والتدقيق والتحقيق، كما كان مدرسة في الأخلاق والتربية وفقه النفس ونشر الفضائل.

وفي الصفحات التالية مقتطفات من كتاباته المتخصصة في هذا العلم الثر (علم أصول الفقه) وضَّح فيها فوائد هذا العلم وأهميته وشدة الحاجة اليه والسبب الباعث على التأليف فيه، وكل هذا قد انتظمته مقدمته الرائعة والموفقة لكتاب «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي وفي هذه المقدمة يدرك القارئ جودة التصنيف وسلامة العبارة وجزالة اللفظ وحُسن الترتيب، ويدرك أيضاً أنه يقرأ لشخصية علمية متميزة الأسلوب، متعددة المواهب، واسعة الاطلاع، كما سوف يتضح للقارئ جليّاً وهو يقرأ هذه المقتطفات وما يتلوها من تعليقات نفيسة على كتاب الآمدي، أنه يقرأ لعالم منصف وفقيه مُتقن، يعي ما يكتب، ويدرك ما يقول.

لقد أبان الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- في مقدمة كتاب «الإحكام» عن أهمية علم أصول الفقه لحملة الشريعة وروّاد المعرفة، ولمس ما في بعض كتب الأصول من مباحث جدلية، وآراء شاذة، وتخرصات أهل الكلام وسفسطتهم، ولذا فقد رَغِب في أن يُقرِّر كتاباً متميِّز الأسلوب سهل العبارة جامعاً لما تناثر من مباحث هذا العلم، ليكون مرجعاً وافياً

لطلبة المعهد العالي للقضاء، وبعد تأمل لعدد من كتب أصول الفقه ومصنفاته وقع اختيار الشيخ على كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي. وهو -كما يقول الشيخ عبد الرزاق- كتاب عالي الأسلوب واضح العبارة، بسط مؤلفه القول فيه، وأرخى لقلمه العنان في بيان معانيه.

وقد رَغِب طلبة المعهد العالي للقضاء أن يكتب لهم عميد معهدهم وشيخهم الشيخ عبد الرزاق كلمات على هذا الكتاب تبيِّن مجمله، وتوضح مشكله، وتحل عويصه، فاستجاب لطلبهم، وقد ذكر ذلك في مقدمة كتاب «الإحكام» قائلاً: هذا ولما عزم الأخ الكريم الشيخ علي بن حمد الصالحي على طبع كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» لكونه من مراجع الدراسة في المعهد العالي للقضاء ولنفاد ما طبع منه قبل ذلك، وقد سألني طلاب المعهد أن أكتب عليه كلمات فاستجبت لطلبهم، تحقيقاً لرغبتهم وأداءً لبعض الواجب عليَّ، ولم أحاول أن أقف من الكتاب موقف الشارح، فالكتاب واضح العبارة، عالي الأسلوب وهو غنيّ بوضوحه عن الشرّاح، بل من أراد ذلك منه احتقر عبارة نفسه إلى جانب عبارة الآمدي.

وبعد أن وضَّح الشيخ أهمية هذا الكتاب وما يمثله من قيمة علمية عالية، شرع في بيان أهمية علم أصول الفقه وفائدته، فقال:

أصول الفقه من العلوم التي عم نفعها، وعظمت فائدتها، فقد استطاع به المجتهدون فطرة واستعداداً، أو دراسة واكتساباً، أن يستثمروا نصوص الشريعة، وأن يستنبطوا بها الأحكام من أدلتها التفصيلية على أكمل وجه وأتقنه، وأوضح طريق وأبينه، ووقف مَنْ عُنى بدراسته من

العلماء المقلدين على مآخذ الأئمة المجتهدين ومداركهم، وعرفوا طريقهم في اجتهادهم ومذاهبهم في استنباطهم، فطبقوا قواعدهم على ما جدّ من أقضية، واستخرجوا على أصولهم أحكاماً في كثير من المسائل نسبوها إليهم تخريجاً حيث لم يثبت عنهم فيها حكم نصاً.

وقد يبلغ من يعنى بعلم الأصول ويأخذ نفسه بدراسة قواعده استدلالاً عليها وتطبيقاً لها على نهج من تقدمه من الأئمة أن يكون مجتهداً مطلقاً يعتمد في بحثه على أصول الشريعة، ويرجع إلى أدلتها ويستنبط منها الأحكام. وربما كان هذا أيسر له وأعم نفعاً، وأسلم عاقبة من اجتهاده في المسائل على مقتضى أصول إمام معين واستخراج الفروع على أصوله.

ثم يذكر الشيخ عقب ذلك أن عصر الصحابة والتابعين لم يكن بحاجة إلى تدوين أصول يُرجع إليها في استنباط الأحكام، ثم يوضح أسباب ذلك قائلاً:

وقد كانت العربية سليقة للصحابة رضي الله عنهم وبلغتهم نزل القرآن، وبها بيّنه النبي ﷺ، فكانوا يعرفون مقصد الكلام ومغزاه من لحن القول وفحواه، وقد شهدوا عهد الوحي والتنزيل، ولزموا النبي ﷺ في سفره وإقامته، وكانوا مع ذلك على جانب عظيم من الفطنة والذكاء وسلامة الذوق ونور البصيرة والحرص على التشريع علماً وعملاً، فوقفوا على أسرار الشريعة ومقاصدها، ولم يجدوا في أنفسهم حاجة إلى دراسة قواعد يستعينون بها في استثمار نصوص الشريعة ولا ضرورة تلجئُهم إلى تدوين أصول يرجع إليها في استنباط الأحكام من الأدلة.

وقد سار التابعون على مدرجتهم، وسلكوا سبيلهم فاستغنوا غناهم

لقرب العهد بالوحي، وقوة الصلة بالصحابة، وكثرة الأخذ عنهم والمخالطة لهم وغلبة السلامة على اللغة العربية من الكلمات الدخيلة.

ثم يتحدث الشيخ بعد ذلك عن عناية العلماء بتدوين أصول الفقه وأول مَنْ عُني بالتدوين فيقول:

وكان أول من عُني بتدوين أصول الفقه فيما اشتهر بين العلماء أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي فأملى كتابه المعروف بـ«الرسالة»، وكتبه عنه الربيع بن سليمان المرادي. وقد جمع في إملاء الرسالة بين أمرين اجمالاً:

الأول: تحرير القواعد الأصولية، وإقامة الإدلة عليها من الكتاب والسُّنة، وإيضاح منهجه في الاستدلال وتأييده بالشواهد من اللغة العربية.

الثاني: الإكثار من الأمثلة لزيادة الإيضاح، والتطبيق لكثير من الأدلة على قضايا في أصول الشريعة وفروعها، مع نقاش للمخالفين تزيده جزالة العبارة قوة وتكسبه جمالاً، فكان كتابه قاعدة محكمة بنى عليها من جاء بعده، ومنهجه فيه طريقاً واضحاً سلكه من ألَّف في هذا العلم وتوسع فيه.

وقد تبعه في الأمرين أبو محمد علي بن حزم في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» بل كان أكثر منه سرداً للأدلة النقلية مع نقدها، وإيراداً للفروع الفقهية مع ذكر مذاهب العلماء فيها، وما احتجوا به عليها، ثم يوسع ذلك نقداً ونقاشاً ويرجح ما يراه صواباً. غير أن أبا محمد وإن كان غير مدافع في سعة علمه واطلاعه على النصوص، وتمييز صحيحها من سقيمها، والمعرفة بمذاهب العلماء وأدلتها، وإيراد ذلك في أسلوب رائع، وعبارات سهلة واعية، لم يبلغ مبلغ الشافعي، فقد كان الشافعي

أخبر منه بالنقل، وأعرف بطرقه، وأقدر على نقده، وأعدل في حكمه، وأدرى بمعاني النصوص ومغزاها، وأرعى لمقاصد الشريعة وأسرارها، وبناء الأحكام عليها، مع جزالة في العبارة تذكر بالعربية في عهدها الأول، ومع حسن أدب في النقد، وعفة لسان في نقاش الخصوم والرد على المخالفين.

ولو سلك المؤلفون في الأصول بعد الشافعي طريقته في الأمرين تقعيداً واستدلالاً وتطبيقاً وإيضاحاً بكثرة الأمثلة وتركوا الخيال وكثرة الجدل والفروض وطرحوا العصبية في النقاش والحجاج، ولم يزيدوا إلا ما تقتضي طبيعة النماء في العلوم إضافته من مسائل وتفاصيل لما أُصِّل في الأبواب، وإلا ما تدعوا إليه الحاجة من التطبيق والتمثيل من واقع الحياة للإيضاح، كما فعل ابن حزم لسهل هذا العلم على طالبيه ولانتهى بمن اشتغل به إلى صفوف المجتهدين من قريب.

ثم يواصل الشيخ حديثه عن مناهج العلماء في تدوين أصول الفقه بعد أن وضَّح منهج المتقدمين من السلف في تدوينه، ومن هذه المناهج التي تحدث عنها الشيخ في هذا الخصوص، منهج المتكلمين والأحناف، ومن جاء بعدهم، ثم وضح أوجه التباين بين طريقة المتكلمين وطريقة الأحناف في التدوين. ثم بيَّن الشيخ المنهج الأمثل في التدوين قائلاً:

ولو سلك هؤلاء طريق الاستقراء، فأكثروا المسائل الفقهية من أبوب شتى على أن يجمعها وحدة أصولية، كما فعل ذلك الشاطبي أحياناً في كتاب الموافقات، وقصدوا بذلك الشرح والإيضاح، والإرشاد إلى ما بينها من معنى جامع يقتضي اشتراكها في الحكم دون تقيد بمذهب معين ليخلصوا إلى القاعدة الأصولية، وأتبعوا ذلك ما يؤيد الاستقراء من أدلة

العقل والنقل لكان طريقاً طبيعياً تألفه الفطر السليمة وتعتمده عقول الباحثين المنصفين ولأكسبوا من قرأ في كتبهم استقلالاً في الحكم وفتحوا أمامهم باب البحث والتنقيب، ويسَّروا لهم تطبيق القواعد الأصولية على ما جدَّ ويجد من القضايا في مختلف العصور.

وخير لمن يريد فهم علم الأصول على وجهه ويرسخ فيه، أن يرجع في قراءته إلى كتب الأوائل، فإنها أقعد، وعبارتها أدق وأوضح، وتحريرهم لمحل النزاع وحكايتهم للخلاف أوفق، لأنهم بذلك أعرف، ونقاشهم للأدلة جار على أصول النقد وقواعد الجدل والمناظرة عند العلماء.

ويختتم الشيخ عبد الرزاق مقدمته الوافية لكتاب «الإحكام» بترجمة لمؤلفه سيف الدين الآمدي، ومما يدل على إنصاف الشيخ وتجرده ونزاهة قلمه عند الحكم على الرجال، أنه عندما أراد أن يترجم للآمدي نقل ترجمته من عدة كتب بعضها تحمل على الآمدي وتنال منه وتتهمه في دينه، ومن هذه الكتب «ميزان الاعتدال» للذهبي، وبعضها الآخر تدافع وتنافح عن الآمدي وتُبرِّئه مما رُمي به، وتُنصفه من خُصومه، ومن هذه الكتب «وفيات الأعيان» لابن خلكان، و«البداية والنهاية» لابن كثير الذي ذكر أن الآمدي كان كثير البكاء، رقيق القلب، وأن غالب ما رُمي به لا دليل عليه[1].

ثم ينُصف الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- الآمدي من خصومه قائلاً: إن الآمدي درس الفلسفة بأقسامها المختلفة وتوغّل فيها وتشبعت بها روحه حتى ظهر أثر ذلك في تأليفه. ومن قرأ كتبه وخاصة ما ألَّفه في علم الكلام وأصول الفقه يتبين له ما ذكرت، كما يتبين له منها أنه

---

(١) انظر البداية والنهاية (١٥١/٣).

كان قوي العارضة كثير الجدل واسع الخيال كثير التشقيقات في تفصيل المسائل، والترديد والسبر والتقسيم في الأدلة إلى درجة قد تنتهي بالقارئ أحياناً إلى الحيرة.

فمن كره من الولاة والعلماء منطق اليونان والخوض في سائر علوم الفلسفة وخاصة مايتعلق منها بالآلهيات، وكره كثرة الجدل والاسترسال في الخيال والإكثار من تأويل النصوص، وذكْر الاحتمالات خشية ما تفضي إليه من الحيرة والمتاهات مع قلة الجدوى منها تارة، وعدم الفائدة أحياناً كالأشرف والذهبي كره الآمدي ديناً. وأنكر عليه ما رآه منكراً، وقد يجد في كتبه ومسلكه في تأليفها ما يؤيد رأيه فيه ويدعو إلى النيل منه.

ومن لم يكره ذلك ولكنه ضاق ذرعاً بالآمدي لعجزه عن أن يصل إلى ما وصل إليه من التبحر في العلوم، وقوة عارضته وحضور بديهته في الجدل والمناظرة، وحسن أسلوبه، وبارع بيانه، في التدريس وصناعة التأليف حسده، حيث لم يؤت مثل ما أوتي في نظره. كما ذكره ابن خلكان عن بعض العلماء في سبب خروجه من مصر مستخفيا.

ومن لم ير بأساً بدراسة المنطق وسائر علوم الفلسفة وأَلِفَ التأويل للنصوص وكثرة الفروض والاحتمالات دراسة ومناظرة وتأليفاً رفع من شأن الآمدي وعُني بالذب عنه وانهال بالملامة على من حطَّ من قدره، أو اتهمه في دينه، أو طعن في تأليفه كابن السبكي حيث عاب الذهبي في انتقاصه للآمدي.

ثم يختم الشيخ ترجمته للآمدي بكلمات تكتب بماء الذهب لنفاستها، بل هي في الحقيقة تعتبر منهجاً تربوياً لقاصد الحق، وصادق الهدف، وفي هذه الخاتمة يقول الشيخ:

وقصارى القول أن العلماء لهم منازع شتى ومشارب متباينة، فمن اتفقت نزعاتهم تحابوا وتناصروا وأثنى بعضهم على بعض خيرا، ومن اختلفت أفكارهم ووجهات نظرهم، تناحروا وتراموا بالنبال، إلاَّ من رحم الله.

وأسعدهم بالحق من كانت نزعته إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ووسعه ما وسع السلف مع رعاية ما ثبت من مقاصد الشريعة باستقراء نصوصها، فكلما كان العالم أرعى لذلك وألزم له كان أقوم طريقاً وأهدى سبيلا، والمعصوم من عصمه الله، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وكلُّ بني آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوابون. وما الآمدي إلاَّ عالم من علماء البشر يُخطئ ويصيب، فلننتفع بالصواب من قوله، ولنرد عليه خطأه، ولنستغفر الله له، وليكن شأننا معه كشأننا مع غيره من علماء المسلمين، وليكن شعارنا مع الجميع:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر: الآية (١٠).

نماذج من تعليقات الشيخ عبد الرزاق على كتاب «الإحكام» للآمدي:

لقد علّق الشيخ على كتاب الآمدي تعليقات نفيسة، وهي وإن كانت قليلة المبنى إلاَّ أنها قوية المعنى، وهي تدل بلا شك على سعة علم الشيخ وتبحره في علم أصول الفقه وغيره من العلوم، كما أن هذه التعليقات تحمل ضمناً نقداً قوياً لأبي الحسن الآمدي، وقد يكون النقد لاذعاً أحياناً إلاَّ إنه لا يخرج به عن الإنصاف، ولا يتجاوز به حد الأدب في المناقشة.

ومن هذه التعليقات، تعليقه على قول الآمدي: «وكهف الراغبين» واصفاً بذلك الله تعالى، فعلّق الشيخ على هذه العبارة قائلاً:

لو قال: غوث اللاجئين لكان أرعى للأدب مع الله، وأبعد عن وحشة العبارة فيما يُنسب إليه سبحانه(1).

قلت: وهذا يدل على عناية الشيخ بالألفاظ، وعلى أنه صاحب منهج سلفي، يتجلى هذا المنهج الحق في كثير من تعليقات الشيخ وتعقباته للآمدي. ومن هذا تعليقه على قول الآمدي: «وهو -أي علم الله- ينقسم إلى قديم لا أول لوجوده» فعلّق الشيخ على مقولة

---

(1) انظر كتاب الإحكام في أصول الأحكام (١/٥).

الآمدي قائلاً: وصف علم الله أو غيره من صفاته بالقدم، لم يرد في نصوص الشرع وهو يوهم نقصاً[1]، وفي موضع آخر يُعلِّق على قول الآمدي «لاستحالة خلق القديم الواجب لذاته» فيعلق الشيخ قائلاً: أسماء الله وصفاته توقيفية، ولم يرد في كتابه سبحانه ولا في سنة رسوله ﷺ تسميته بالقديم، ولا إضافة القِدم إليه، أو إلى صفة من صفاته سبحانه، فيجب ألاَّ يُسمَّى سبحانه بذلك، وألاَّ يضاف إليه، وخاصة أن القِدم يُطلق على ما يُذَم كالبِلي وطول الزمن وامتداده في الماضي، وإن كان لمن اتصف به ابتداء في الوجود[2].

وفي تعليق آخر يدمغ به الشيخ منهج الاستدلال العقلي للمتكلمين، ويوضح فيه خطأ نسبة الجهة إلى الله نفياً أو إثباتاً، حيث ذكر الآمدي «أن العقل يثبت رؤية الله تعالى لا في جهة». فعلق الشيخ على قوله «لا في جهة» قائلاً:

لم يرد في النصوص نسبة الجهة إلى الله نفياً ولا إثباتاً، ثم هي كلمة مجملة تحتمل حقاً وباطلاً، فإن إثباتها لله يُحتمل أن يراد به أنه تعالى فوق عباده مستو على عرشه، وهذا حق. ويُحتمل أن يراد به أنه يحيط به شيء من خَلْقه، وهذا باطل، ونفيها عن الله يحتمل نفي علوه على خلقه واستوائه على عرشه، وهذا باطل. ويحتمل تنزيهه عن أن يحيط به شيء من خلقه، وهذا حق.

وإذن، لا يصح نسبة الجهة إلى الله نفياً ولا إثباتاً لعدم ورودها ولاحتمالها الحق والباطل.

---

(١) انظر الإحكام في أصول الأحكام (١/١٢).

(٢) انظر الإحكام في أصول الأحكام (٢/٣١٤).

ثم مقابلة العقلي بالشرعي تشعر بأن رؤية الله وتنزيهه عن الشريك ونحوهما إنما ثبت بالدليل العقلي لا بدليل الشرع، وهذه طريقة كثير من المتكلمين، فإنهم يرون أن أدلة النصوص خطابية لا برهانية لا تكفي لإثبات القضايا العقلية والمسائل الأصولية، اللهم إلا عن طريق الخبر كتاباً وسُنَّة بعد الاستقراء وبعد ثبوت أصل الشرع بالعقل، وهذا غير صحيح، فإن نصوص الشرع كما جاءت بالخبر الصادق في القضايا العقلية وغيرها، جاءت بتقرير الحق في ذلك بأوضح حجة وأقوى برهان، لكنها لم تجيء على أسلوب الصناعة المنطقية المتكلفة بل على أسلوب من نزل القرآن بلغتهم بأفصح عبارة وأعلى بيان وأقرب طريق إلى الفهم وأيسره لأخذ الأحكام.

ومن تتبع أدلة القرآن في إثبات التوحيد والرسالة والبعث وغير ذلك من أصول التشريع واستقرأ السُّنة في ذلك تبين له خطأ أولئك الذين وصموا ربهم وكتابه ونبيّه وسنته بما لا يصدر إلا من عدو للمسلمين يريد الكيد لهم في أصول دينهم ومصادر تشريعهم ليردهم بذلك إلى ما يزعمه أصولاً عقلية وغالبها شكوك ومحارات وإن كان فيها شيء من الأدلة الحقة فقد جاء به الشرع، فاللهم اغننا بكتابك وسُنَّة نبيِّك عن مراد الوهم ومزالق الضلال[1].

وفي تعليق آخر على ما ذكره الآمدي من أن أعلام شعيب وغيره من الأنبياء إنما لم يُنقل لأنهم لم يدَّعوا الرسالة حتى يستدلوا عليها بالمعجزات، فتعقبه الشيخ قائلاً: انظر هذه الدعوى مع قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ عطفاً على معمولي الإرسال في قوله في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، وعطفاً على معمولي

(١) انظر كتاب الإحكام في أصول الأحكام (١/٢٨٣، ٢٨٤).

الإرسال أيضاً في قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ وانظرها أيضاً مع قصة شعيب في سورة الشعراء وفيها ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فإن في ذلك الكفاية في إبطال هذه الدعوى، ولو أجاب بأنها لم تُنقل اكتفاءً بشهادة النبي الصادق، والقرآن المعجزة برسالته لكان أبعد له عن المزالق[1].

ويُعلِّق الشيخ أيضاً على قول الآمدي: وأما نقل باقي معجزات الرسول ﷺ غير القرآن فإنما تولاه الآحاد، لأنه لم يوجد شيء من ذلك بمشهد من الخَلْق العظيم، بل إنما جرى ما جرى منها بحضور طائفة يسيرة، ولاسيّما انشقاق القمر، فإنه كان من الآيات الليلية، وقعت والناس بين نائم وغافل في لمح البصر. فعلّق الشيخ على ذلك قائلاً: ليس ذلك بصحيح، فإن حنين الجذع كان بحضرة جمع عظيم في المسجد، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، كان بحضرة الجيش، وقد انتفعوا بالماء شرباً وطهارة وتزودوا منه، وزالت به شدتهم، ومع ذلك نُقل آحاداً، ومتى سَلِم أن القمر انشق وأنه آية قصد بها إقامة الحجة أو تقويتها استحال في حكمه الله أن يفعل ذلك والناس بين نائم وغافل مدة لمح البصر دون دعوة لرؤيته ولا تنبيه لمشاهدته، فلا بد أن يكون شاهده كثير،ويؤيد ذلك أنه نُقل نقلاً مستفيضاً بل متواتر المعنى وإن لم يتواتر لفظاً ومع ذلك قد يُقال إن كثيراً من العلماء استغنى بذكره في القرآن عن نقله[2].

وفي موضع آخر من مسألة جواز التعبد بخبر الواحد عقلاً ووجوب العمل به يقول الآمدي: ولقائل أن يقول: وإن سلمنا تنفيذ

---

(١) انظر كتاب الإحكام في أصول الأحكام (٢/٤٣).

(٢) المصدر السابق.

الآحاد بطريق الرسالة، والقضاء وأخذ الزكوات، والفتوى وتعليم الأحكام، فلا نسلم وقوع تنفيذ الآحاد بالأخبار التي هي مدارك الأحكام الشرعية ليجتهدوا فيها وذلك محل نزاع. فعلّق الشيخ على ذلك قائلاً: يكفي في رد هذا الاعتراض أنه دعوة يكذبها الواقع، فقد أرسل ﷺ الآحاد من أصحابه لإبلاغ الأخبار بل لتحفيظ القرآن، ومن استقرأ بعث الولاة والدعاة كفاه دليلاً على بطلان تلك الدعوى[1].

وفي مسألة أخرى يقول الآمدي: إذا ورد خطاب خاص بالنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ لا يعم الأمة ذلك الخطاب عند أصحابنا خلافاً لأبي حنفية وأحمد بن حنبل وأصحابهما في قولهم إنه يكون خطاباً للأمة إلا ما دلّ الدليل فيه على الفرق، ودليلنا في ذلك أن الخطاب الوارد نحو الواحد موضوع في أصل اللغة لذلك الواحد، فلا يكون متناولاً لغيره بوضعه.

وقد علق الشيخ عبد الرزاق على هذا الكلام قائلاً: قد يُقال أن الخطاب، وإن لم يتناول بوصفه في أصل اللغة غير المخاطب، إلا أنه قد يتناوله عرفاً، أو لقرائن أخرى، ككونه ﷺ رسولاً، فإن ذلك يقتضي أنه ليس مقصوداً بالخطاب لذاته، بل ليعمل وليبلغ الأمة ما شرع الله عن طريقه، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ ونحوه من النصوص والإجماع. وإذاً فالأصل العموم إلا أن يدل دليل على الخصوص، وذلك فيما يختلف فيه حال أمته وبه يندفع ما ذكر بعد من الاستدلال باختلاف الأحكام لتفاوت أحوال الناس[2].

---

(١) انظر كتاب الإحكام (٦٣/٢).

(٢) انظر كتاب الإحكام (٢٦٠/٢).

المبحث السادس

تدريسه وقدرته الهائلة على إيصال المعلومات

إنَّ من المقطوع به أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- كان يتمتع بمزايا فريدة لا تكاد تتوافر إلا في القليل من الرجال الذين وهبهم الله ذكاءً وفطنة وعلماً وإخلاصاً.

كان الشيخ -رحمه الله- مضرب الأمثال في تدريسه ، وفي قدرته الهائلة على إيصال المعلومات.

لقد أُوتي عقلاً كبيراً، وقدرة فائقة على الإقناع كان عالماً مشرق العبارة حسن الآداء يشد انتباه من يستمع إليه.

ويشهد لذلك أحد كبار تلامذته ومعاصريه فيقول:

إنني منذ طفولتي وإلى هذه اللحظة لم ألق عالماً مثله في سعة علمه وإطلاعه ودقة استحضاره وحفظه، وسلامة منهجه واستقامة حياته وجولان ذهنه، وقدرته على إعطاء الحكم الدقيق في المسألة المطروحة ومعاصرته لأحداث زمانه.

كان مفسراً عظيماً، وإن أنسى لا أنس دروسه الرائعة في تفسير القرآن التي كان يلقيها في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في (دُخْنه) في الرياض لقد كان يغوص في المعاني الدقيقة في الآية، ويذكر ارتباطها بما قبلها وما بعدها، ويصل بين تلك المعاني وبين حياة الناس،

ويشير إلى أسرار البلاغة ونواحي الإعجاز فيها[1].

ويقول آخر: لقد تميز الشيخ في دروسه بتأصيل المسائل العلمية وتحليل فروعها، وتحرير مواطن الخلاف فيها. [2]

ويقول ثالث: كان رحمه الله ذا باع طويل في علوم الشريعة، وله القدح المعلّى في التفسير وعلوم القرآن، وقلّ أن يوجد له نظير في التوحيد، وعلوم العقائد والملل والنحل[3].

ويؤكد هذا كله أحد تلامذته بقوله: لقد درّسنا الشيخ عبد الرزاق في معهد الرياض العلمي، وفي كلية الشريعة وفي المعهد العالي للقضاء، في التفسير والتوحيد، وفي الفقه، وفي البلاغة وفي النحو والأصول، وما درّس مادة إلا أبدع فيها. وكان إذا درّس مادة أتمها[4].

لقد كان تدريسه يمتاز بوضوح الكلام وقلته، وتكييف المادة بحيث تصل إلى الأذهان من أول وهلة.

ويؤيد هذا ويقويه ما ذكره أحد أبرز تلامذته قائلاً:

لقد تشرفت بتلقي العلم عن سماحته في جميع المراحل الدراسية، في المرحلة الثانوية، وفي المعهد العلمي، وفي المرحلة الجامعية في جامعة

---

(١) انظر كلمة الدكتور محمد بن لطفي الصباغ (الشيخ عبد الرزاق من بقية السلف) في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).
(٢) انظر كلمة فضيلة الشيخ مناع بن خليل القطان في الفصل السابع.
(٣) انظر كلمة فضيلة الدكتور صالح بن سعود آل علي والتي عنوانها (العفيفي المفتي والعالم والمربي) الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).
(٤) انظر ما كتبه فضيلة الدكتور صالح بن عبد الرحمن الأطرم في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

الإمام محمد بن سعود -رحمه الله- عندما كانت تعرف بالمعاهد العلمية والكليات، وكذا في الدراسة العليا في المعهد العالي للقضاء في الرياض.

فكان -رحمه الله- في المعهد العلمي شيخاً جليلاً يعطي دروسه لطلاب علم في مستوى الابتدائي، يحاول أن ينقل العلم إلى نفوسهم وقلوبهم بما يستطيعون فهمه وإدراكه ،وقد أصاب، فقد كانت المعلومات في المواد التي ندرسها عليه جزلة ومركزة ومفيدة، وقد تلقيناها من سماحته بطريقة منطقية رسخت في نفوسنا وعقولنا، وكان -رحمه الله- في الكليات شيخاً ذا مقام متميز على زملائه في التدريس، وقد رأيناه عالماً كبيراً خلاف ما رأيناه في المعهد يعطي دروسه لطلاب علم في مستوى متمكن من الفهم والإدراك.

وفي المعهد العالي للقضاء رأينا شيخنا الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- عالماً متميزاً في علمه في الأصول والتفسير والحديث لا يجاريه من زملائه أحد، لا سيما في القدرة العجيبة على جذب أنظار طلابه إليه بما يستنبطه من المسائل العلمية في الاعتقاد والفقه، وبما يعطيه من تحليلات علمية في مسائل الخلاف والنظر والاعتبار، وكنا معشر الطلاب نتابع التساؤل والاستغراب من قدرة شيخنا -رحمه الله- على التمثل طبقاً لمستويات طلابه الفكرية، ومستويات قدراتهم على التحمل والاستيعاب وهذه موهبة ومكرمة من الله تعالى(١).

قلت: وقد ذكر لي جم غفير ممن تتلمذوا للشيخ وأخذوا عنه(٢) أنه كان جاداً في أدائه، فلا يترك فرصة للعب، وإلى جانب حديثه كان

---

(١) انظر كلمة فضيلة الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٢) ومن هؤلاء فضيلة الشيخ محمد بن حسن الدريعي ـ حفظه الله.

صاحب ملحة مؤدبة، وكان ينظر إلى طلابه بمنظار العدل، فكان يتعاهد الطالب الخامل والمجد على السواء.

لقد أُعطي الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- قدرة فائقة على التعبير، وقوة في العقل، ولم يكن يمسك كتاباً في يده، وكان حفظه من صدره وكان كثيراً ما يُعلّق على الكتب التي في أيدي طلبته ،وكان إذا تكلم عقل عنه، وكان لا يتردد في كلامه وكان يبدع في شرح العبارات العويصة والمعاني الغامضة، ويضع لدرسه بداية ووسطاً ونهاية، وكان يلتزم بالموضوع محل البحث ولا يخرج عنه، فإذا انتهى من شرحه وجّه الأسئلة إلى طلابه فيما شرح لهم وكان يلزم العربية في جميع دروسه ومجالسه كتابةً ومحادثة -رحمه الله.

المبحث السابع

علو همته وغزارة مادته العلمية واحترامه لطلابه

قال الماوردي -رحمه الله- بعد استشهاده على علو الهمَّة بقول الشاعر:

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

قال: والداعي إلى استسهال المصاعب وتحمل المشاق أمور منها علو الهمة وشرف النفس أما علو الهمة، فلأنه باعث على التقدم، وداع إلى التخصيص، أنفةً من خمول الضعة واستنكاراً لمهانة النقص(١).

وعلو الهمة: هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور(٢).

إن معالي الأمور وعرة المسالك، محفوفة بالمكاره، والعلم أرفع ما تطمح إليه الهمم، وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم فلا يخلص إليه الطالب دون أن يقاسي شدائد ويحتمل متاعب، ولا يستهين بالشدائد إلا كبير الهمة ماضي العزيمة.

إنَّ عظيم الهمَّة يستخف بالمرتبة السفلى أو المرتبة المتوسطة من معالي الأمور، ولا تهدأ نفسه إلا حين يضع نفسه في أسمى منزلة وأقصى غاية ويعبر عن هذا المعنى النابغة الجعدي بقوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

---

(١) انظر أدب الدنيا والدين للماوردي ص(٣٠٦، ٣٠٧).

(٢) انظر رسائل الإصلاح لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، ص٥٧.

لقد كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- ماضي العزم عالي الهمة له نفس تواقة ما بلغت شيئا إلا وتاقت إلى ما هو أعلى منه، إن شغفه بمعالي الأمور وذُرا الفضائل دفعه منذ صباه إلى طلب العلم والنصب في ذلك، وكأن لسان حاله يقول:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليلاً من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثّل وقد ... يُدرك المجد المؤثل أمثالي

لقد كان (للمترجم له) القدح المعلَّى في كثير من العلوم والفنون، ولقد اتفقت كلمة العلماء على إمامته وفضله وتضلعه وتقدمه في كثير من المعارف حتى وصفه بعض العلماء بأنه دائرة معارف متحركة.

كان إذا تكلم في فن من فنون العلم ظن السامع أنه لا يحسن غيره، وأنه متخصص فيه وحده، وقد قصده الطلاب من كل حدب وصوب لينتفعوا من علمه وليصيبوا عنده ما لم يصيبوه عند غيره.

لقد كان الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- آية في تقديره لطلابه واحترامه لهم، اختلف يوماً مع أحد طلابه بالمعهد العالي للقضاء وكان الشيخ مديراً لهذا المعهد ومشرفاً على بحث الطالب فقال له الطالب: إذا كنت ستتمسك برأيك في هذه المسألة عند مناقشة رسالتي وتعتبر رأيي خطأً تؤاخذني عليه فسآخذ برأيك بصفة مؤقتة حتى ينتهي أمر مناقشة هذه الرسالة، ثم أعود إلى رأيي المخالف لرأيك، فما كان من الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- إلا أن قال له: يا عبد الله أنا أحترم الرأي العلمي وإن كنت لا أراه، ما دام مبنياً على اجتهاد، وإني لا أعتقد العصمة في الإصابة لنفسي ولا الخطأ لمخالفي وعليك أن تجتهد في الاستزادة من تبرير رأيك المخالف، وسأعتبر تمسكك برأيك منقبة علمية أكافؤك عليها.

لقد كان الشيخ -رحمه الله- لين الجانب طلق الوجه، حسن الملاحظة، فهو أمام الطلاب والزوار يُظهر الفرح والسرور والانبساط في الكلام والإجابة على الأسئلة، بدون غضب أو ملل، أو تبرم أو ردٍ شديد للسائل.

فالطالب في مجلسه يلقى منه كلَّ التقدير والمؤانسة والتبسم، بحيث لا يمل جليسه منه كما أنه يكرم من زاره ولا يتكلف في كرمه.

يقول أحد تلامذته[1]: كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي يتميز بطيب المعشر والزهد في الدنيا، وكان يقدر من يفد إليه في منزله وعمله ابتغاء مرضاة الله سبحانه ورغبة فيما عنده.

ويذكر أحد ممن جلسوا منه مجلس العلم والتحصيل: أنه كان لا يحب أن يكون تلميذه فاقد الوزن، لذلك كان همه الأول وشغله الشاغل أن يولد في نفس الطالب ثقة تقيم صلبه، وتجلو مداركه، وتذلل له وعثاء الطريق، وكان يحاور الطالب وعلى شفتيه ابتسامة توحي له أنه حاز الإعجاب ووافق الصواب[2].

وبعد هذه النقول عن تلامذة الشيخ يتقرر عندنا أن ثمة علاقة قوية كانت تربط الشيخ بطلابه، وكل الواردين ورده من قاصدين يتتبعون خطاه، ويتحرون دروسه، ومن باحثين وعلماء يستهدونه ويلتمسون صواب رأيه فيما يعرض لهم من مشكلات. وكانوا جميعاً عنده محل التقدير والاحترام.

---

(١) هو الأستاذ عبد الله الشهراني وانظر كلمته في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٢) انظر كلمة الأستاذ بخاري عبده في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

المبحث الثامن

جهوده الدعوية ودروسه العلمية

جهوده الدعوية في مصر:

قضى الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- حياته في خدمة العلم والدين، مجاهداً في سبيل الدعوة إلى الله، وطلب العلم وتعليمه.

لقد أمضى الشطر الأول من حياته في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان داعية من أبرز دعاة جماعة أنصار السُّنة المحمدية في مصر والأسكندرية ومن المؤسسين لها.

كان داعية متميزاً في علمه ودعوته، وكان لسعة اطلاعه وقوة حجته وثباته على الحق أبلغ الأثر في نجاح دعوته.

يتحدث عنه أحد زملائه بالأزهر وأحد رفقاء دربه (يوسف الضبع) فيقول: «وفي الأسكندرية وضواحيها المترامية بسط نطاق دراسته الدينية ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[1] فكان الشيخ يُلقي فيها عظات ودروساً دينية حسبة لله وابتغاء وجهه، وكانت هذه العظات وتلك الدروس إلى جانب جدوله الدراسي في المعهد الديني بالأسكندرية، وقد تتلمذ له وآوى إلى حلقاته كثير من شيوخ الأسكندرية وشبابها،وأشهد أنه بلغ من الورع والتقوى والكرم والشجاعة وأصالة الرأي

---

(١) سورة النور، الآية (٣٦).

ورسوخ القدم ما جعله أشبه بعلماء السلف الصالح، لقد كانت دروسه اليومية في الأسكندرية وضواحيها بمثابة مدرسة كبرى يجتمع فيها الجم الغفير من الناس على اختلاف مستوياتهم للاستماع والنقاش والحوار مع عالم مُبرَّز، وفقيه ثقة، إذا تكلم أسمع، وإذا جادل أقنع، ولم تقتصر دروسه ومواعظه على مكان بعينه في الأسكندرية، بل كان يغشى معظم مساجد هذه المدينة الكبيرة وغيرها من المدن من وقت لآخر لإلقاء دروس في التوحيد والعقيدة الإسلامية التي كان حريصاً أشد الحرص على تنقيتها وتصفيتها من شوائب الشرك والبدع والمعاصي والخرافات والخزعبلات وما أكثرها في مجتمعه».

لقد عُرِف الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- من خلال دروسه بسعة علمه، وعمق فهمه، وصحة معتقده، فكان زملاؤه المدرسون يعتبرونه مرجعاً أميناً لهم.

وفي رحلته العلمية وجهوده الدعوية، كانت له عناية خاصة بتربية تلاميذه على العقيدة السلفية، ونبذ البدع والضلالات والأخذ بأيديهم إلى هدْي الكتاب والسنة وسلف هذه الأمة، فاحتضن نخبة متميزة من هؤلاء التلاميذ وتعهدها منذ الطفولة واصطحبها معه حتى نمت وشبَّت عن الطوق، ونهجت نهجه. وغدا هو وهم يجوبون القرى والنجوع ويتجولون في الضواحي والأحياء المتعددة لأداء رسالة هي من أعظم الرسالات، ألا وهي رسالة الدعوة إلى الله وهداية الناس[1].

وحيث كانت معظم المساجد لا تخلو من البدع، ويجهل عامة الناس مسائل العقيدة الصحيحة، فقد ركَّز -غفر الله له- على الجوانب

---

(١) انظر كلمة فضيلة الشيخ مناع القطان في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

العقدية والعودة إلى منابع أصولها الصافية والتمسك بالسُّنة الصحيحة وما كان عليه أمر المسلمين في القرون المشهود لهم فيها بالخير، وكان إذا تعذَّر عليه تغيير المنكر سعى في إقامة مسجد خاص يقوم عليه من هداهم الله لدعوته، ويتخذون منه منطلقاً للدعوة.

ويتحدث فضيلة الشيخ مناع بن خليل قطان منوِّهاً بجهود الشيخ الدعوية في محافظة شبين الكوم بمصر قائلاً:

١- عُيِّن شيخنا مدرساً بالمعهد الديني بشبين الكوم التابع للأزهر سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٧م.

٢- استأجر بيتاً لسكناه (وهو عزب) فأسكن معه طلاب بلدته (شنشور- منوفية).

٣- ثم تزوج وسكن في بيت مستقل، ولكنه كان يدعو طلابه بالجامعة ويرعاهم كما يرعى الأب أبناءه.

٤- قام بتدريس مادة الحديث المقررة في المرحلة الثانوية «صفوة صحيح البخاري» فكان أستاذاً متميزاً بترتيب الموضوع، وجودة العرض، وحسن التعليق، ورجاحة العقل، ويسجل النابهون من طلابه إضافاته العلمية على هامش الكتاب المقرر.

٥- يهاب الطلاب شخصيته، وينصتون لسماع درسه، ويحرصون على الاستفادة منه.

٦- اتفقت معه الجمعية الشرعية بشبين الكوم برئاسة الشيخ أحمد الزيات على أن يلقي درساً أسبوعياً منتظماً في مسجدها، فكان هذا الدرس مدرسة يجتمع فيه الجم الغفير للاستماع والنقاش والحوار.

٧- كان يغشى المساجد الأخرى من وقت لآخر لإلقاء دروس فيها.

٨- كان منهجه السلفي سمة بارزة فيه بأسلوب شائق جذاب يدعمه الدليل والحجة، ولا يمس أحداً بتجريح، مما جعل استجابة الناس عن حب وقناعة.

٩- توثقت علاقته بمدير المعهد آنذاك (الشيخ عبد الجليل عيسى) فكان موضع شوراه.

١٠- كان يزن طلابه بميزان دقيق في الجوانب المتعددة، ولا يخفي حبه لمن يتوسم فيهم الخير، فيعاملهم -وهم بمنزلة أبنائه- معاملة الأخ الأكبر لإخوته الصغار.

١١- عرف بسعة علمه، وعمق فهمه، فكان زملاؤه المدرسون يعتبرونه مرجعاً لهم.

١٢- أضفى عليه تواضعه حلة من زيادة التقدير والاحترام لدى كل من عرفه.

وفضلاً عن ذلك كلّه، فقد كان له القدح المعلّى في تخليص قريته (شنشور) من العادات الجاهلية التي هدمها الإسلام، كالنياحة على الموتى ولطم الخدود وزيارة النساء للقبور، وتعظيم الأضرحة، وإقامة السرادقات ... إلخ.

لقد كانت جهوده في هذا الميدان لها أبلغ الأثر في نفوس العامة، فضلاً عن المتعلمين لما يعلمونه عن الشيخ من علم واسع، ورفق في الدعوة وحرص على هداية الناس، وقد تحقق له ما أراد بإذن الله

وتوفيقه، فهدى الله على يديه آلافاً من الناس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

إن حياة الشيخ عبد الرزاق وجهوده الدعوية المباركة جديرة بالتأمل، فقد أوقف حياته على نشر العلم، والدعوة إلى هذا الدين وإظهار محاسنه، والدفاع عن ساحته، وترسيخ مبادئه، وتعميق التوعية بمعانيه.

والواقع الذي لا يماري فيه أحد من دعاة هذا الدين وحملته في مصر وغيرها، هو إجماعهم على أن فضيلة الشيخ عبد الرزاق قد بلغ من العلم والفضل والفقه في الدين منزلة عظيمة لا يجحدها إلا حاسد أو حاقد، وفي هذه الكلمات المشرقة، والنصائح القيِّمة التي يوجِّهها الشيخ إلى الدعاة أكبر شاهد على ما ذكرت، فقد قال- رحمه الله:

وخير طريق يحتذيه الدعاة في القيام بمهمتهم، وأمثل منهاج يسلكونه في استمالة قلوب الناس إلى الخير، والإعذار إلى من لم يستجب للحق بعد بيان الحجة، وإقامة البرهان هو طريق الرُسل عليهم الصلاة والسلام ومنهاجهم في دعوتهم إلى الله بقولهم المفصَّل، وسيرتهم الحميدة.

وعقب ذلك يُلقي الشيخ الضوء على سيرة رسول الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول:

كان إبراهيم الخليل (عليه الصَّلاة والسلام) مثلاً أعلى في صدق اللهجة، والإيمان بما يدعو إليه من التوحيد وشرائع الإسلام والتصديق به على وجه اطمأنت به نفسُه ورسخ في سويداء قلبه، وقد أثنى الله عليه بذلك في محكم كتابه في مطلع الحديث عنه حينما قام يدعو أباه إلى التوحيد، فقال:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾[1].

فعلى الداعي إلى الحق أن يكون مؤمناً به، مخلصاً لما يدعو إليه صادق اللهجة فيه، وإلا انكشف سره، وافتُضح أمره، فإن ثياب الزور تشف عما وراءها، وعند ذلك يكون وبالاً على الدعوة.

بدأ إبراهيم الخليل بأبيه في الدعوة إلى التوحيد، فإنّه أقرب الناس إليه وألصقهم به فكان أولى بمعروفه وبرّه وإحسانه، وإلى جانب ذلك يكون رداً له إذا استجاب لدعوته، وظهراً له يحميه بدافع أخوة الإيمان وعصبية النسب.

قال تعالى في وصفه لإبراهيم في دعوته: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾[2].

وقد تلطّف معه في الدعوة فذكّره بما بينهما من الرحم ووشائج النسب استمالة لقلبه وتنبيهاً له إلى أنه لو كَذَب الناس جميعاً ما طابت نفسه بالكذب عليه، وأنه لو غشّهم جميعاً لم يكن منه إلا النصح له لما بينهما من أواصر القربى والنسب.

وبدأ دعوته لأبيه بالتوحيد الذي هو أصلُ الدِّين وجوهر الشرائع السماوية وعليه تقوم فروع الإسلام وبه صلاح القلب، وبصلاحه تصلح سائر الجوارح، وتستقيم أحوالها.

«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[3] وسلك في دعوته إلى

---

(١) سورة مريم: الآية (٤١).

(٢) سورة مريم: الآية (٤٢).

(٣) جزء من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو مخرّج في الصحيحين.

التوحيد طريق الاستدلال عليه بأن ما يعبده أبوه وقومه لا يسمعهم إذا دعوه لكشف غمة أو تفريج كُربة ولا يراهم إذا عبدوه وتضرّعوا إليه، ولا يجلب لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضُراً، وإذا كان لا يُرجى نفعه، ولا يُخشى بأسه، فكيف يستحق أن يُعبد أو يُتقرب إليه، وبذلك أقام عليهم الحُجّة وقطع عذرهم.

فيجب على مَنْ يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر أن يقتفي أثر إبراهيم الخليل في دعوته فيتلطف مع مَنْ يدعوهم ويسوسهم حسب ما تقتضيه أحوالهم، ويبدأ بأقرب الناس إليه وأولاهم بإرشاده ويُقدِّم الإرشاد إلى عقيدة التوحيد، ويُركّز الحديث فيها، ويقيمُ على ذلك الدليل ليقنعهم بالحجة ويسقط أعذارهم.

ادّعى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أنَّ الله آتاه من العِلْم ما لم يؤت أباه، لا ليفخر بذلك أو يتعالى على أبيه حتى يكون خُلُقاً ذميماً، يُنَفِّرُ الناس مِن حوله ويمقتونه من أجله، بل ادّعى ذلك ليلفت النظر إلى وجوب الإصغاء إليه واتباعه فيما جاء به من الحق المبين، ليهديهم به إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى في وصفه لإبراهيم في دعوته: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[1].

نهى إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) أباه عن طاعة الشيطان في وسوسته واتباعه فيما يسوِّله ويزيِّنه له من الشرك بالله وسائر المنكرات فإنَّ طاعته له وإسلام قيادِهِ إليه عبادة له من دون الله، ونبّه أباه إلى عصيان الشيطان لرِّبه وتمرده عليه، وإذنْ فليس على هدىً في وسوسته ولا يُزيِّن للنَّاس إلا ما هو شر وضلال.

---

(١) سورة مريم: الآية (٤٣).

قال تعالى في وصف دعوة خليله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾[1] فعلى الداعية إلى الحق أن يكشف الغطاء عن معنى العبادة ويزيدها إيضاحاً حماية لعقيدة التوحيد وبياناً لأصولها، ويستعمل أسلوب التنفير من عبادة غير الله اقتداءً بخليل الرحمن (عليه الصلاة والسلام).

أنذر إبراهيم أباه إنذار المتلطف معه المشفق عليه بأنه يخشى عليه مغبة شركه وعاقبة عبادته للشيطان وطاعته له، فيعذبه الله على ذلك ولا يجد ممن تولاهم بالعبادة من يدفع عنه بأس الله وعذابه.

قال تعالى في وصف إبراهيم في دعوته: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾[2].

فعلى الداعية أن يستعمل أسلوب الإنذار والتخويف من سوء العواقب، والتذكير بعذاب الله وأليم عقابه يوم يتبرأُ دعاة السوء ممن غرّروا بهم، ويتمنى المخدوعون بزخرف القول أن لو عادوا إلى الدنيا فيتبرأوا مِن دعاة السوء كما تبرؤوا منهم يوم القيامة، وأنّى لهم ذلك.

لا تأثير للدعوة إلى الحق وإن كانت صادقة إلا إذا وجدت آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، وفطرة سليمة لم تفسدها الأهواء، ولذا لم يستجب لإبراهيم أبوه بل أنذره لئن لم ينته ليرجمنه وأمره بهجره مليّا، فصبر إبراهيم على أذاه، وقابل سيئته بالحسنة وقال له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾[3].

واعتزلهم وما يدعون من دون الله، بُعداً عن الفتنة، إذ لم يستطع

---

(١) سورة مريم: الآية (٤٤).

(٢) سورة مريم: الآية (٤٥).

(٣) سورة مريم: الآية (٤٧).

القضاء عليها، وأملاً في أن يجد لدعوته أرضاً خصبة، فوهب الله له إسحاق ويعقوب، وجعل كُلاً منهما نبياً، جزاءً وفاقاً لصدقه في الدعوة، وإخلاصه فيها وصبره على الأذى في سبيل نشرها وهجره للشرك وأهله، إتقاءً للشر وبُعداً عن مواطنه ومظاهره.

فعلى الدعاة أن يتذَّرعوا بالصبر وسعة الصدر، وأن يقابلوا السيئة بالحسنة، وأن لا ينتقموا لأنفسهم ما استطاعوا إلى العفو سبيلا، لكن إذا انتهكت حُرمات الشريعة انتصفوا لها، وأخذوا على أيدي العابثين، وعليهم أن يهجروا الشر وأهله إذا لم يمكنهم إزالته أو تخفيفه، خشية أن تصيبهم الفتنة أو يعمهم البلاء، أو تكون مخالطتهم حُجَّة عليهم أو معرَّة لهم وذريعة للنيل منهم وعدم الاستماع لنصائحهم، وعليهم أن يتحروا المجالس التي يُرجى فيها قول الحق وقبوله والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل[1].

جهوده الدعوية في المملكة العربية السعودية:

وأما جهوده الدعوية في المملكة العربية السعودية فهي بحر لا ساحل له، وهي جديرة بأن يفرد لها دراسات ومؤلفات خاصة بها.

قدم العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -غفر الله له ورحمه- إلى المملكة العربية السعودية -بلاد الحرمين الشريفين - سنة ١٣٦٨هـ بعد أن قضى شطر عمره في ميادين العلم والدعوة والتربية في مصر.

لقد جاء إلى المملكة العربية السعودية على سجيته، لم يجتذبه طمع في مال أو جاه أو منصب، لم يأت إلى المملكة ليكون سلفياً، بل كان

(١) انظر مذكرة التوحيد وهي من إملاءات الشيخ، وقد قام المكتب الإسلامي في بيروت بطبعها.

سلفياً قبل مجيئه إليها وأدل دليل على هذا أن نشر الكتب السلفية التي تُعنى بأمر المعتقد كان شاغله الشاغل وعمله الدؤوب ومن أوائل هذه الكتب التي قام على تحقيقها ونشرها في مصر: كتاب «العلو» للذهبي[1].

والشيخ عبد الرزاق عفيفي يعتبر من أوائل من جاؤوا للتدريس في هذه المملكة المباركة قبلة العلماء العاملين وملاذ الأئمة المصلحين والدعاة المخلصين جاء الشيخ إلى هذه البلاد استجابة لرغبة كريمة من مؤسس هذه الدولة الغراء الملك عبدالعزيز آل سعود -يرحمه الله- فقد وجَّه أمره الكريم إلى صاحب الفضيلة الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع، معتمد المعارف السعودية آنذاك، وأحد أبرز رجال التعليم في المملكة العربية السعودية بأن يذهب إلى مصر لترشيح واختيار نخبة ممتازة من العلماء الذين عرفوا بصحة المعتقد وسلامة المنهج، وهدفه من ذلك تنفيذ سياسته الصارمة في محاربة الجهل واقتلاع جذوره بعد أن خيَّم ردهاً من الزمن على أجزاءٍ من هذه الجزيرة. وفي مصر وقع الاختيار على فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي ليكون في طليعة مَن يذهبون إلى المملكة العربية السعودية للمشاركة في النهضة العلمية بها، وإزاء تلك الثقة الغالية من الملك عبدالعزيز -يرحمه الله- والأمراء من أبنائه آثر الشيخ عبد الرزاق الاستقالة من الأزهر، وقدم إلى هذه البلاد مع كوكبة من علماء الأزهر منهم فضيلة الشيخ محمد على عبدالرحيم وفضيلة الشيخ محمد خليل هراس، وفضيلة الشيخ محمد عبدالوهاب بحيري، وفضيلة الشيخ حسين

(١) انظر كلمة (إنما كان إماماً) لأبي عبد الرحمن بن عقيل، الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

محمد مخلوف، وفضيلة الشيخ محمد حسين الذهبي، وفضيلة الشيخ عبدالمنعم النمر، وفضيلة الشيخ يوسف الضبع، والشيخ أحمد القط، والشيخ محمد عبد الدائم وغيرهم، وقد امتاز - رحمه الله - عن غالب زملائه وأقرانه الذين درسوا في الأزهر وفي غيره من المؤسسات العلمية بشدة متابعته لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

ويشيد معالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والارشاد بجهود فضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي -رحمه الله- فيقول:

لقد استمر عطاؤه في الكليات والمعاهد العلمية بعد وفاة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم -عليه رحمة الله- ثم في مجال الإفتاء والدعوة في رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. وقد أفنى عمره في نشر العلم والدعوة إلى الله والدفاع عن دينه[1].

لقد أدى الشيخ عبدالرزاق عفيفي -غفر الله له ورحمه- على مدار تسعة وأربعين عاماً دوراً مهماً وفاعلاً في الحياة العلمية والاجتماعية يمكن إجماله فيما يلي:

(١) جهوده التعليمية والتربوية والدعوية في دار التوحيد بالطائف (١٣٦٨-١٣٧٠هـ).

(٢) محاضراته القيمة ودروسه العلمية في معهدي عنيزة العلمي والرياض(١٣٧٠-١٣٧١هـ).

(٣) تأسيسه وتدريسه في كليتي الشريعة واللغة العربية بالرياض.

---

(١) انظر الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٤) معاصرته لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض منذ نواتها الأولى واستمرار عطائه لها إلى أن توفاه الله.

(٥) جهوده المخلصة وعمله الدؤوب إبّان إدارته للمعهد العالي للقضاء (١٣٨٥-١٣٩٠) وتخريج أفواج من طلبة العلم والدعاة على يديه.

(٦) مشاركته في اللجان العلمية التي كان من ثمرتها إنشاء الكليات والمعاهد العلمية بالمملكة.

(٧) عضويته الفاعلة وجهوده المتواصلة في وضع مناهج ومقررات الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

(٨) تحريره وصياغته لآلاف الفتاوى والبحوث التي تتسم بالعمق والأصالة والدقة وذلك خلال عمله نائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

(٩) دروسه العلمية ومحاضراته وندواته المفيدة في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم وفي منزله وفي بعض المعاهد التربوية ودور العلم.

يقول أحد تلامذته: كان الشيخ -رحمه الله- ذا باع طويل في علوم الشريعة، وقل أن يوجد له نظير في التوحيد وعلوم العقائد، أما في علم أصول الفقه فإليه فيه المنتهى، وقد شرفت بأن أكون أحد تلاميذه في كلية الشريعة، ثم في المعهد العالي للقضاء وخبرته عن قرب، ورأيت فيه ما كنت أقرأ عن علماء السلف من العلم الجم والفقه في الدين، والتحلي بمبادئ هذا الدين من تواضع وتُقىً وزهد وورع وصبر وحب لهذه الأُمَّة، وحرص على أن تظل كما هو مؤمل منها منارة هدى ومصدر إشعاع وموئل عز للإسلام والمسلمين[1].

(١) انظر كلمة الدكتور صالح بن سعود آل علي في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

ويقول آخر[1]: كان الشيخ عبدالرزاق -يرحمه الله- مسار إعجاب طلبة العلم، وكان الطلاب ينقلون أخباره لأهاليهم وذويهم، موضحين مواقفه وجهوده في التعليم والتربية وتفوقه في علم الشريعة، ودقة فهمه لأحكامها، وحسن تنزيله للأحكام على الوقائع في التدريس والفتوى، وقوة شخصيته، وسداد توجيهه، وحُسن ترتيبه، وعرفته الساحة في المملكة في كل مجال من مجالاتها، في التعليم، والتربية، والتوجيه، والوعظ والإرشاد، وفي الفتوى، والمجالس العلمية، ذا علم غزير ورأي متميز، وأدب جم، جمع الله له بين العلم النافع والعمل الصالح والقبول عند الناس والاحترام في المجتمع.

١٠- إشرافه على عشرات الرسائل العلمية (دكتوراه وماجستير) ومناقشته للمئات منها، فضلاً عن مئات البحوث والدراسات المتخصصة التي قومها وأبدى رأيه الصائب فيها، ومن هذه الرسائل العلمية التي أشرف عليها:

* رسالة الدكتوراه للشيخ عبدالقادر بن حبيب الله السندي وموضوعها (ابن قدامة وتخريج أحاديث كتاب «الكافي»).

* رسالة الدكتوراه للشيخ عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان وموضوعها (تحقيق ودراسة كتاب التوحيد وإثبات صفات الله عز وجل لابن خزيمة).

* رسالة الدكتوراه للشيخ صالح الفوزان، وموضوعها (الأطعمة مايحل منها ومايحرم).

---

(١) هو فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان، وانظر كلمته في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

* رسالة الدكتوراه للشيخ سعود بن عبدالله الفنسيان وموضوعها (اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره).

* رسالة الدكتوراه للشيخ محمد بن سعيد القحطاني وموضوعها (دراسة وتحقيق كتاب السُّنة للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن حنبل الشيباني).

* رسالة الدكتوراه للشيخ محمد لقمان السلفي وموضوعها (اهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومتناً).

وأما رسائل الماجستير والبحوث الشرعية الأخرى فهي لاتُحصى كثرة.

١١- تقويمه للأعمال العلمية والأبحاث التي تتسم بالأصالة والابتكار لكثير من الأساتذة طلباً للترقية إلى الدرجة العلمية التي يستحقونها.

١٢- إلقاؤه للعديد من المحاضرات والندوات والكلمات وعقد مئات المجالس العلمية في المساجد وفي بيته.

هذا غيض من فيض وقليل من كثير فيما يتعلق بجهود الشيخ رحمه الله.

والحق يقال: لقد أفنى الشيخ حياته في العلم والتعليم والإفتاء وانتفع بعلمه ودروسه أُمم لا يحصون كثرة واعترفوا له بالفضل بعد فضل الله سبحانه وتعالى وافتخروا بالانتماء إلى تعليمه وما تلقونه عليه من خلال دروسه في المعاهد العلمية والمساجد وغيرها.

دروسه العلمية:

لقد كان الشيخ عبدالرزاق عفيفي -رحمه الله وغفر له- من أعلام العلماء علماً وتقى، وزهداً وفصاحة، مواعظه تصل إلى القلوب، وألفاظه

ترسخ في الأذهان، كان منظره وفق مخبره، وعلانيته وزن سريرته، يجمع مجلسه ضروب الناس، وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقن منه التفسير، وآخر يتعلم منه اللغة وهو في كل هذا كالبحر العجاج تدفقاً، وكالسراج تألقاً.

كان في دروسه عف اللسان، لايتعرض لأحد بأذى ولا يسمح لأحد أن يغتاب أحداً في مجلسه وسواء أكان ذلك في دروسه الخاصة أو العامة وفي حلْقة الدرس يقرر العلم، ويحقق المسائل، ويوضح الغامض ويحل المشكل، ويقدم البراهين والأدلة على صحة قوله، ولا ينتصر لرأيه، وكان ذا هيبة ووقار، يفرض احترامه على جالسيه، كان كثير من طلبة العلم ومحبي المعرفة يحرصون أشد الحرص على مجالسته وحضور دروسه.

وكان في مجلسه صاحب روح خفيفة، قلَّما يخلو مجلسه من إلقاء نكتة مهذبة تنشط السامع وتسره، وتؤدي في نفس الوقت غرضاً توجيهياً، وكان بعيد النظر، عميق الفكر، له جولات نقدية موجزة، يدركها الواعي من جلسائه. كما كان بعيداً عن التكلف والتشدق، فتم له إحكام الضبط وإتقان الأداء فجاء لفظه مشبعاً، ولسانه ذرباً، ومنطقه عذباً.

يقول أحد تلامذته[1]: كان الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- في أخلاقه محل القدوة والأسوة، شديد التواضع، تغلب عليه البساطة في مجلسه ودروسه. صحبته ما يزيد على اثنين وثلاثين عاماً، وما تركت مجلسه في أسبوع إلا أن يكون أحدنا مسافراً، ولقد تعلمت في هذه

---

(١) هو فضيلة الدكتور محمد بن لطفي الصباغ، وانظر كلمته في الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

الصحبة أموراً كثيرة، منها ما يتعلق بالناحية السلوكية ومنها مايتعلق بالناحية الشخصية، ولقد أكرمه الله بالعقل المسدد والعلم الواسع والرأي الحكيم.

قلت: وكانت له دروس منتظمة في مسجد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في «دُخْنة» بالرياض وكان يحرص على حضور هذه الدروس أكابر طلبة العلم والعلماء، وعندما انتقل الشيخ إلى (حي الوشام) كانت له عدة دروس بين المغرب والعشاء بالمسجد المجاور لداره وكان يُعرف بمسجد العفيفي، هذا فضلاً عن إمامته للمصلين في هذا المسجد مدة خمسة عشر عاماً.

كما كان له رحمه الله درسٌ أيام الملك العالم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود -تغمده الله بواسع رحمته- كل يوم أربعاء، وكان الملك يحضره معجباً بعلم الشيخ وفقهه وحسن نصحه وطيب كلامه[1]، فضلاً عن ذلك فقد كان الشيخ يعقد دروساً مكثفة في بيته يخصص بعضها لطلبة العلم المتميزين في فهمهم وإدراكهم، ومن الكتب التي قام بشرحها وتدريسها كتاب «إيضاح المبهم من معاني متن السُلَّم» تأليف أحمد الدمنهوري وهو في المنطق.

وكتاب «روضة الناظر» لابن قدامة. وكتاب «الوصية الكبرى» لابن تيمية، و«الفَرْق بين الفِرَق» لابن طاهر. و«العقيدة الحموية»، و«الواسطية»، و«الرسالة التدمرية» لابن تيمية و«إحكام الأحكام» للآمدي وغيرها.

وقد كان في موسم الحج مقصد الناس من كلِّ مكان، يجيب على أسئلتهم ويحل مشكلاتهم.

---

(١) أفادني بذلك فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام (حفظه الله).

وصفوة القول أن الشيخ -رحمه الله- جمع علماً وفضلاً، وانتفع بعلمه أُمَمٌ لا يحصون كثرة، واجتمع في دروسه ما لم يحدث عند غيره.

ويصف ولد الشيخ عبد الرزاق -وهو الأستاذ محمود- مجلس أبيه فيقول:

كان مجلس الشيخ مهيباً، لا مجال فيه للهو الحديث ولا الخوض في الأعراض وانتهاك الحرمات، وكثرة القيل والقال وانتقاص الناس.

مجلس يغلب فيه التوجيه والإرشاد والنصيحة وحُسن المشورة، والبحث العلمي فيما يعرض من مسائل، والإجابة عما يقدَّم من استفتاءات، فإذا ما أخذوا في الحديث عن الدنيا كان الحديث بريئاً، كالحديث عن الأمطار والزروع والثمار وأمثال هذه الأمور من الكونيات التي يثير البحث فيها العبرة ويعرف الإنسان نِعَم ربه عليه.

وقد طُبع الشيخ على الخلال الحميدة والأخلاق والصفات الكريمة، فكان -رحمه الله- صادق اللهجة عف اللسان حليماً واسع الصدر كثير الصمت أميناً على السر، متمهلاً في حديثه، متأنياً في البحث وإبداء الرأي مع بُعد نظر، يحب أن يسمع أكثر مما يقول، يرى أن ما يفوت بالتأني أخف خطراً وأقلّ ضرراً مما ينجم في الغالب من سوء عاقبة العجلة ووخيم مغبتها.

يسعى في الخير للفرد والجماعة ويجتهد في تحصيل ما يراه محققاً للمنفعة دون أن يعلن عن عمله أو يتحدث عن نفسه حديث فخر وإعجاب بما له من محامد ومآثر.

قلت: ومن ثمار هذه المجالس العلمية المباركة ما قام به طلبة الشيخ من تسجيل بعض دروسه ومحاضراته حتى يعمَّ بها النفع وتعظم

بها الفائدة، وقد قمت بحمد الله وتوفيقه بتفريغ أشرطة هذه الدروس وتلك المحاضرات وقد استغرق ذلك وقتاً كبيراً رغبة في نشر العلم النافع إن شاء الله.

وفيما يلي نماذج من هذه الدروس وتلك المحاضرات التي أُلقيت في مناسبات مختلفة، وفي أماكن متعددة، وبعضها في منزل الشيخ. وكلُّها تدور حول بيان بعض مقاصد سور القرآن الكريم، ووجوه الإعجاز في هذه السور، فضلاً عما اشتملت عليه هذه السور من فوائد وآداب وأحكام.

تأملات في سورة الكوثر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

هذه السورة أنزلها الله جلَّ شأنه على رسوله عليه الصلاة والسلام، حينما رماه قومه المشركون، بأنّه أبتر، وذلك أنّ الله جلَّ شأنه ابتلاه في أولاده الذكور فماتوا جميعاً فقالوا أنه أبتر لانقطاع نسله، وكانوا يعتبرون الذكور هم النسل وهم الأساس وهم العُصبة. الذين يُحيون ذكراه بعد وفاته. والذين قالوا هذا عِدّة من كبار المشركين ووجهائهم، كأبي لهب، والعاص بن وائل وكعب بن الأشرف وغير هؤلاء، القصد أنهم جملة اتفقت كلمتهم على أن ذكرى رسول الله ﷺ ستموت بموته، لأنه لم يُعقب ابناً بل ماتوا جميعاً، فالله سبحانه وتعالى كذّبهم في هذا وبشّره بأنّه قد أعطاه فضلاً منه وإحساناً الخير الكثير، الذي منه الكوثر الذي أخبر به رسوله ﷺ، وورد على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام ذكره في الأحاديث الصحيحة ومنها أحاديث النُّبوة، ومن ذلك ذِكْره عليه الصلاة والسلام في الأذان والإقامة، ذِكْره بالرسالة كذِكْر الله عزّ وجل بالوحدانية وأعطاه غير ذلك من الخيرات التي لاتُحصى ولا تُعد، منها ما عجّله له في الدنيا، من نصرٍ وتأييد وكثرة أتباع وانتشار دينه وبقائه إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

فكذبهم بما أعطاه من البُشْريات العديدة العاجلة والآجلة، وأمره أن

يشكر هذه النعمة بإخلاص العبادة له، فلا يُصلّي إلا له، ولا ينسك النسك إلا له وحده لا شريك له، ولا يذبح إلا له سبحانه وتعالى مُخلصاً له قرباته، وبيّن له أيضاً أنَّه إلى جانب هذه البُشْريات وإلى ما أمره به من الشكر بإخلاص القربات له. فإن أعداءه وخصومه هم البُتر الذين تنقطع ذكراهم ويخسرون الدنيا والآخرة، وأما البشرى بالخير الكثير فهي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾:

والكوثر: هو الخير الكثير، ومنه الحوض المورود الذي يُعطاه النبي ﷺ يوم القيامة. وأما الشكر على نعمة هذه البُشْريات التي بشَّره الله بها، فقد تضمنتها الآية الوسطى من هذه الآيات الثلاث ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

وأمَّا النعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليه ،فهي العقوبة التي عاقب بها خصومه من أبي جهل وأبي لهب والعاص بن وائل وكعب بن الأشرف وعقبة بن أبي معيط وأمثالهم، من الذين جرت على ألسنتهم الكلمة الرديئة الخبيثة (وأنَّه سينقطع ذكره بوفاته) فذكر الله جلَّ شأنه أن شانئه وأن مبغضه هو الأبتر المنقطع ذكره في الدنيا الخاسر في الدنيا والآخرة فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

فالآيات الثلاث: آية في البشرى بالخير الكثير وآية فيما أوجبه الله عليه من الشكر بالإخلاص في القربات لله سبحانه وتعالى، وهي قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ والآية الثالثة: هي ما أصيب به خصومه من انقطاع الذكريات بعد وفاتهم وخسرانهم في الدنيا والآخرة. ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

وهذا أمر عام وسُنَّة لله في خلْقه، القائم بالحق ينصره الله وتحيا

ذكراه، وإن لم يكن له أولاد، والذكرى المعتبرة ترجع إلى الإصلاح في الدنيا وإلى السعادة في الآخرة. إصلاح العمل في الدنيا ظاهراً وباطناً عقيدة وعملاً بدنيًّا وسعادة عاجلة وسعادة آجلة[1].

(١) نقلًا عن شريطٍ سُجِّل للشيخ أثناء إلقائه بعض الدروس في بيته (رحمه الله).

تفسير سورة الفاتحة(1)

تفسير إجمالي لسورة الفاتحة مع بيان فضائلها

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد: يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

هذه السورة تُسمَّى سورة الفاتحة: وتسمى أم القرآن لاشتمالها على مطالب كثيرة مجملة، تشتمل على توحيد الأسماء والصفات في مطلبها في الآيات الثلاث الأولى، وتشتمل على توحيد العبادة في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وفي الدعاء الذي في ختام السورة، وتشتمل على الولاء والبراء في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

---

(1) أصل هذه المادة العلمية محاضرة للشيخ عبد الرزاق، وقد تم تسجيلها في حينها، وقمت بتفريغ أشرطتها مع تصرف يسير وتقديم وتأخير، مراعاة للترتيب، والتنسيق، وبعداً عن التكرار.

وهي على قصرها تشمل المطالب التي جاء القرآن بتفصيلها، وفي مطلع هذه السورة يُعلِّمنا الله -جلَّ شأنه- كيف نحمده ونُثني عليه الثناء كلَّه، فقال سبحانه: الحمد لله ربِّ العالمين الرحمن الرحيم، ثم علَّمنا كيف نُمجِّده، بقوله سبحانه: مالك يوم الدِّين، ثم علمنا أن نخصه بالعبادة لا نصرف منها شيئاً إلى غيره سبحانه، فنعبده بما شرع، ونُخلص له في ذلك كما أمرنا سبحانه بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

فقال سبحانه مُعلِّماً لنا أن نقول: إياك نعبد وإياك نستعين. بمعنى أنَّا لانعبد إلا إيَّاك ولا نستعين إلا بك، ثم علَّمنا كيف ندعوه ونضرع إليه ونطلب منه ما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة، وما يصلنا به ويقوي الصلة بين المؤمنين به، وكيف نتبرأ ممن حَادَ عن طريقه فغضب عليه وأضله عن سواء السبيل، فأمرنا أن نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

والمغضوب عليهم: هم كلُّ مَن عَلِمَ وكان على بيِّنة من أمر دينه وعلى بينة من الحق وبصيرة منه إلا أنه حاد عنه ولم يسلك طريقه، فكل من كان على هذا النحو فهو ممن غضب الله عليهم، ومن أوَّل هؤلاء اليهود الذين عرفوا الحق وحادوا عنه، وقد سئل بعض اليهود عن الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينه وبين جماعته، فقال: إنَّا نعلم أنه رسول أكثر مما نعرف عن نسبنا لأبينا، فنسبه لأبيه قد يكون مدخولاً، أما البينة الصريحة الصحيحة فهي مثبتة لرسالة نبينا محمد ﷺ، فهو على بيِّنة من رسالة النبي ﷺ ومعرفته بذلك أقوى من معرفته بنسبه لأبيه:

ومع ذلك حاد عن الطريق المستقيم، هؤلاء الذين كانوا على بيِّنة من الحق ومعرفة به ثم حادوا عنه يقال لهم: المغضوب عليهم، ومن الأَصِيلين في هذا اليهود - عليهم لعائن الله- أما الضالون: فهم كل جماعة جهلت الحق وطريق الصواب، وكان في أمْرِ عملها على غير بصيرة من دينها: ويمثل هؤلاء النصارى فهم الضالون كما ورد هذا في حديثٍ عن النبي ﷺ: بيَّن أن المغضوب عليهم هم اليهود وأن الضالين هم النصارى: وهذا من التفسير الجزئي: يعني من باب التمثيل لمن غضب الله عليهم، والتمثيل لمن أضلَّهم الله عن سواء السبيل.

الآيات الأخيرة بيَّنت الطائفة التي تجب موالاتها والسير في طريقها ومؤاخاتها: وهم الذين سلكوا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهؤلاء رفقاء الخير: وطريقهم طريق الحق والصواب، وهم الذين يجب على المسلم أن يواليهم وأن ينشد طريقهم وأن يسلك سبيلهم رجاء أن يرحمه الله جل شأنه في الدنيا والآخرة.

أما الفريق الثاني فهو الذي يجب البراء منه: وهم الفريق المغضوب عليه والفريق الضال عن سواء السبيل. هؤلاء وهؤلاء هم الذين يجب على المسلم أن يتبرأ منهم عقيدة وعملاً، وأن يمتلئ قلبه بالحَنَقِ عليهم والحقد لهم إلا بمقدار ما يدعوهم إلى الحق ويبين لهم الصواب لأن البلاغ واجب، ولا بد منه إقامةٍ للحجة حتى يعذر إليهم وحتى لا يكون لهم على الله حجة بعد البلاغ والبيان.

هذه السورة جاء في فضلها حديث قدسي وأحاديث نبوية. أما الحديث القدسي الذي قسَّمها أقساماً وأشار إلى معناها إجمالاً، وبيَّن

الكثير من فضلها ومكانتها من الإسلام. فقد قال فيه النبي ﷺ عن ربه: «قال الله تعالى: قَسَمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين يريد بالصلاة الفاتحة: قسمت الصلاة أي الفاتحة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حَمِدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله تعالى: مَجَّدَني عبدي، وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال الله تعالى: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل»[1]، يريد النصف الأول خطابه تعالى عباده بقوله: إياك نعبد وإياك نستعين، علَّمهم أن يقولوا: إياك نعبد، فهذا حق الله على عباده، ويريد بالنصف الثاني الذي لعبده وإياك نستعين، لانستعين إلا بك، فهذا حق العبد على ربه: أن يستجيبه إذا دعاه، وأن يحقق رجاءه فيه في حدود مصلحته وما يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة، وإذا قال العبد: إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين: قال الله تعالى: هذه لعبدي ولعبدي ما سأل، فسمَّى الله سبحانه هذه السورة -سورة الفاتحة- سَمَّاها الصلاة: إيذانا بأنها ركن من أركان الصلاة، ولذلك لا تصح صلاة المسلم إلا إذا قرأ الفاتحة في الجهرية والسِّرية، إمامًا ومنفرداً ومأموماً، هذا هو الرأي الصحيح عند فقهاء المسلمين وأئمتهم، لاتجزئ الصلاة ولا تصح من المصلِّي إذا لم يقرأ فيها فاتحة الكتاب، فإنَّ الله -جل شأنه- سمَّاها الصلاة فجعلها نفس الصلاة إيذاناً منه سبحانه بأنَّ لها شأنها في إقام الصلاة وإجزائها.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٣٩٥)، ومالك في الموطأ (٨٤/١، ٨٥). وأخرجه أيضاً أبو داود في سننه، والترمذي في جامعه وغيرهم.

هذه السورة فيها إثبات لأسماء الله وصفاته وإلى ذلكم الإشارة في الآيات الأولى. فقد سمَّى الله نفسه باسمه الذي لايُسمَّى به غيره، وهو كلمة الله ثم وصف لفظ الجلالة، وصفه بأنَّه الرَّب، رب العالمين جميعاً: الملائكة والإنس والجن وسائر المخلوقات والجمادات من سموات وأرضين جميعاً، ثم وصف نفسه بأنه الرحمن الرحيم وسمَّى نفسه بذلك ثم وصف نفسه سبحانه بأنه مالك يوم الدين، ويوم الدين هو يوم القيامة، فكما ملك الدنيا وصَرَّفها ودبرها على مقتضى حكمته وعلى وفق علمه سبحانه وتعالى ملك الآخرة- وهي دار الجزاء ليجزي فيها كلَّ نفس بما عملت من خير أو شر، فهذا فيه إشارة إجمالية إلى صفات الجلال والكمال التي وصف الله تعالى نفسه بها، ثم ذكر حق عباده عليه وحقَّه على عباده، ثم ختم السورة بالولاء والبراء ليبيِّن لنا من يجب علينا أن نواليه وأن نؤاخيه، ومن يجب علينا أن نعاديه وأن نتنكب طريقه فإنه طريق السوء والشر طريق الهلاك والنَّار.

هذه السورة ورد في فضلها عن النبي ﷺ أنه دخل المسجد يوماً ما، فوجد أبا سعيد بن المُعلا يُصلِّي نافلة فنادى، فحار أبو سعيد بن المعلا هل يجيبه أو يستمر في صلاته؟ وغَلَّب جانب الاستمرار في صلاته طاعة لله -جل شأنه- وإيثاراً لجانبه، ولمَّا انتهى من صلاته جاء إلى النبي ﷺ استجابة لندائه، وإن كان بعد فترة، فقال له: «يا أبا سعيد ألم أُنادِك ألم أدْعُك؟» فقال: بلى..ولكنِّي كنت أصلي، قال له: «إن الله تعالى قال في محكم كتابه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]».

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٢٤).

فبيّن له أنه كان يجب عليه أن يجيب النبي ﷺ، ولكنه آثر جانب الاستمرار في صلاته اجتهاداً منه فله الأجر عند الله على عمله واجتهاده، ثم قال له: «يا أبا سعيد لأُعلِّمنك سورة من القرآن، هي أفضل القرآن وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم»، ثم سكت النبي ﷺ ولم يعلمه: لم يعجل بتعليمه السورة، وأخذ في طريقه إلى باب المسجد، فلمّا كان عند باب المسجد قال له أبو سعيد: ألم تقل لأعلِّمنك سورة هي كذا وهي كذا ؟ فقال: «بلى»، ثم قال له: «هي سورة الفاتحة»[1]، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ الآيات التي تكونت منها سورة الفاتحة، وسُميت مثاني لما فيها من الثناء على الله جل شأنه أو لأنها تتكرر قراءتها في كل ركعة من ركعات الصلاة: فَلِتكَرّرِها في الصلاة في كل ركعة، ولاشتِمالها أيضا على الثناء على الله سُمّيت في نص القران السبع المثاني ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[2].

وهذا من عطف العام على الخاص ويدخل فيه سورة الفاتحة، فهي بعض آيات القرآن، هي سبع آيات من آيات القرآن: فهي داخلة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وهي أفضل القران، فهذا بيانٌ من النبي ﷺ لفضل الفاتحة ومكانتها عند الله -جلّ شأنه- مع كونها كلام الله، وكلام الله خير الكلام، وفضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على عباده، وشتّان ما بين الله وبين عباده، فالفرق شاسع، وكذلكم

---

(١) وفي لفظ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم الذي أوتيته والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢١١) والبخاري في صحيحه (الفتح ٨/ ٤٤٧٤) وأبو داود في سننه (١٤٥٨).

(٢) سورة الحجر: الآية (٨٧).

الفضل، الفضل واسع، ولا يقدر قَدْره إلا الله، كما لا يقدر قدر الله إلا الله، فلا يقدر قدر كلامه إلا هو، ولا يَقْدر قدر الفاتحة خاصة إلا الذي تكلم بها وأنزلها على رسوله ﷺ، فهذا من فضائل الفاتحة التي بينها الرسول ﷺ، كما بيَّن فضلها الله سبحانه في الحديث القدسي الذي سبق ذكره، ومما جاء في فضل الفاتحة والانتفاع بها الرُّقية بها حتى ولو كان من رُقِيَ بها كافرا، فقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري أن سريَّة من سرايا النبي ﷺ طائفة أرسلها الرسول ﷺ في مهمة، فنزلت في طريقها على قوم من الكفار عتاة فاستضافوهم فأبى أولئك الكفار أن يضيفوا صحابة رسول الله ﷺ لما بينهم وبين أولئك الصحابة من العداوة والبغضاء. وما في قلب الإنسان يظهر في أعماله وعلى جوارحه وفي فلتات لسانه، فهؤلاء قابلوا استضافة الصحابة رضي الله عنهم لهم بالبخل وبالتنكر لهم، فذهب عنهم صحابة رسول الله ﷺ. وجزاءً لهم على موقفهم السَّيِّء من الصحابة رضوان الله عليهم أن سلَّط على سيِّدهم حشرةً لدَغَتْه، فطلبوا له العلاج بكل ما يستطيعون فلم يفلحوا واضطروا أن يذهبوا إلى صحابة رسول الله ﷺ في منزلهم الذي نزلوا فيه، ليستعينوا بهم على علاج لديغهم، وقالوا لهم القصة: إنا طلبنا له العلاج في كلِّ شيء فلم نصل إلى شيء، فهل عندكم من علاج؟ فقال أبو سعيد الخدري وهو أصغرهم سِنّاً ومع صغر سِنِّه كان يحفظ الكثير من القرآن. قال: والله إنَّ عندي له علاجاً، ولكني لست بفاعل حتى تجعلوا لنا جُعْلا فإنا استضفناكم فلم تضيفونا، فجعلوا لهم جعلا على أن يأتي أبو سعيد إليه ليقوم بعلاجه- والشفاء بيد الله لا بيد أبي سعيد الخدري، ذهب معه إلى اللَّديغ وقرأ عليه سورة الفاتحة قرأها مرة، فقام كأنما هو جمل نشِطَ من عقال، كأنما هو جمل حُلَّ عقاله، والجمل

معروف عنه، إذا حُلَّ عِقاله لو كان أمامه أقوى رجل دفعه بصدره فوقع على ظهره، قام هذا اللديغ بعدما كان به من مرض كأنه جمل حُل عقاله وليس به بأس، كأنه لم يلدغ، فأعطوه الجُعل وكان قطيعاً من الغنم، وكان يكفي الصحابة وحدات قليلة من الغنم لكن رزقهم الله هذا الرزق الواسع، فأكلوا ثم ارتابوا، وقالوا فيما بينهم: قد يكون هذا غير حلال، قد يكون كسبًا غير حلال، والصحابة رضوان الله عليهم عُرف عنهم التحري للكسب الحلال، عُرف فيهم الصلاح وتقوى الله سبحانه، فقالوا: لا نأكل أحْجِموا عن الأكل حتى نسأل رسول الله ﷺ، فلما رجعوا سألوه، فقال لأبي سعيد: «ما يدريك أنها رُقية؟» فقال: شيء ألقاه الله في رُوعي، الرَّوع القلب، والروع -بالفتح- الخوف، فإبراهيم لما جاءته الملائكة وأوجس خيفة منهم أخذه روع وأخذته المخافة، ثم ذهب عنه الرَّوع. لمَّا عرف حقيقة الأمر، القصد أن الرَّوع الخوف والروع هو القلب، فقال أبو سعيد: هذا شيء ألقاه الله في رُوعي، وهذا مثل ما يلقى في قلب بعض الطيبين مجيء فلان من السفر، إحساس باطني لا يفيد اليقين، لكنه يدفع الإنسان إلى أن يتحدث عما جال في خاطره، وإن كان لا يُسمَّى عِلْما لكنه هواجس وخواطر تجول في صدره، ولا يُسمَّى عِلْم غيب، فالرسول ﷺ قال لهم جواباً عن سؤالهم: هل هذا من الكسب الحلال أو الكسب الحرام؟ قال: «إنَّ أحق ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله»[1] يريد بهذا أن العلاج قد يكون بالكي، وقد يكون بسحب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (الفتح ٥٧٣٧/١٠) باب الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب. وأما حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه فقد أخرجه البخاري أيضاً (الفتح ٥٧٣٦/١٠) في الطب. باب الرقي بفاتحة الكتاب وفيه «فضحك النبي ﷺ وقال: وما أدراك أنها رُقية؟ خذوها، واضربوا لي بسهم».

السُّم من اللديغ من المكان الذي لُدغ فيه، وسحب السُّم منه يُشَرَّط جلده ويَخرج الدم أو يمتص طبياً، وقد يكون بِرُقية، وقد يكون بدعوة له، أنواع كثيرة، فقراءة الرُّقية بقراءة القرآن التي ترتب عليها الشفاء لصاحبها أحق بالأجر من الشخص الذي يعالج علاجاً مادياً- دكتوراً أو غيره. فهذا بيان من النبي ﷺ لمشروعية الرُّقية بالفاتحة، وهذا بيان لنتيجة الرقية بها شفاء هذا وإن كان كافراً، وليس المراد بهذا الحديث أن يأخذ الإنسان أجراً على تلاوة القران مثل الصَّبيت[1]، أو أن يأخذ أجراً على قراءة القرآن على الأموات فإن هذا لم يفعله الرسول ﷺ وهو معلم البشر وهو المبلِّغ عن الله عز وجل، فقراءة القرآن على الأموات، رجاء أن يرحمهم الله بِدْعة من البِدَع. وأخذ أجرٍ على مجرد تلاوة القرآن أيضاً لا يجوز والكفار الذين أعطوا الصحابة قطيعًا من الغنم ما أعطوهم إيَّاه حباً للقرآن أو حُبًّا فيه أو حباً للقارئ وللمسلمين وللإسلام، بل القرآن أبغض إليهم مِن كلِّ شيء، والصحابة أبغض إليهم من كل شيء، ورسولهم أبغض إليهم مِن كلِّ شيء، ومع ذلك دفعوا الأجر، فالأجر ليس للتلاوة: إنما هو للعلاج ولَمَّا تمَّ بعده من الشفاء فهم جاعلوه على الشفاء لا على التلاوة، وعلى هذا دفعوا الأجر، فالاستدلال بهذه الجملة من الحديث على جواز تلاوة القرآن على الأموات رحمةً لهم أو الاستدلال بها على مجرد تلاوة القرآن وأخذ أجر عليه لإسماع الناس التلاوة أو القرآن، الإستدلال بها على هذا لايجوز ولا يصح وهو من تحريف الكلم عن مواضعه، وهذا من فوائد هذا الحديث إلى جانب الفائدة الجليلة التي بيَّنها النبي ﷺ، بيَّن بها منزلة القرآن ومكانته من

---

(١) وهو الذي يقرأ القرآن في المناسبات ويُدفع له أجر تلاوته.

غيره من القربات، بل مكانتها[1]، من سائر القرآن، هذا بيان لجانب آخر من جوانب فضيلة سورة الفاتحة، وأن من فضيلتها أنها جُعلت فرضاً في كل ركعة من ركعات الصلاة، بخلاف السورة التي بعدها فإنها من سنن الصلاة، لو تركها الإنسان تكون صلاته صحيحة، أما الفاتحة فلو تركها فصلاته باطلة والقرآن كله خير، وفضله على كلام البشر كفضل الله على عباده.

وأسأل الله جل شأنه أن يبصرنا بديننا وأن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا وأن يجعله غذاءً لأرواحنا وأن يجعله مصدر تشريعنا- يستميل قلوبنا إليه حتى لاتُحكِّم سواه وسوى سُنَّة رسول الله ﷺ فإن من أخذ بهما أخذ بالحق وكان على بيِّنةٍ وبصيرة مِنْ أمر دينه مع ربه ومع المخلوقات وكان حبيباً لله في الدنيا والآخرة سعيداً في دنياه وفي آخرته.

والحمد لله رب العالمين.

(١) وللإمام البغوي كلام نفيس ونُقُول له في هذه المسألة في كتابه شرح السنة فلتراجع.

من وحي قصص القرآن الكريم
قصة يوسف عليه الصلاة والسلام

بيّن سبحانه لرسوله محمد ﷺ في كثير من قَصص القرآن الطريقة المُثلى التي يثبت بها رسالته ويحاج بها أمّته. وأرشده إلى كون ذلك القصص آيةً بيِّنةً تُوجب عليهم أن يستجيبوا لما دعاهم إليه من التصديق برسالته والإيمان بسائرِ ماجاءهم به من عند الله.

من ذلك قصة يوسف عليه الصلاة والسلام. إنَّ هذه القصة فيها كثير من العجائب والعِبَر، والعظات والأحكام والأخلاق وألوان الابتلاء والامتحان والفضل والإحسان. والذي أقصد إليه من مباحثها أمرين لمزيد اتصالهما بما أنا بصدد الكلام عليه، الأوّل: كيف كانت هذه القصة معجزة لرسول الله محمد ﷺ. الثاني: كيف كانت دليلاً على أن الله يُعِدُّ رُسلَه في حياتهم الأولى قبل الرسالة لتحمل أعبائها حين إرسالهم إلى أممهم.

أما الأول: فإنَّه تعالى ذكر قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في القرآن مفصَّلة لتكون آيةً بل آياتٍ على نبوة رسوله محمد ﷺ، وبيان ذلك أنَّه كان أُمِّياً لم يقرأ شيئاً من كتب الأولين ولا درس شيئاً من تاريخهم ولا خط من ذلك شيئاً بيمينه حتى يُرتاب في أمره ويُتهم بأنَّه تكلَّم بما قرأ أو درس قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾(1).

بل كان من الغافلين عن قصة يوسف وأمثالها لم تخطر له ببال ولم تقرع له سمعاً قبل أن يُوحي الله بها إليه ويذكرها له في محكم كتابه قال تعالى في مطلع سورة يوسف: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾.

وقال بعد ذكر يوسف لرؤياه وعرضها على أبيه ووصية أبيه له: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾(2).

ولم تكن قصة يوسف بالأمر الذي اشتهر في العرب، وتناولوه بالحديث فيما بينهم، بل كانت غيباً بالنسبة إليهم، ولا كان محمد مع يوسف وإخوته ولا شهد مكرهم به، ولا كيدهم له، فيتهم بأنَّه تكلَّم بأمرٍ شهده أو انتشر بين قومه قال تعالى لنبيِّه محمد في ختام قصة يوسف عليهما الصلاة والسلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾(3).

ولا يسع أحد أن يقول إنَّه عرف تفاصيل القصة مِن اليهود. فإن السورة مكيَّة واليهود كانوا يعيشون بالشام والمدينة وما حولها. ولم يُعرف عنه أنَّه اتصل بهم قبل الهجرة ولا دارسهم شيئاً من العلوم. ولو كان تم شيء من ذلك لانكشف أمره لطول العهد وكثرة الخصوم وحرج قومه من دعوته، وسعيهم جهدهم في الكيد له والصدِّ عنه وحرصهم على

---

(1) سورة العنكبوت: الآية (٤٨).

(2) سورة يوسف: الآية (٧).

(3) سورة يوسف: الآية (١٠٢).

تشويه سمعته والقضاء عليه وعلى دعوته حتى رموه بالسحر والكهانة والجنون واتهموه زوراً بالكذب وهو في قرارة أنفسهم الصادق الأمين. وتبادلوا الرأي فيما يوقعونه به من حبسه أو طرده من بيتهم وتشريده، وانتهى أمرهم بالاتفاق على قتله فأنجاه الله من كيدهم وكتب له الهجرة إلى المدينة حيث عز الإسلام وقامت دولته. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾(1).

فقوم هذا شأنهم معه لا يخفى عليهم أمره وهو يعيش بين أظهرهم وهم له بالمرصاد. فلو وجدوا سبيلاً إلى الطعن عليه باتصاله باليهود والأخذ عنهم لسارعوا إلى فضيحته، والتشنيع عليه بذلك، ولم يضطروا إلى الافتراء عليه، ولا إلى التفكير في قتله أو تشريده، ولا إلى نشوب الحرب بينه وبينهم سنين طويلة، ولم يلجئوا إلى اتهامه تهمةً تحملُ ردَّها في طيِّها فقد اتهموه برجل أعجمي بمكة وادعوا أنَّه يُعلِّمه، فسفهَّ الله أحلامهم وألقمهم الحَجَر قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾(2).

وليست قصة يوسف خبراً مقتضباً عبَّر عنه بالجملة أو الجملتين فيقال: إن صدقه في الحديث عنها وليد الصدفة والاتفاق. بل هي قصة كثيرة العجائب متشعبة الموضوعات. وقعت بين أطراف مختلفة في أزمان متباعدة. فمن رؤيا صادقة إلى مؤامرة ثم نجاة يتبعها بيع ثم إيواء. إلى مراودة يتبعها هم ثم عصمة من الفحشاء. إلى سجن فيه دعوة إلى التوحيد مع رفق وحُسن سياسة وتأويل للرؤيا أصدق تأويل، يتبع ذلك

---

(1) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

(2) سورة النحل: الآية (١٠٣).

خروجه عليه السلام من السجن بريئاً من التهمة وتولّيه شؤون الدولة واجتماع إخوته به مع معرفته لهم وإنكارهم إياه وما أكثر ما دار بينه وبينهم من الأحاديث وماجرى من الأحداث. إلى أن انتهى ذلك بتعريفه لهم بنفسه وعفوه عنهم وحضور أبويه إليه على خير حال إلى غير ذلك من التفاصيل التي يعرفها البصير بكتاب الله. وقد سيقت القصة مفصّلة في جميع نواحيها مستوفاة في جميع فصولها في أدق عبارة وأحكم أسلوب. أفيعقل بعد ذلك أنْ يُقال: إن صدْقه ﷺ فيما سرده من قضاياها ووقائعها وعجائبها على هذا النهج الواضح والطريق السّوي وليد الصدفة والاتفاق!!.

ختم سبحانه سورة يوسف بمثل ما بدأها به من الإرشاد إجمالا إلى القصد الذي من أجله سيقت القصة، وهو أن تكون آية على نبوة محمد ﷺ وصدْقه فيما جاء به من التشريع، وأن قصة يوسف ونحوها مما نزل به الوحي مستقى من المشكاة التي أخذ منها الأنبياء، فليس حديثاً مفترى، ولكنه تصديقٌ لما بين يديه من كتب المرسلين وتفصيلٌ لما يحتاج إليه المكلفون من التشريع في معاشهم ومعادهم. وجماع الهداية والرحمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. أفيمكن أن تكون هذه القيادة الرشيدة بهذا التشريع المستقيم من إنسان أُمِّي عاش في أمَّة أميَّة من عند نفسه دون وحي من الله. كلا إنها العناية الربانية والرسالة الحقة والوحي الصادق المبين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون رحمة للعالمين ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: الآية (١١١).

وأما الثاني: فإنَّ في تفاصيل القصة كثيراً من الأسرار والعجائب التي يعد الله بها رسله ويهيء بها أنبياءه لقيادة الأمم وسياسة الشعوب، من أخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وقوة عزيمة وعقائد صحيحة،وبيان ذلك من وجوه كثيرة.

أ- منها صفاءُ روح يوسف ونقاءُ سريرته وهذا واضح من الرؤيا الصادقة التي رآها في صِغَر سِنِّه وأوّل نشأته فتحقق تأويلها بسجود أبويه وإخوته له في كبر سنه وختام حياته ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ﴾[1].

وقـال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ﴾[2].

ب- ومنها ماخصّه الله به من الميزات التي زادت تعلُّق والده به وحبّه له وحملتْ إخوته على التآمر عليه، والكيد له، فأشار بعضهم بقتله ليخلو لهم وجهُ أبيهم وتطيب لهم الحياة مع أبيهم من بعده. ورأى آخرون إن في إبعاده عن أبيه الكفاية فلما أجمعوا أمرهم على ذلك، ورموه في غيابة الجب، أوحى الله إليه ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3].

إيناساً له وإزاحة للغُمَّة عن نفسه وهيَّأ له مَنْ أخرجه من البئر لكنَّهم باعوه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة. فرعاه الله، وجعله عند مَنْ يُكرم مثواه ومكّن له في الأرض وعلّمه من تأويلِ الأحاديث، ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) سورة يوسف: الآية (٤).

(٢) سورة يوسف: الآية (١٠٠).

(٣) سورة يوسف: الآية (١٥).

غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ح - ومنها عِفَّة فرجه، ونزاهة نفسه، مع توافر دواعي الشهوة وتهيء أسباب الجريمة، من دوام الخلوة، ومزيد الخُلطة ودعوة إمرأة العزيز له ومراودتها له عن نفسه، وأخذها الحيطة في إغلاق الأبواب. قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾[2].

لقد كان يوسف عليه السلام من المخلصين لله. فاستعاذ به ولجأ إليه، وفزع إلى من بيده مقاليد الأمور والقلوب يُصرِّفها كيف يشاء، وتبرّأ مِن حوله وقوته إلى حول الله وقوته، واستقبح أن يُقابل جميل مَن أحسن مثواه بخيانته في عرضه، وذكر ما يصيب الظالمين في العواقب من الخسارة والدمار، ولم يأبه بالسجن والوعيد بالأذى إن لم يكن عند رغبتها

(١) سورة يوسف: الآية (٢١).

(٢) سورة يوسف: الآيات (٢٣ - ٢٩).

ويُحقِّق لها ما تريد ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

ثم قصَّ الله على رسوله ﷺ خبر يوسف مع صاحبيه في السجن فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[2].

فانظر إلى سلامة فطرته، وصحَّة عقيدته، وتناسيه البلاء، وذكْره لأسلافه وأجداداه الطاهرين المصلحين، إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ليتخذ منهم قدوةً له في التوحيد والدعوة إليه والحذر من الشرك وبيان فساده

---

(١) سورة يوسف: الآيتان (٣٣ ـ ٣٤).

(٢) سورة يوسف: الآيات ٣٦ ـ ٤١).

بالأدلة والبرهان. وانظر إلى كرم خُلُقه مع صاحبيه حتى شهدا له بالمعرفة والفضل والإحسان وإلى حسن سياسته معهم في الدعوة إلى الله حيث انتهز حاجتهم إلى تأويل ما رأياه فعرَّفهم بنفسه وبيَّن لهم مكانته لُيقبل منه قوله ويُنتفع بنصحه فدعاهما إلى التوحيد وزيَّنه، وحذرهما من الشرك وقبَّحه وإيثاره ذلك على ما سألاه عنه دون تضييع لما تعلّقَتْ به نفوسهما من تأويل الرؤيا ولا مجابهةٍ بالمكروه لمن دلَّت رُؤياه على سوء عاقبته، بل أبهم الأمر فقال: أمَّا أحدكما فيسقي ربه خمراً وأمَّا الآخر فيُصلبُ فتأكل الطير من رأسه. وقد حقَّق الله ما قال فصار كلٌ منهما إلى ما ذُكِر له في تأويل رؤياه.

د- ومنها أنَّ يوسف مع ثقته بربِّه وتوكله عليه، أراد أن يأخذ بأسباب الخلاص مما أصابه من البلاء وليس في ذلك ما يُعيبه أو يغض من توكله على الله فإنَّه قد زُجَّ به في السجن ظُلماً وعدواناً بشهادة خصومه. ودفْع الظلم مشروع بل قد يكون واجباً ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

ولكن الله أراد أن يزيده تمحيصًا وصدقاً في التوكل عليه وحده وقوةً في الصبر على البلاء، فأنسى الشيطان ذلك الفتى ان يذكر يوسف لربِّه[1] بالخير فلبث في السجن بضع سنين. ثم اختار الله له طريقاً إلى الخلاص خيراً من الطريق التي رسمها لنفسه كما سيأتي بيانه.

هـ- ومنها إن الله سبحانه شاء أن تكون نجاته بما آتاه من العلم والحكمة وبما علَّمه مِن تأويل الأحاديث، لا بشفاعة أحد، ولحاجة الأُمَّة راعيها ورعيَّتها إليه دون حاجته إليهم، ليكون ذلك أكرم لنفسه وأعزَّ لها،

---

(١) سيّده (الملك).

ولئلا يكون لأحدٍ عليه سوى الله مِنَّة، فهيَّأ له السبيل لذلك،ورأى ملك مصر رؤيا هاله أمرها وعجز أشراف قومه عن تعبيرها ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾[1].

ولمَّا انتهى أمر الرؤيا إلى يوسف أوَّلها أصدق تأويل وبيَّن أنها كشفت للأمة عن مستقبلها في رخائها وشدتها أربع عشرة سَنة ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[2].

فأخذ ذلك التعبير من قلب الملك مأخذه، ولم يسعه إلا أن يرسل بإحضار يوسف إليه فأبى حتى ينظر في قضيَّته مع النسوة. فإنَّه قد زُجَّ به في السجن من أجلهنَّ ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[3].

ففعل الملك وظهرت براءة يوسف ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[4].

---

(١) سورة يوسف: الآيتان (٤٣ ـ ٤٤).
(٢) سورة يوسف: الآيات (٤٧ ـ ٤٩).
(٣) سورة يوسف: الآية (٥٠).
(٤) سورة يوسف: الآيتان (٥١ ـ ٥٢).

ولما طلبه الملك بعد ذلك وحضر عنده ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ثقة منه بنفسه وعِلماً منه بأنّه ليس في الأمّة مَنْ يصلح لتدبير شؤون الدولة الاقتصادية وتصريف أمورها على وجه يحفظ كيانها سواه، فطلب ذلك لمصلحة الأمة لا لحظ نفسه فاستجاب له الملك لعِلْمه وصدْقه وأمانته، وأتمَّ الله ليوسف ماشاء من نعمته ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وبذلك يتبين أنَّ الله محص يوسف ورعاه بتتابع البلاء والإنجاء. ابتلاه بكيد إخوته له ورميهم إيّاه في الجب ثم أنجاه. وابتلاه ببيع السيَّارة له ثم هيَّأ له مَنْ أحسن مثواه. ابتلاه بتسليط امرأة العزيز عليه، وبالنسوة اللاتي قطعن أيديهن ثم عصمه وحماه، وابتلاه بالسجن ثم أخرجه منه بريئاً من التهمة عليماً بربه وبشؤون الأُمَّة في وقت اشتدت فيه حاجة البلاد إلى حفيظٍ عليم يُدبر أمرها، ويقودها في حياتها خير قيادة، فتولىَّ أمرها واستسلم له أهلها. وفي قصة يوسف سوى ما ذكر شيء كثير يدل على أن الله سبحانه تعهد يوسف برعايته، وتولاه في أطوار حياته ليتخذه رسولاً يضطلع بأعباء الرسالة. وليجعل مِن سيرته الحميدة أياتٍ بينات على صدقه فيما جاء به وأمانته في البلاغ عن ربِّ العالمين.

---

(١) سورة يوسف: الآية (٥٥).

(٢) سورة يوسف: الآية (٥٦).

قصة موسى عليه الصلاة والسلام

ذكر الله سبحانه وتعالى في أوّل سورة القصص بياناً عن نشأة موسى عليه الصلاة والسلام وحاله قبل الرسالة، وأتبع ذلك بياناً عن رسالته إلى أن أنجاه، ومَن آمن معه، وأهلك أعداءه ليكون ذلك القصص في جملته آية على نبوّة محمدٍ ﷺ، وصدقه فيما أُنزل عليه من الوحي، ودعا إليه أُمَّته، كما يرشدنا إلى ذلك، بقوله تعالى في مطلع السورة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(1).

وقوله تعالى: عند انتهاء ما أراد ذكره من القصة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(2).

أما ما ذُكر في هذه السورة من تفاصيل القصة فآياتٌ بيِّنات تدلُّ على كمال رعاية الله لموسى عليه الصلاة والسلام، في جميع شؤونه: في رضاعته، وكفالته، وعلمه، وحكمته، وإعداده بالقوة، والأخلاق الفاضلة، من نصرة المظلوم، وإعانة الضعيف، وعزّة النفس، وصدق التوكل على الله، والأمانة وحُسن المعاملة، ليكون رسولاً ينقذ به -سبحانه-

---

(1) سورة القصص: الآيتان (٢ ـ ٣).

(2) سورة القصص: الآية (٤٦).

الشعوب من الاستعباد، ويُخلِّصها من الطغيان والاستبداد، ويهدي به القلوب، وينير به البصائر، وإليك شيئاً من تفصيلها ترى منه ما ذكرت:

١- قدَّم الله بين يدي هذه القصة جملة من الآيات بيَّن فيها سُنَّته العادلة، وحكمته البالغة في القضاء على من علا في الأرض وأفسد فيها. ومِنّة على المستضعفين والتمكين لهم وإدالتهم من عدوهم، فضلاً منه ورحمة، والله عليم حكيم. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[١].

ثم فصَّل ذلك فيما ذكره بعد من القصة.

٢-ولد موسى بن عمران عليه السلام في مصر، وكان ملكها إذ ذاك جباراً جائراً، يقتل ذكران بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، فأوحى الله إلى أم موسى أن تلقيه في اليم إذا خافت عليه من فرعون وجنوده، ووعدها وعداً صادقاً أن يرده إليها ففعلت وأنجاه الله والتقطه آل فرعون، وتداولوا الرأي فيه.

وعند ذلك مر موسى بطَورٍ آخر من أطوار الخطر، ثم كتب الله أن ينتهي بهم التفكير في أمره إلى أن يتخذه الفرعون ولداً، وأن ينشأ في بيت ملك يتربى فيه على العزة، وشدة البأس، وقوة العزم، والأخذ بالحزم، ولا يصاب بما أصيب به قومه من العذاب والذل والهوان. وبذلك يصلح لحمل أعباء الرسالة. ومواجهة فرعون في جبروته وطغيانه. ثم أولاه الله نعمة أخرى فكتب عليه ألا يُرضع إلا من أمه حتى اضطر فرعون ومن معه إلى أن يردوه إلى أمه، وهم لا يشعرون، وبهذا التدبير الحكيم واللطف الخفي أنجز الله لأم موسى وعده. فرجع

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٣).

إليها ولدها لتكفله ويتمتع بعطفها وينعم بحنانها وتقر به عيناها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق.

٣- هذه الحلقة من حياة موسى كلها عِبَر وآيات: منها:

أن الله سبحانه وتعالى جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً وإلقاءً بالنفس إلى التهلكة.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ﴾[1].

ومنها: أنه سبحانه وتعالى كتب لموسى الحياة السعيدة في بيت من يخشى عليه منه، فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

ومنها: أن الله حرم عليه تحريماً كونياً أن يرضع من امرأة سوى أمه، فكان ذلك فيما يرى الناس، بلاءً أصابه، وهو في الأمر نفسه كمال اللطف من الله، والرحمة بموسى ليرجعه إلى أمه وهم لا يشعرون، فاجتمع له إلى السلامة والنجاة عطف الأمهات وعز الملوك.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة القصص: الآية (٧).

(٢) سورة القصص: الآية (٩).

(٣) سورة القصص: الآيتان (١٢ - ١٣).

ومنها: حفظ الله سبحانه وتعالى على موسى صفاء روحه وسلامة فطرته، فمع أنه عاش في بيت ملك، وأوساط ظلم وطغيان، فإنه لم يتأثر بما تأثر به من قضى أيامه الأولى من حياته في بيئة إستشرى فيها الفساد، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الملوك، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش حين تهمل تربيته من جهل ومن استهتار أو رخاوة وخلاعة ومجون، بل صانه الله من كل ما يشينه وآتاه العلم النافع، والحكمة البالغة وسداد الرأي، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

٤- جبل الله نبيه موسى على الحزم والأخذ بقوة في نصرة المظلوم والضرب على يد الظالم وذلك يتجلى في الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني، فإن موسى لم يلبث أن أغاث من استغاث به فوكز القبطي فقضى عليه، إقامة للعدل وإنصافاً للمظلوم كما طبعه على الرفق بالضعيف والعطف عليه، ومد يد المعونة إليه ويتجلى ذلك منه في قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾[2].

فجمع له بين شدة البطش على الظالمين، وكمال الرفق بالمستضعفين.

---

(١) سورة القصص: الآية (١٤).

(٢) سورة القصص: الآيتان (٢٣ ـ ٢٤).

٥- كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أنه قوى فيه الوعي الديني واستحكمت الصلة بينه وبين ربه. فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان، لذلك فزع إلى ربه، واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى القبطي نحبه من وكزته وأسرع إلى الاستغفار لله تعالى من ذنبه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[(١)].

وفاض قلبه إيماناً بالله فعظمت ثقته وتوكله عليه، لذلك قصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[(٢)].

ولما استبدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذه توجه إلى ربه فسأله من فضله، فأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره، أو يعرض لمن سقى لهما بطلب الأجر.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[(٣)].

وقد استجاب الله دعاءه. وهيأ له بيئة صالحة يحيا فيها حياة طيبة، فقد عرض عليه شعيب لما عرفه عنه من القوة والأمانة أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى له الغنم ثماني حجج وإن أتم عشر سنوات كان ذلك مكرمة منه، فالتزم موسى بذلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من

---

(١) سورة القصص: الآيتان (١٦ ـ ١٧).
(٢) سورة القصص: الآية (٢٢).
(٣) سورة القصص: الآية (٢٤).

رغد العيش، وحياة الملوك أن يكون أجيراً، يأكل ويتزوج من كسب يده، وأشهد ربه على ذلك: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[1].

وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين.

فهذه سلسلة من حياة موسى عليه السلام قبل الرسالة، تضمنت شيئاً مما حباه الله به من العلم والحكمة والمروءة والنجدة ونصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم والعطف على الضعيف وقوة الإيمان بالله والصدق في الالتجاء إليه والتوكل عليه والتواضع مع عزة النفس وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يعد بها الله من اختاره للرسالة وقيادة الأمم.

٦- طلب موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه هاورن، فأرسله معه ليكون عوناً له في الحجاج، وخاف أن يبطش بهما فرعون وجنوده، وأن يقتلوا موسى بالقبطي الذي سبق أن قتله، فقال الله له: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[2].

وجعل لهما سلطاناً من الآيات تقوم به الحجة، وتنخلع به قلوب الجبارين، وتمتلئ بالوهن والضعف، وبذلك يثبت موسى في ميدان الدعوة إلى الله، فبات واثقاً بربه مؤمناً بما يدعو إليه من الهدى والنور، وتجلى في حجاجه صولة الحق، وأحس في نفسه بالعزة والقوة، وبذلك ذل جبروت فرعون وتلاشى عنده تألهه وتعاليه، ولم يعد يملك لموسى من الكيد إلا أن يرعد ويبرق، ويموه ويخدع ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي

(١) سورة القصص: الآية (٢٨).

(٢) سورة طه: الآية (٤٦).

﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[1].

ولم يكن ليأخذ على يديه أحد، ولا هناك من الأسباب الداعية ما يمنعه من أن يبطش بموسى، فإن الدولة دولته، والجنود جنوده، لكنها عناية الله برسوله وما آتاه من آيات، وسلطان قد بهر فرعون، وقطع نياط قلبه، ولم يملك -أيضاً- ملأ فرعون سوى أن يثيروا حفيظته، ويغروه بموسى ومن آمن به: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[2].

أفلا يرى العاقل أن موسى وهو وحيد غريب، وقومه مستعبدون، لم يقف هذا الموقف من فرعون ومَلئِه. والدولة دولتهم إلا وهو مؤيد من ربه، صادق في دعوته، وإن هذا لهو الحق المبين.

٧- جرت سنة الله العادلة أن يفتح بالحق بين رسله ومن آمن بهم من الأمم، ومن سار سيرهم، ويجعلهم خلفاء الأرض، ويهلك من كذّب بهم، وانحرف عن طريقهم، ليكون ذلك من آيات الله التي يفصل بها بين الصادق والكاذب، والحق والباطل، والشريعة العادلة، والقوانين الجائرة.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[3].

---

(١) سورة غافر، الآية (٢٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٢٧).

(٣) سورة غافر، الآية (٥١).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(1).

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾(2).

وهذا هو ما انتهى به أمر موسى وقومه مع فرعون وملئه. ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(3).

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾(4).

فانظر كيف اتحدت وسيلة النجاة للأولياء، والهلاك للأعداء، إنها آية الله الباهرة، لقد أهلك فرعون وجنده بما جعله طريقاً لنجاة موسى وقومه، هذا إلى جانب انفلاق البحر، وتماسك مائه، وخروجه عن طريق السيلان بضربة عصا.

وفي قصص موسى من الآيات سوى ذلك ما يبهر العقول، ويأخذ بمجامع القلوب ولا يدع مجالاً للريب وقولاً لقائل إلا من سفه نفسه وسعى في هلاكها، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(1) سورة القصص: الآية (٣٧).

(2) سورة الأعراف: الآيتان (١٢٨ ـ ١٢٩).

(3) سورة القصص: الآية (٤٠).

(4) سورة الشعراء: الآيات (٦٣ ـ ٦٦).

نماذج من مقاصد
بعض سور القرآن الكريم[1]

هذه سورة من سور القرآن الكريم، ومنها يتضح وحدة السورة والمقصد الذي تدور آيات هذه السورة حوله، من أجل هذا أحببت أن أتكلم عن نماذج من مقاصد بعض السور تكون فاتحة لبعض معرفة مقاصد السور وتكون معينة للإنسان على فهم المحور الذي تدور عليه أحكام السورة واخترت لهذا: أولاً سورة العقود، وثانياً سورة الأحزاب وإن اتسع الوقت فإلى جانب هذا سورة الصافات، أو أخرى أقصر منها.

يذكر الله جل شأنه في مطلع سورة العقود هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[2]

هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى ما تدور حوله الآيات وتدور حوله الأحكام التي تضمنتها هذه السورة، فالله يأمرنا في هذه الآية بالوفاء بالعقود، والعقود المواثيق، والعهود كلها ترجع إلى معنى واحد هو الاتفاق الذي يكون بين العبد وربه، ميثاق يأخذه الله جلَّ شأنه على

---

(١) أصل هذه المادة العلمية محاضرة للشيخ عبد الرزاق، وقد تم تسجيلها في حينها، وقمت بتفريغ أشرطتها مع تصرف يسير.

(٢) سورة المائدة: الآية (١).

عبده، وتكون للاتفاقات التي تجري بين إنسان وآخر في بيع وشراء، في مواعيد، في جهاد وحروب، في أمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر. فكلمة العقود كلمة جامعة عامة شاملة، تشمل كل الاتفاقات التي تكون فيما بين العباد على خير، وتشمل ما أخذه الله جل شأنه على عباده من عهود التكاليف التي كلَّف بها خلقه، وما سيأتي في السورة يدور حول هذا، كل ما في السورة من التفاصيل دائر حول قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1].

وحول مذمة من نقض العقود وجزاء من وفَّى وجزاء من نقض وخان، ويتبين هذا بالتفاصيل الآتية أو بذكر شيء من التفاصيل الآتية بقوله تعالى في الآية الثانية من هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2].

فهذه الآية فيها عقد عهد وميثاق على المسلمين بعد أن تمكنوا في الأرض وصارت لهم دولة، وبعد أن أكمل الله لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ،وصاروا بإمكانهم أن يثأروا لأنفسهم، وأن ينتقموا ممن سبب لهم أذى، يأخذ الله تعالى عليهم أن لا يقابلوا السيئة بالسيئة، وأن لا يعتدوا على القاصدين لبيت الله الحرام إلى غير هذا مما ذكره الله في هذه الآية،

---

(١) سورة المائدة: الآية (١).

(٢) سورة المائدة: الآية (٢).

وخاصة ما تُحدِّث العبدُ به نفسه من أن يثأر لنفسه ممن ارتكب جريمة في شأنه واعتدى عليه في سابق حياته، يبين الله جل شأنه في العهد الذي أخذه على عباده الموحدين أنه لا ينبغي لهم أن يحملوا ماسبق من الكفار من صدهم المسلمين في السنة السادسة من الهجرة عن بيت الله الحرام، ومن موقفهم السيِّئ مع المسلمين سنة الفتح عند دخول مكة، يبيِّن لهم أنه لا ينبغي أن يحملهم ماسبق من أولئكم الكافرين على أن يعتدوا على الكافرين وأن يثأروا لأنفسهم منهم وليجعلوا نعمة الله بإقدارهم لهم على الانتقام من عدوهم، ونعمة الله لهم بتمكينه إياهم من رقاب خصومهم سبباً في شكر نعمة الله جل شأنه على هذا الإقدار بالعفو عن أولئك الذين سبقت منهم السيئات وتقدم منهم الأذى والضرر للمسلمين في صدهم عن بيت الله الحرام، وهذا منتهى العدل الإسلامي وهو تناسي ما سبق من السيئات بعد أن تمكن المسلم من إقامة العدل، فلا يرعى حظ نفسه بل يقف موقفاً يرضي به ربه ويتألف به قلوب من سبقت منهم إساءة له فيقول تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾.

لا تحملكم عداوة قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ثم أمرهم بأن يتعاونوا عموماً على البر والتقوى وحذرهم من أن يتعاونوا على الإثم والعدوان، وحذرهم شديد بأسه وأليم عقابه إن هم نقضوا عهده وخانوا ما أخذه عليهم من هذا التكليف وأمثاله فيشتد بهم بأسه، حذرهم في ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

ثم بيِّن لهم تفصيل أشياء مما حرّم عليهم، واستثنى من هذا أشياء فقال: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى

ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾[1].

فكان هذا تفسيراً لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[2].

فالآية الأولى إجمال وهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[3]، وآية ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾[4]. إلى آخرها

فيهما تفصيل أو بعض التفصيل لما أجمل في الآية الأولى، فهذا من الأدب أو من المقاصد التي اشتملت عليها الآية الأولى من هذه السورة، ثم ذكر سبحانه وتعالى عهداً آخر أخذه على عباده الموحدين من إحكام الوضوء وإحكام الغسل وذكر تفصيل هذا في آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾[5].

ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾[6]

فأوجب عليهم أن يتذكروا مواثيق الله سبحانه التي أخذها عليهم إجمالاً في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.

وتفصيلاً فيما ذكره من تفاصيل القرآن، في هذه السورة وغيرها وما بينته سنة رسول ﷺ.

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣).
(٢) سورة المائدة، الآية (١).
(٣) سورة المائدة، الآية (٢).
(٤) سورة المائدة، الآية (٣).
(٥) سورة المائدة، الآية (٦).
(٦) سورة المائدة، الآية (٧).

ميثاق ثالث ذكره جل شأنه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

فأوجب عليهم سبحانه أن يرعوا العدالة وأن يوفوا بالعهد والميثاق، وأن لا تكون الخصومة متسلطة على نفوسهم تسلطاً يجور بهم عن الجادة ويحملهم على نقض ما أخذه الله عليهم من عهد وميثاق، ولا يجرمنكم شنآن قوم -أي عداوة قوم- على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى، وأنذرهم وحذرهم من نقض هذا العهد والميثاق بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم ذكر العِدَة الطيبة والجزاء الكريم، العِدَة الطيبة لمن وفّى بالعهد والميثاق والوعيد الشديد لمن لم يف بذلك بل خان ونقض فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[2].

هذه منزلة أخرى، أو مرحلة أخرى ثالثة في تفصيل قوله تعالى في مطلع السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾.

ميثاق رابع ،فيه تفصيل لمطلع السورة يذكّر الله عباده نعمته عليهم برد كيد خصومهم، ومكر أعدائهم في محاولة سفك دم رسول الله ﷺ وإيذاء المسلمين في شخص رسول الله ﷺ، فكف أيدي هؤلاء جميعاً وأبطل كيدهم، وأحبط سعيهم، وشردهم عن بلادهم فقال جل شأنه:

(١) سورة المائدة: الآية (٨).

(٢) سورة المائدة: الآيتان (٩ ـ ١٠).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

بنو النضير دبروا لرسول الله ﷺ تدبيراً سيّئاً وذلك حينما جاء إليهم يطلب منهم شيئاً من المال يستعين به في بعض المصالح فوعدوه خيراً وهم يضمرون الفتك به وأجلسوه تحت جدار وصعد بعضهم فوق البيت ليرمي عليه حجراً يقضي به عليه، فأوحى الله إليه أن يقوم فقام وقد أرسل بعض أصحابه إلى المدينة فذهب إلى جهة المدينة وبلغ أصحابه وجمعوا جموعهم، وجاء إلى بني النضير محارباً لهم إستجابة لأمر الله جل شأنه ثم رضوا بأن يخرجوا من ديارهم فأذن لهم في ذلك بأمر من الله جل شأنه وأذن لهم في أن يأخذوا من أموالهم ما حملت حمولاتهم وفي ذلك أنزل الله سورة الحشر ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾. هم بنو النضير ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوٓا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَـٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾(٢).

هذا وما سواه من آيات سورة الحشر فيه تفصيل لما ذكر الله في هذه الآية التي أخذ الله فيها العهد والميثاق على المؤمنين أن لايعتدوا بل عليهم أن يلزموا العدالة فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾(٣).

---

(١) سورة المائدة، الآية (١١).

(٢) سورة الحشر، الآية (٢).

(٣) سورة المائدة، الآية (١٣).

يعني بسفك دم رسول الله ﷺ بهذا التدبير الذي دبره بنو النضير، واليهود كما هو مشهور عند العالم لا عند المسلمين فقط هم سوسة تنخر في عظام الأمم فهم في كل دولة من الأمم يسعون فساداً في الأرض ويدبرون التدبير السيِّئ ويمكرون المكر السيِّئ ويعيشون كالنباتات الطفيلية في سائر الدول، ومن تدبيرهم السيِّيء ما دبروه من هذا الحادث لرسول الله ﷺ رغبة منهم في القضاء عليه ثم بدا الله جلَّ شأنه بدءاً جديداً، وذكر لنا لوناً آخر من العهود والمواثيق ليست عهوداً أخذها على المسلمين كالعهود التي مضى تفصيلها بل هذه عهود أخذت على أهل الكتاب من اليهود والنصارى وعلى أمثالهم فلم يكن منهم إلا التبرمُ لها والتنكر لها ونقضها شر نقض، فنزل بهم بأس الله وعذابه فهذا مما يتصل بمبدأ السورة أولاً، يتصل بها من جهة أنه نقض للعهود والمواثيق نقضاً أفسدوا به الأرض واستوجبوا به مقت الله وغضبه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(1).

فالآية في العهود والمواثيق التي هي في الآية الأولى ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

وقال الله جل شأنه: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

هذا هو العهد ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾(2).

أي عظمتموهم وأيدتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

---

(1) سورة المائدة: الآية (١٢).

(2) سورة المائدة: الآية (١٢).

هذه العِدَة الجميلة التي وعدها من وفّى بهذا العهد الذي فصّله في الجملة السابقة، ثم هدد وأنذر مَنْ نقض العهد والميثاق فقال: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

وقد نقض هؤلاء العهد والميثاق فأصابهم الله شر إصابة وقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[2].

وهذا شأن السيئات وهذه هي عدالة الله جل شأنه مَنْ كسب سيئة نُكت في قلبه نكتة سوداء وبقدر تلك السيئة، فإذا ما تكاثرت منه السيئات طبع الله على قلبه وجعل عليه الران حتى يصير قلبه متبلداً أو كالحجر الصلب لا يتأثر بموعظة ولا يعتبر بعبرة ولا تنفذ إليه نصيحة، بل يكون منه الصدود والإعراض عما يوجّه إليه من آيات القرآن ومن الحجج والبراهين والمواعظ والعبر، فلا أدلة تُناجي بها العقول، ولا مواعظ وعبر تؤثر في عواطفه ووجدانه وذلكم لما طُبع على قلبه وكان عليه من الران والحجاب الذي يحول بينه وبين الدلائل والبراهين فلا ينصاع لها والذي يحول بين قلبه، وبين وجدانه وعاطفته، وبين المواعظ والعبر حيث قد مسخ الله فطرته فجعل قلبه قاسياً يقول تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[3].

ثم ذكر الله جل شأنه الصنف الثاني بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾[4]. أيضاً أخذ على الطائفة

(١) سورة المائدة: الآية (١٢).
(٢) سورة المائدة: الآية (١٣).
(٣) سورة المائدة: الآية (١٣).
(٤) سورة المائدة: الآية (١٤).

الأخرى، طائفة النصارى عهداً وميثاقاً ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ نقضوا أيضاً العهد والميثاق، القصد أن الله ذكر في هذه الآيات أنه أخذ عهوداً ومواثيق على اليهود والنصارى بتكاليف كلفهم بها فوقفوا منها موقف الخائن، وقفوا منها موقف الغادر المستهتر الذي لا يبالي لعهد الله وميثاقه بالاً ولايلفت له نظر وليس لله وقار في قلوبهم فأصابهم الله باللعنة وقساوة القلوب، وأصابهم بنسيانهم الكثير من حظوظهم، ثم ذكر الله جل شأنه أنه بيَّن لهم ما أخفوا من التكاليف وما حرَّفوا من نصوص كتبهم التي أنزلها الله عليهم، أنزلها الله على موسى وعيسى وعلى داود بيَّن أنه أرسل إليهم رسولاً فجاءهم هذا الرسول وبيَّن ما كانوا يخفون من كتاب الله فإنهم كانوا يجزأونه أجزاء فيخفون بعضه ويبدون بعضه تبعاً للهوى، فما رأوه في مصلحتهم ومتفقاً مع هواهم أعلنوه ونشروه بين الأميين والرعية ﴿العوام﴾ وما كان مخالفاً لأغراضهم وأهوائهم أخفوه، يقول تعالى في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1].

إلى آخر الآيات فذكر جل شأنه أن هذا الذي جاءهم على يد رسول الله محمد ﷺ من العهود والمواثيق التي تكشف أحوالهم فيجب عليهم حينئذ أن يعتبروا وأن يخشوا الفضيحة من كشف الوحي الذي ينزل على رسول الله ﷺ لما دبروه ولما خانوا فيه، كان عليهم أن يرتدعوا وأن يعملوا بالحق وأن يتبعوا رضوان الله جل شأنه ويسيروا على

---

(١) سورة المائدة، الآيتان (١٥ ـ ١٦).

الصراط المستقيم لكنهم أبوا إلا اللجاج والعناد وإلا نقض العهد والميثاق فنقضوا عهد الله في وحدانيته وفي كماله وانتقصوه بنسبة الولد له كما قال الله عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

ورد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

عيسى لا يملك شيئاً من الوجود، لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ومريم أُمّه لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، عيسى يحتاج إلى الطعام والشراب وإلى أن يقضي من شأنه ويتخلص من فضلات طعامه، ومريم أيضا صدِّيقة إنسانة تأكل وتشرب وتحتاج إلى أن تتخلص من الفضلات، فضلات الطعام الذي تناولته فيقول تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾.

من يملك لعيسى ولأُمّه التخلص من مقت الله وغضبه إذا أراد أن يهلكهما وأن يقضي عليهما في هذه الحياة فكيف يصلحان لأن يكونا آلهةً مع الله أو من دون الله ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

شيئاً ما قليلاً أو كثيراً ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

ويبيِّن أن ملك السماوات والأرض إليه سبحانه فإنه يخلق ما يشاء،فمن يخلق ما يشاء كيف يحتاج إلى ولد يولد منه وله مَنْ في السماوات والأرض، وكيف يتخذ صاحبة وكيف يكون له منها الولد ﴿لَّوْ

---

(١) سورة المائدة، الآية (١٧).

أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾.

أي ولداً وزوجة ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾(٢).

القصد أن نسبة النصارى الولد إلى الله في قولهم عيسى ابن الله، أو ولد الله، والزوجة لله في قولهم إنه اتخذ مريم زوجة له هذا من نقض العهد والميثاق في أصل من أصول الدين وهو أصل التوحيد وإثبات الكمال لله وحده وتنزيه الله سبحانه عن الصاحبة والولد، ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾(٣).

فهذا نوع من أنواع نقض العهود والمواثيق وقد ردَّ الله عليهم إجمالياً وتفاصيل القرآن فيها تفاصيل الردود لمثل هذا.

الله سبحانه وتعالى ذكر نقضاً أيضاً للعهود عن اليهود والنصارى فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾(٤).

فنسبوا إليه أنفسهم على أنهم أبناء الله ويقول اليهود: نحن أبناء الله، ويقول النصارى: نحن أبناء الله هذا أكثر من دعواهم بنوة عيسى لله، جعلوا كل النصارى على كثرتهم وكل اليهود على كثرتهم أبناءً لله وزادوا أن قالوا وأحباء لله فهذا من نقضهم للعهود والمواثيق فالله

---

(١) سورة الزمر: الآية (٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان (١٧ ـ ١٨).

(٣) سورة الجن: الآية (٣).

(٤) سورة المائدة: الآية (١٨).

تعالى منزه عن الولد كما تقدم في الآية ذكراً أو أنثى فهو سبحانه منزه عن الولد على الإطلاق ثم ميزان محبة الله لعباده الاستقامة على الجادة والطريق السوي واليهود والنصارى قد انحرفوا عن الجادة وغيَّروا وبدَّلوا فيما أنزل عليهم من الكتب السماوية فكيف يدَّعون زوراً وبهتاناً أنهم أحباء الله سبحانه وتعالى ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾.

إلى آخر ما ذكرنا من الآيات، هذا أيضاً من نقض العهود والمواثيق التي تتضمن أصلها ما أمر الله به من الوفاء في الآية الأولى من مطلع السورة، بعد هذا ذكر الله جل شأنه شيئاً من جنس ما مضى يقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

رسول جاء لإسقاط المعاذير ولإقامة الحجة حتى لا يقولوا ماجاءنا بشير ونذير حتى نتعرف منه الحق فنحن معذورون، يقول جاءكم الرسول على فترة من الرُّسل فهذا تكذيب للعهود والمواثيق التي أمر الله بالوفاء بها في مطلع السورة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾.

ثم ذكر جلَّ شأنه أن بني إسرائيل مهما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون وملائه وما أنعم الله عليهم من إرسال موسى إليهم وإنجائهم من الضلالة، ومع ما أنعم الله عليهم من إهلاك خصومهم، نجاتهم نعمة، وإهلاك خصومهم نعمة أخرى، فإن الإنسان إذا نجى من خصمه، وخصمه لا يزال حياً فتوسوس له نفسه بأنه سيأتي عليه يوم من الأيام يفتح له الطريق إلى التسلط عليه وإلى التمكن منه فيسومه

(١) سورة المائدة، الآية (١٩).

سوء العذاب في مستقبل حياته كما سامه من قبل سوء العذاب، فبيَّن الله جل شأنه أنه أنعم على اليهود، أنعم على بني إسرائيل الذين هم قوم موسى لأنه جعلهم أئمة وأنه مكنهم في الأرض وأنه جعلهم ملوكاً بعد أن أنجاهم من عدوهم وخصمهم، بيَّن سبحانه وتعالى أنهم لما أمرهم موسى أن يدخلوا البيت المقدس، وهذا أمر من الله وعهد وميثاق أخذه على قوم موسى فأمر موسى أن يدخل قومه البيت المقدس وأن يجعلوه وطناً لهم، وأن يقيموا دولة فتية لهم في بيت المقدس، يعملون فيها بشرع الله جل شأنه فلم يكن من هؤلاء إلا أن تنكروا لموسى وتبرموا بأمره لهم بالجهاد ليدخلوا بيت المقدس، وجاءهم رجلان قد عرفا أخبار سكان بيت المقدس من الجبارين جاءوا إلى قوم موسى وقالا لقوم موسى لو أنكم تجمعتم وتعاونتم وتآزرتم ثم هجمتم هجمة رجل واحد على أولئكم الجبارين لفتح الله عليكم بيت المقدس ومكنكم من رقاب هؤلاء ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾(١).

فأبوا أيضا بالرغم من هذه البشارة المباركة فموسى قال، وهارون قال، وبعض الجماعة من بني إسرائيل قالوا، فانتهى أمر بني إسرائيل إلى أن يقولوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾(٢).

وماذا يصنع موسى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٣).

(١) سورة المائدة: الآية (٢٣).
(٢) سورة المائدة: الآية (٢٤).
(٣) سورة المائدة: الآية (٢٥).

هذا شأن بني إسرائيل مع موسى أرادوا أن يتحكموا فيه ويقولون: نريد أكل طيب فجاءهم بالمن والسلوى، فقالوا: هذا لا يصلح لنا، نريد عدساً وبصلاً وثوماً، قال هذا أزين لكم أتتبدلون الطيب إلى الخبيث، قالوا: ما نريد إلا هذا، قال: اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم، ثم يضرب الحجر فتخرج منه العيون على عدد الأسباط، إثنا عشر سبطاً، كل سبط له عين حتى لا تتزاحم كل جماعة متقاربة تشرب من العين حتى تتعاطف فيما بينها ثم بعد ذلك يتنكرون لموسى ،لذلك ابتلى الله هؤلاء على نقضهم العهد والميثاق بأن شردهم أربعين سنة يتيهون في الأرض قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾(1).

وليست محرَّمة عليهم أربعين سنة فقط، بل إلى جانب ذلك عدم الاستقرار يتيهون في الأرض. القصد أن هذه القصة من عند قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(2).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾(3).

يذكرهم بفضل الله عليهم حتى إذا ذكروا هذا انبعثت نفوسهم بالوفاء لأوامره، ولكن قلوبهم صلدة لم تتأثر ولم تتذكر فضل الله عليها فلذلك تنكروا لموسى عليه السلام، هذه القصة إلى آية (التيه) التي

---

(1) سورة المائدة: الآية (٢٦).
(2) سورة المائدة: الآية (١٩).
(3) سورة المائدة: الآيتان (٢٠، ٢١).

أمضاها الله فيهم وعذبهم بعذابها هذه كلها فيها عهد أخذه الله على اليهود عن طريق موسى ونقض للعهد فهي تفسير وتفصيل جزئي لقوله تعالى في مطلع السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.

نوع آخر.

أولاد آدم من صلبه كانوا على الفطرة ولم يداخلهم شر، وقتل النفس معروفة حرمته عند أولاد آدم وعند آدم عليه السلام وجميعهم يعرفون شريعة الله في عصمة الدم ووجوب حفظ النفوس، ومع ذلك نقض أحد الأخوين هذا العهد فقتل أخاه، هذا من نقض العهد والميثاق باعتداء أخ على أخيه وسفك دمه، فهذا نقض للعهد والميثاق راجع إلى الآية في مطلع السورة.

والله أعلم وصلى الله على رسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بناء البيت الحرام
وجعله مثابةً للنَّاس وأمناً

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)].

أمر الله جلَّ شأنه خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يبني الكعبة المشرفة في البلد الأمين لتكون قبلة للناس، يستقبلونها في صلاتهم ودعائهم ويحجّون إليها ويطوفون حولها، وأعلن المكان الذي يقيم بناءها فيه بما شاء من الآمارات والعلامات، فذهب إبراهيم من الشام إلى مكة المكرمة حيث يقيم ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بولده والولد بوالده، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربُّك، قال: وتعينني قال: وأُعينك، قال: فإنَّ الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أَكَمةٍ مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك بدأ يرفعان القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء وضعف إبراهيم جاءه إسماعيل بحجر فوضعه له ليقوم عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة[(٢)]، وهما يقولان:

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٦).

(٢) حديث بناء الكعبة مطولًا في البخاري (الفتح ٣٣٦٤/٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(١)].

فاستجاب الله دعاءهما وأراهما مناسك الحج، وأمر إبراهيم أن يُؤذِّن في الناس بالحج ليفدوا إلى حج بيت الله الحرام رجالاً ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[(٢)].

وكما عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ببناء البيت أمرهما أن يُطهِّراه مِن كلِّ رجس معنوي وحِسِّي، يبنياه خالصاً لوجهه الكريم ويُجنِّباه الأصنام وعبادتها والأزلام والاستقسام بها وكلّ شائبة من شوائب الشرك بالله، ويصوناه من الأوساخ والأقذار، ومن غشيان الكفار ومن الضجيج ورفع الأصوات وكل ما تأباه النفوس الطاهرة والفطرةُ السليمة، تعظيماً لحرمات الله، وليكون أدعى لإخلاص الطائفين به، والعاكفين فيه والمُصلِّين إليه، وأجمع لقلوبهم على عبادة الله وحده ولجئهم إليه دون سواه.

اتفق العلماء على أن الكعبة شرَّفها الله أوّلَ بيت وُضع للناس في الأرض للعبادة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[(٣)].

---

(١) سورة البقرة: الآيات (١٢٧ ـ ١٢٩).

(٢) سورة الحج: الآيتان (٢٧، ٢٨).

(٣) سورة آل عمران: الآية (٩٦).

واختلفوا في أول من بناه، فذكر ابن كثير عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين أن أوَّل مَنْ بناه الملائكة قبل آدم، وروي عن عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وسعيد بن المسيب أن آدم بناه من خمسة أجبل ثم عدَّها، ثم حكم بأنَّ كُلّاً من الأثرين غريب، ورُوي عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة ووهب بن منبه أن أوَّلَ من بناه شيث «ثم قال: وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يُصدَّق ولا يُكَذَّب، ولا يعتمد عليها بمجردها، وأما إذا صح الحديث في ذلك فعلى العين والرأس»..أهـ.

والحق أنَّ هذا الاختلاف مما لا تنبني عليه فائدة في شعائر الحج ولا في أحكام مناسك الحج- فلا ينبغي قطع الوقت وشغل البال في زيادة الاشتغال به، وإنمَّا ينبغي الوقوف عند ظاهر ما ثبت في الكتاب والسُّنة مِن أنَّ أوَّل مَنْ بناه ورفع قواعده بإذن الله إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

جعل الله سبحانه وتعالى للبيت الحرام مزايا كثيرةً فجعله مباركاً كثير الخير في الدِّين والدنيا، فيضاعف ثواب الأعمال الصالحات فيه والقصد إليه لأداء النسك أو التعبد به، وتعزف النفوس الطيبة وهي به عن الدنايا والفواحش أكثر ممَّا لو كانت في غيره، مهابة له وتعظيماً لحرمانه وخُصَّ بالوفود إليه للحج والعمرة واستجاب دعوة خليله إبراهيم فيه فجعل أفئدةً من الناس تهوى إلى ذريته في الحرم ورزقهم من الثمرات وقضى أن تُجبى إليه ثمرات كلِّ شيء رزقاً من لدنه، وفضلاً منه ورحمةً بسكان بلده الحرام ومن يفد إليهم تعظيماً للبيت، وبارك لهم في طعامهم وشرابهم وبعث فيهم رسولاً منهم إلى الناس كافة وختم به النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم»، وجعل له في البلد الحرام آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً، فمن دخله معظِّماً له، وقَصَده مُحتسباً وأدّى المناسك كما شرعت كان آمناً من عذاب الله.

لقوله ﷺ: «مَنْ حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[1]، وقوله: «الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة»[2].

ومَنْ دخله كان آمناً من التشفي والانتقام، كما كان معهوداً عند العرب فيمن أناب إلى الحرم، مِن تركها الحق يكون لها عليه، فقد كان يلقى الرجل فيه مَن له عنده ثأر فلا يتعرض له بالقتل والقتال اللّهم إلا في القصاص ونحوه وفيما لو قاتل في الحرم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾[3]، بل حرّم الصيد فيه وأن تُقطع أشجاره، وأن يختلي خلاه، إلا ما استثناه الرسول ﷺ.

وفي بيان مزايا هذا البيت وأنه بُني للناس جميعاً للعبادة فيه، واستقباله في الصلاة والحج إليه ،وأنَّ الذي بناه إبراهيم الخليل بأمر الله، ردٌّ على اليهود والنصارى. مع أنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويعلمون أنه إنما بَنى هذا البيت للحجِّ إليه والاعتكاف فيه والصلاة عنده وإليه، ثم لا يفعلون شيئاً من ذلك.

فكيف يزعمون أنهم أولى بإبراهيم وأنهم على مِلّته ولا يفعلون ما شرع الله له، وبهذا تعرف المناسبة بين هاتين الآيتين وقوله تعالى قبلها:

---

(١) رواه البخاري (الفتح ١٨١٩/٤) ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (الفتح ١٧٧٣/٣) ومسلم (١٧٧٣/٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة البقرة: الآية (١٩١).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] فكذبهم فى زعمهم أنهم على ملته ووبخهم على صَدِّهم وإعراضهم عن معالم شريعته من التوحيد، وتعظيم حرمات الله وشعائر بيته الحرام، وبيَّن ما بين قولهم وعملهم من اختلاف واضح وتناقض فاضح.

(١) سورة آل عمران: الآيات (٦٥ ـ ٦٨).

لنا جلساء ما نملُ حديثهم ألبّاءُ مأمونون غيباً ومشهداً
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى وعقلاً وتأديباً ورأياً مسددا
بلا فتنة تخشى ولا سوء عشرةٍ ولا نتقي منهم لساناً ولا يدا[1]

وقال ابن الجوزي:

ومع ما في الكتب من المنافع العميمة، والمفاخر العظيمة، فهي أكرم مال، وأنفس جمال، والكتاب آمن جليس وآسر أنيس، وأسلم نديم وأفصح عليم[2].

لقد كان السلف الصالح -رحمهم الله ورضي عنهم- يحرصون على إدامة النظر في الكتب لأنها خزائن العلم، وكان الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- من هذا الطراز الموفق من العلماء، موسوعي المعرفة، له نفس طلعة لا تمل من القراءة ولا تكل من المعرفة، ربّى نفسه بنفسه، وجمع من العلوم فأوعى، ولم تكن له مكتبة ضخمة كما عند غيره، ولكنه جمع نفائس المصادر والمراجع العلمية التي لا يستغني عنها عالم فضلاً عن طالب علم، وكان -رحمه الله- حَسَن الاختيار للكتاب، فلا يقتني من الكتب إلا ما كان مفيداً ونافعاً، ولقد كانت له عناية خاصة بالكتب السلفية التي تُعنى بأمر المعتقد وتوضح عقيدة أهل السنة والجماعة، ولم يكن جمعه لأمهات الكتب والمراجع العلمية على سبيل المباهاة والمفاخرة كما هو الحاصل عند كثير ممن ينتسبون إلى العلم اليوم. بل كان جمعه لها لرغبة أكيدة وغاية نبيلة هي الوقوف على مصادر العلم الثرة، ومراجع المعرفة المختلفة وإرواء ظمأه

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/٢٠٢).
(٢) صيد الخاطر (٤٤٠ ـ ٤٤١).

منها حتى ينفع نفسه أولاً، وينتفع الناس بعلمه ثانياً.

وإني لأعجب للشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- من كثرة إهدائه للكتب من مكتبته، وظنّي به أنه كان يقرأ كتبه التي تُهدى إليه أو يقوم بشرائها قراءة فهم وتدبر حتى إذا انتهى من قراءتها أهداها إلى أحد طلابه ومحبيه،وهذا إن دلَّ فإنما يدل على متانة علمه وقوة حافظته،وقدرته الهائلة على الاستيعاب، كما يدل هذا التصرف النبيل على سخاء نفسه وصفاء سريرته، وحبه للبذل والعطاء،ومن مآثره الأثيرة عليَّ أنه أهداني كتاب الحافظ ابن رجب الحنبلي «شرح علل الترمذي»، في مجلدين، فجزاه الله خير الجزاء وتغمده بواسع رحمته.

إن من يتأمل أحوال الناس اليوم بصفة عامة، وطلبة العلم بصفة خاصة يجد العجب العجاب، فكثير من هؤلاء خزائنهم مترعة بنفائس المخطوطات،ورفوفهم مثقلة بأنواع المعارف والعلوم، وهم مع ذلك-إلا القليل منهم- لا يقرأون كتبهم، ولا يفتشون خزائنهم، وشعارهم ودثارهم، جمعت كذا واقتنيت كذا.

وإذا سألته عن علمه ... قال علمي يا خليلي في سفط
في كراريس جياد أحكمت ... وبخط أيّ خط أيَّ خط
وإذا سألته عن مشكل ... حك لحييه جميعاً وامتخط[1]

وقال بعضهم:

إذا لم تكن حافظاً واعياً ... فجمعك للكتب لا ينفع
وتحضر بالجهل في موضع ... وعلمك في الكتب مستودع

---

(١) انظر الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (١/١٢٤).

ومــن كــان في عــمــره هــكــذا يــكــن دهـره الـقـهـقـري يـرجـع[1]

وقال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي- رحمه الله:

ببيت الشيخ كتب قد شراها وجمَّعـهـا ولـكـن مـا قـراهـا
وطـابـت نـفـسـه مـنـهـا بـسـلـوى إذا فـتـح المـكـان بـأن يـراهـا
ويـنـظـر في قـطـائـعـهـا ويـمـضي وهـل تـدري الـقـطـائـع مـا وراهـا
فـوا أسـفـى عـلـى الأيـام ضـاعـت هـبـاءً وقـضـى عـلـى نـفـس كـراهـا
وقـد قـنـعـت مـن الـدنـيـا بـدون وبـاعـتـهـا بـبـخـس في شـراهـا[2]

عمل يومه وليلته

يذكر أبناؤه أن يوم الشيخ كان يبدأ مع آذان الفجر حيث يُلبِّي نداء الله متوجهاً إلى المسجد القريب من بيته سيراً على الأقدام مع أبنائه، وكانت الصلاة في المسجد وحضور الجماعة أحبُّ شيء إلى قلبه، ومن توفيق الله لفضيلته أنه حافظ على أداء الصلوات الخمس كلها في المسجد حتى آخر آيام حياته، تغمده الله بواسع رحمته.

وبعد أن يفرغ من آداء الصلاة يعود إلى بيته، وفي غرفته الخاصة به والتي أُعِدَّتْ للقراءة والاطلاع وإعداد الفتاوى والبحوث، في هذه الغرفة يُقبل على الله تعالى بكليته، قارئاً للقرآن متدبراً آياته، والقرآن معجزة الله الخالدة، وحُجته الدامغة، وهو عمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا سعادة إلا به.

---

(١) انظر المرجع السابق (١٢٦/١).

(٢) انظر حافظ بن أحمد الحكمي، حياته ومنهجه في تقرير العقيدة ونشرها في منطقة الجنوب ص٧٨.

ولذا فإن الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- كان يحرص كلَّ الحرص على أن يخلو بكتاب ربه في بضع ساعات من ليلٍ أو نهار، تالياً له وحافظاً وعاملاً بأحكامه قدر استطاعته. ثم يذهب إلى عمله مبكراً، وكان -رحمه الله- منظَّماً في عمله، محافظاً على وقته، أميناً في مهنته، يحرص كل الحرص على استثمار وقته فيما يعود بالنفع على المسلمين، وكان يقضي جُلَّ وقته في عمله بالرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء في مراجعة المستفتين، ويستمر عمل فضيلته الدؤوب حتى حلول موعد آذان الظهر حيث يذهب للصلاة في المسجد القريب منه،ثم يعود إلى عمله فيخص ما بقي من الوقت في قراءة المعاملات والاستفتاءات الرسمية، واستقبال بعض الزائرين الذين يقصدون فضيلته للسلام عليه -رحمه الله- وبعد انتهاء العمل يعود الشيخ إلى بيته ليتناول طعام غدائه، ثم يأخذ قسطاً من الراحة قبل صلاة العصر.

وبعد صلاة العصر- يقول ولده الأكبر(١): كان يجلس والدي -رحمه الله- في كثير من الأحيان بعد صلاة العصر في المنزل يقرأ ويطالع، وينظر في الفتاوى والبحوث العلمية. أما بعد صلاة المغرب فيستقبل طلبة العلم والزوار إلى صلاة العشاء،حيث يؤدي الصلاة جماعة ثم يدخل غرفته الخاصة به للقراءة والاطلاع ومن ثمّ الراحة بعد ذلك.

---

(١) الأستاذ محمد نبيل المراقب المالي للإدارات المالية وإدارة شؤون الموظفين بالخطوط السعودية.

المبحث العاشر

تعليقاته القيمة ونقده الهادف البنَّاء

لقد أشرت سابقاً إلى أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- كان مشرق الأسلوب محرر العبارة تتسم كلماته بالجزالة ،وألفاظه بالأصالة، لا لذَّة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه،ولعل من نافلة القول ومكرور الكلام أن (المترجم له) عُرف بدقة فهمه وأمانته العلمية، واستيعابه الواسع لجوانب المباحث المطروحة، ومن ثمَّ كان -رحمه الله- نقاداً، وصيرفياً محنكاً، يُميِّز بين صحيح الكلام وسقيمه، وجيده ورديئه، يتناول الموضوع بالتحليل والشرح والتمييز والحكم، ويعلق على فقراته بتعليقات موجزة قليلة المبنى غزيرة المعنى، محققة للمقصود، وقد قضى حياته في تأصيل المسائل العلمية، وتحليل فروعها، وتحرير مواطن الخلاف فيها فحياته كلها عمل وجد ومثابرة، فلا تراه إلا معلقاً على كتاب أو مصححاً لأثر أو مقوماً لمؤِّلف، أو مصوِّباً لنتاج علمي، أو مفنداً لحادثة أو راداً لشبهة، كل ذلك في أدب جم وخُلُق محمود، ونقد بناء إلى جانب ذلك كان له -رحمه الله- جولات نقدية في دروسه لا يدركها إلا الصفوة من تلاميذه، وكان إذا نقد أحداً أو موقفاً أجمل في الكلام.

وأما تعليقاته فتمتاز بوضوح الكلام وقلته، ودقة معانيه، والرغبة في الوصول إلى الحق من أقصر طرقه، مع البعد عن التكلف المذموم، والإسهاب المخل ،ومن أنفس تعليقاته، تعليقه على كتاب «الإحكام في

أصول الأحكام» للآمدي، وتعليقاته على «تفسير الجلالين»، و«العقيدة الواسطية»، و«الحموية» و«الرسالة التدمرية»، وتعليقاته على كتاب «الاعتقاد» للبيهقي، و«الكافي» لابن عبد البر، و«الرسالة التبوكية» لابن القيِّم، وغيرها من الرسائل والكتب والبحوث مما يصعب حصره واستقصاؤه.

والحق يقال: أن هذا الرجل ظل طيلة حياته داعياً إلى الخير، صادق العزم، حسن التوجه، الحكمة ضالته، والحق وجهته، والصبر معوَّله، وإنكار الذات صفته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دأبه.

وفي الصفحات التالية صور مشرقة، ونماذج كثيرة من تعليقاته القيِّمة ونقده الهادف البنَّاء الذي كان يتسم بالموضوعية والجدية بعيداً عن الإثارة والغلو. ولاشك أن هذه النماذج النقدية والتعليقات القيمة تدل دلالة قاطعة على أنه كان - رحمه الله- مثالاً حياً لما كان عليه السلف الصالح من تُقىً وإخلاصٍ وتجردٍ وإيثارٍ للحق ونفرة من الباطل، فعاش -رحمه الله- محمود السيرة، مرضي الفعال عزيز النفس قوي الإيمان، لا يخشى في ذات الله لومة لائم وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»[(١)].

ومن هذه النماذج النقدية النيِّرة نقده لكتاب: «تأملات وكشوف حديثة في القرآن الكريم» وقد نقد الشيخ هذه الكشوف الزائفة وبيَّن عوارها، وجلَّى ضلالها فقال:

-أولاً: ذكر المؤلف تفسيراً عن ابن كثير لسورة الكوثر وقال: هذا

(١) جزء من حديث رواه الترمذي في سننه (٢٤١٤) وصححه الألباني. وانظر صحيح الجامع (٦٠٩٧).

هو التفسير المعروف لهذه السورة، ثم بدأ يفسرها برأيه تفسيراً منكراً مدخولاً لا يمت إلى الموضوع بصلة ولم يبيِّن ما فيها من أحكام، ولم يحم حول المقصود منها من أمر الله سبحانه ورسوله ﷺ بإخلاص العبادة له صلاةً ونحراً شكراً لربه على عظيم عطائه ووفاءً بحق إنعامه.

- ثانياً: تكلَّف تكلُّفاً كريهاً في محاولته إظهار الترابط بين آيات السورة الواحدة بما اكتشفه من فكرة واحدة تسري في آياتها جميعاً، بل أساء إلى نفسه وإلى كتاب الله تعالى والمسلمين ويا ليته ما اكتشف تلك الفكرة فإنها محض وهم وخيال، ومجرد قراءتها أو سماعها يُغني عن نقدها وينادي بسوئها وفسادها.

- ثالثاً: ذكر أمثلة تطبيقية في سورة من القرآن لفكرته التي اكتشفها فكشف بذلك عن وهم باطل وخيال كاذب وإلحاد في آيات الله يتبيَّن ذلك مما يأتي في الفقرة الرابعة.

- رابعاً: جعل النهر المفهوم من كلمة الكوثر- فكرةً واحدة محوراً يدور حوله جُمَل «إنا أعطيناك الكوثر» وكلماتها.

فالصلاة كنهر يغتسل فيه الإنسان فيَطَّهر مِن ذنوبه، ويسبقها وضوء وهو من النهر، وتنهى عن الفحشاء والمنكر وهذا من الطهارة التي تكون بالنهر، والنهر في النحر هو دم الأضحية إذا نحرت فسال دمها كالنهر وجرى متدفِّقاً في الجسم فأشبه النهر العادي في صفات الثقل والتغذية والتطهير، ويتجلى هذا في تجميعه لسموم الجسم ثم طرحها في الكليتين للتخلص منها عن طريق الجهاز البولي، وهناك طهارة أخرى وهي تزكية النفس من الشح بدفع ثمن الأضحية.

وأما النهر فيتجلَّى في استمرار الذكرى العطرة للنبي ﷺ على مر

الزمان وفي بتر ذكرى خصومه ومبغضيه مدى الدهر.

ثم رتب المعنى الإجمالي لسورة الكوثر على ذلك فقال: «وهكذا تتجلى فكرة النهر في جميع أجزاء السورة مما يدل على أن هناك هندسة إلهية خاصة لهذه السورة الكريمة وضعت لتفيد معنى إجماليًا رائعاً متكاملاً متناسقاً :فكأن الله تعالى يخاطب رسله ويخاطب كلَّ مسلم من أتباعه قائلاً: «طهر نفسك في نهر من أنهار الدنيا تنل نهرين خالدين لا ينقطعان أبدا: اغتسل في نهر الصلاة مطهراً جسمك ونفسك، وفي نهر الأضاحي مطهراً روحك من أدران الشح تنل نهر الذكر المرفع الدائم في الدنيا والآخرة، كما تنال نهر الكوثر الخالد العظيم في الآخرة»أ.هـ.

- أقول:

- أولاً: إن القرآن نزل بلغة العرب وله مقاصد سامية وأهداف عالية، فيجب أن يفسَّر باللغة التي بها نزل، وأن يراعي في تفسيره مقاصده وأهدافه، وما كتبه مؤلِّف الرسالة أقول لا يتفق مع لغة العرب وأساليبها، ولا يمت إلى مقاصد القرآن وأُسس التشريع بصلة، بل هو تحريف للكلم عن مواضعه وإلحاد في آيات الله اتباعاً للهوى والظنون الكاذبة فليكف عن التأليف وليتعلم اللغة العربية وأصول الإسلام أولاً حتى إذا بلغ أشده في العلم أخذ في تمرين نفسه على التأليف فيما يقواه.

- ثانياً: زعم أن فكرة النهر تدل على هندسة خاصة بهذه السورة، أقول: هل يفهم من الخرط والخوض هندسة أو حُسن تنسيق، وهل يجني من الشوك العنب فيالله العجب العجاب.

- خامساً: سلك ذلك المسلك في سورة العصر، فذكر تفسيراً لها عن ابن كثير رحمه الله تعالى، وقال هذا هو التفسير المألوف للسورة،

وكأنه لم يرق في نظره ولم يُجز قبولاً، ولذا بدأ يفسِّرها بما زعمه متناسقاً تناسقاً عجيباً، فزعم أنَّ العصر وهو الزمان قد سرى في آيات السورة وكلماتها، فإنَّ الإنسان قد سرى فيه الزمان حتى إنه لا يمكن أن ينفك عنه في جميع أطواره مِن حَمْل أُمِّه به إلى مماته، فهو الإطار الذي يحدد بدايته ونهايته، بل ليس الإنسان إلا عمره وسرى الزمان أيضاً في الخسارة والربح، فكل منهما لا ينفك عن الزمان عملاً ناجحاً لتحصيل الكسب، أو فاشلاً للوقوع في الخسارة. أو حساباً لكل منهما، والمراد بالخسارة ما قبل الاستثناء -إلا- وبالربح ما بعد -إلا- وسرى الزمان في الإيمان، فإنه كالشجرة تبدأ بذرة ثم تنبت وتنمو وتزهر وتثمر، وكذا الإيمان في نموه، فيحتاج كل منهما إلى زمان.

وسرى الزمان أيضاً في التواصي بالحق، فإن التواصي بذلك يتوقف على تعلمه والتمييز بينه وبين الباطل، والتعلم يحتاج لزمن طويل، كما أن التواصي بالحق نفسه يحتاج إلى زمان، فتعلمه والتواصي به كلاهما لا ينفك عن الزمان.

وسرى الزمان أيضاً في التواصي بالصبر، فإنه لابد للصبر من قياسين لتقويم حقيقته:

الأول: شدة الألم وخفته، والثاني: الزمان الممتد مع الألم طولاً وقصرا والممتد مع الصبر كذلك بهذا يتبيَّن أنَّ الزمان يسري في سورة العصر فيصبح معناها الإجمالي:

إن سورة العصر آي الزمان إذ يتصدرها القَسَم بالعصر لتلفت النظر إلى أهمية الزمان العظمى، إن الحضارة التي نعيشها اليوم تحسب للزمن أعظم حساب.. وكأن السورة تريد أن تقول: أيها الإنسان إن رأس

مالك هو الزمان هو عمرك الذي في نهايته ستحسب أرباحك وخسائرك، وإنك لخاسر إلا إذا أنفقت عمرك في أعمال معيَّنة، إن زمناً تقضيه في نمو إيمانك زمن رابح، وإن زمناً تقضيه في الأعمال الصالحة والتواصي بالحق والتواصي بالصبر زمان رابح.

أقول: إن هذا تفسير يكشف عن عوار نفسه تكلُّفاً وتحريفاً وزيغاً وإلحاداً ولا يحتاج إلى تقرير، والغريب أن المؤلِّف يزعم أنَّه بيَّن به هندسة إلهية في السورة، وهذا مما يضحك الثكلى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد استمر المؤلف في تفسيره سُوراً أخرى على الأسلوب الكريه، الذي لا يتفق مع عقلٍ ولا نقل، نسأل الله العافية والهداية إلى سواء السبيل.

وأخيراً لا أجدني في حاجة إلى إبداء عوار الرسالة والحكم عليها بالعقم والفساد فإنها تنادي على نفسها بما هي له أهل وقديماً قيل: حسبك من شرٍ سماعه. نسأل الله السلامة والتوفيق.

عبد الرزاق عفيفي

❁ ❁ ❁

وفي الصفحات التالية نماذج أخرى من كتاباته وتعليقاته القيِّمة، وتقريراته الوافية، وجولات في أعماق كتب التراث، ونظرات وتأملات في عدد من الكتب والمصنفات، وكل هذه التعليقات والتقريرات والجولات النقدية لتقدم البرهان الساطع، والدليل القاطع على أنَّ الشيخ غير مدافع في سعة علمه واطلاعه ووقوفه على مناهج العلماء وإحاطته الواسعة بمصنفاتهم ومؤلفاتهم وتمييز الصحيح من السقيم منها، وإيراد ما يؤخذ عليها في أسلوب رائع وعبارات سهلة واضحة.

نظرات وتأملات
في كُتب ومؤلفات فضيلة الشيخ العلامة
محمد الخضر حسين شيخ الأزهر
بقلم فضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي

كتب فضيلة الشيخ العلامة الجهبذ عبدالرزاق عفيفي -يرحمه الله- تقريراً وافياً وبياناً كافياً تناول فيه عدداً من كتب ومؤلفات العلامة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر في زمنه، موضِّحاً في تقريره وبيانه ما تُمثِّله هذه الكتب وتلك المؤلفات من قيمة علمية عالية، مع الإشادة بالمكانة العلمية والأدبية التي تبوَّأها المؤلف، وذلك واضح جلي من خلال تصويبه وتعليقه على ستة من هذه الكتب والمؤلفات، وقد جاء تعليق فضيلته مجملاً ومفصلاً مبتدئاً ببيان الخصائص العامة والمجملة لهذه الكتب وما تشترك فيه مِنْ أمور، ثم أعقب ذلك بكلمة مختصرة عن كل كتاب من هذه الكتب الستة فجاء تعليقه على النحو التالي:

أولا: بيان عن هذه الكتب جملة في أمورٍ مشتركة بينها:

أ- تشترك هذه الكتب الستة في قوة الأسلوب وعلوِّه مع سلاسة العبارة ووضوحها، وسمو المعاني ودقتها وإصابة الهدف من قرب فلا تكلف فيها ولا غموض ولا حشو ولا تكرار.

ب- تشترك في الدلالة على سعة عِلْم المؤلف وتضلعه في علوم شتى في العلوم العربية والاجتماعية والدينية واستقصائه في بحثه وفي نقاشه لآراء مخالفيه وأدلتهم واعتداله في حكمه وفتاويه.

جـ- يتمثل فيها نزاهة قلم المؤلِّف وحُسن أدبه ونبل أخلاقه. لكن لم يمنعه ذلك أن ينقد الملحدين ومن انحرف به هواه عن الجادة والصراط المستقيم نقداً لاذعاً لا يخرج به عن الإنصاف ولا يتجاوز به حد الأدب في المناقشة رعايةً لحق مخالفيه وصيانةً لعلمه ولسانه عما يشينه وسيراً مع الكتاب والسُّنة وآدابهما في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا جهل ولا سفاهة إنما يقابل سيئة خَصمهِ وسبِّه بالحسنة أو غض الطرف عنها.

د- يتمثل فيها الصدع بالحق والكفاح عنه بُحسن البيان وقوة الحجة ما استطاع إلى ذلك سبيلا لا يخشى في ذلك لومة لائم، عماده في ذلك كتاب الله وسُنَّة رسوله ودليل العقل وشاهد الحس والواقع مع ذكر الشواهد من اللغة والقضايا التي جرت في العالم.

ثانيا: كلمة مختصرة عن كلٍّ كتابٍ مِن هذه الكتب الستة:

أ - تونس وجامعة الزيتونة:

في هذه الرسالة كلمات تأريخية عن تونس وفقهائها وشعرائها، وعن جامعة الزيتونة، وجملة من الأحكام الإسلامية، ونماذج من الشعر الأدبي الرفيع وتراجم لجملة من الفقهاء والأدباء، وفي هذا قيام من الشيخ بشيء من حق بلاده عليه، وحق مشايخه وعلماء بلاده، ويتجلى في هذه الرسالة حنين الشيخ المتغلغل في سويداء قلبه إلى تونس ومَنْ فيها، وكأن ما كتبه من ذلك استجابة لهذا الحنين، وصدى للخواطر التي تخالج نفسه، ولاتزال تساورها.

والرسالة فيها خير كثير من الفوائد الفقهية والتاريخية والأدبية. غير أنِّي ألمس فيها نوعاً ما من الغلو في بعض المشايخ بتسييدهم وزيادة إجلالهم، وفيها غض الشيخ طرفه على خلاف عادته عن أبيات فيها غلوٌّ في مديح صاحب تونس لابن خلدون منها ص٥٦.

ورضاك رحمتي التي اعتدها   تحيى منى نفسي وتذهب بؤسي

ب- بلاغة القرآن:

تشتمل هذه الرسالة على مجموع محاضرات ومقالات، أهمها بلاغة القرآن وإعجازه في بلاغته، وعلو أسلوبه وفي تشريعه وقصصه وإخباره بالمغيبات، وفي حِكَمه وأمثاله، ولهذا سُمِّيتْ الرسالة بهذا الاسم وإن كانت مشتملة على كثير من الموضوعات الأخرى النافعة، مثل حكم ترجمة القرآن، والردود القوية على من حرَّف آيات الحدود، وتأوَّل قصص القرآن على غير وجهه تأويلاً تنكره اللغة العربية، ويأباه الواقع العملي في زمن النبي ﷺ وأصحابه إلى يومنا هذا، وإن تقلص ظل تطبيق هذه الآيات في كثير من الأمم التي تنتسب إلى الإسلام لتفريطها ونوم علمائها وغفلتهم عن أداء الواجب الإسلامي، واتباع حكام تلك الأمم لهواها وتأثرها بالدول الكافرة أو تسلط الدول الكافرة عليها تسلطاً غيَّر عليها معالم دينها، ولبَّس عليها حتى زعمت أن شريعة الله غيرُ صالحةٍ لكل زمان ومكان، وقد فصَّل المؤلِّف الرد على أولئك، وخاصة من تأول حد السرقة وحد الزنا، ومن تأول قصة أيوب عليه السلام، مثل الشيخ جان محيسن أو قصص القرآن جملة فزعم أنه تمثيل خيالي لا واقع له، أو ليس بلازم أن يكون له واقع يحكيه، مثل الدكتور خلف في رسالته التي قدَّمها لنيل الدكتوراه من إحدى الجامعات. وقد أجاد المؤلِّف وأفاد في كل ما تعرض له من مباحث هذه الرسالة غير أنه خالف مذهب

السلف في مبحث المُحكَم والمتشابه (ص٣٨-٤٤) فجعل نصوص المحكم والمتشابه في الكتاب والسنة من المتشابه، وتأولها متبعاً في ذلك مذهب الأشعرية ومن سلك طريقهم في تأويلها بحملها على معنىً مجازي معين سوى المعنى الحقيقي أو التفويض في أصل المعنى مع أن إمامهم أبا الحسن الأشعري لا يرى التأويل لهذه النصوص ولا التفويض في أصل المعنى بل يثبت نصوص الأسماء والصفات المنصوصة التي في الكتاب والسنة على حقيقتها ويفوض في كيفيتها كما هو مذهب السلف من الصحابة ومن تبعهم من أئمة المسلمين المحققين قديماً وحديثاً، فلو سلك مسلك المحققين في نصوص الأسماء والصفات لكان أرشد له وأسلم، ولكن لمذهب جمهور العلماء من المتأخرين سطوة لايكاد يسلم منها إلا من عصم الله، والله المستعان.

جـ- رسائل الإصلاح:

رسائل الإصلاح هي أيضاً مجموع محاضراتٍ ومقالاتٍ تحدَّث فيها المؤلف عن جملة من الأخلاق الكريمة وأثرها في النهوض بالأمة وتماسكها وعن عناية الإسلام بها وحثه على معالي الأمور والترفع عن سفسافها، وبيّن فيها معنى المساواة في الإسلام، ونوّه بشأن القضاء العادل في الإسلام، وأفاض القول في بيان ضلالة فصل الدِّين عن السياسة، ومضرة الانحراف عن الإسلام.

وبيّن سماحة الإسلام وعدالته في معاملة غير المسلمين في السلم والحرب، ومضرة محاكاة المسلمين للكفار إلى غير هذا من الموضوعات النافعة.. وهذه الرسائل من خير ما كتب المؤلف وقد أفاض فيها وأجاد وجاء بما لا غنى لطالب العلم عنه. إلا أنه سلك مسلك المؤولين لنصوص الأسماء والصفات فأوّل حديث «إن المقسطين عند الله على

منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» فخالف في ذلك مذهب السلف الذين أثبتوا صفة اليمين للرحمن حقيقة مع قولهم بالمعنى الكنائي الذي فسره الشيخ أيضاً ولكن المؤلِّف كما تقدم لم ينفرد بذلك بل تبع فيه مذهب الأشعرية ومن سلك مسلكهم كما تقدم والله الموفق.

د- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان:

هذه الرسالة كسابقتها مجموع محاضرات ومقالات في جوانب متنوعه من الشريعة الإسلامية وفي فقهائها، ولكن سُمِّيت باسم الأولى منها لأنها أهمها، وقد أفاض المؤلف القول فيها وفصلَّه تفصيلاً يحتاج إليه كل طالب علم، فقد تكلَّم كلاماً حسناً عن الفقهاء وطبقاتهم وعن صلتهم بالحكام ونصيحتهم لهم، وبين أسباب انتشار مذاهبهم وجملة من أسباب اختلافهم في المسائل الفقهية، وتكلم في مسائل اجتماعية وأفاض القول في تعدد الزوجات والسحر ورد على شبهات المشبهين وفصّل آراء العلماء في التصوير وبين مضار الطِّيرة والتشاؤم في العقيدة، والكد في الحياة والنشاط في الأعمال وخُتمت المجموعة بجملة من الفتاوى والأحكام غير أنه - فيما أرى - لم يحالفه الصواب في قوله بإحياء ليلة النصف من شعبان بالعبادة، رجاء أن يكون لها مزية في استجابة الدعاء وقبول العبادة، مع اعترافه بأن ماورد فيها من الأحاديث لم يبلغ درجة الصحيح في نظره وهي في نظر غيره لم تصح بل هي مردودة إذ لو صحَّت لكان خير الخَلْق صلَّى الله عليه وسلم هو وأصحابه أولى بإحيائها ولكن لم يثبت ذلك إذ لو ثبت لنُقل فكان إحياؤها بدعة وترك احيائها سُنَّة وكلامه في مبحث السُّنة والبدعة ص(٩٨) من «مجموعة الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان» يشهد لما ذكرته من أن إحياءها

بدعة وتركها سُنَّة، وقد حاول المؤلف في صفحة (١٧٤-١٩٠) من هذه المجموعة أن يجعل للتصوف أصلاً صحيحاً مع الاحتياط منه في ذلك، وإنكاره لبعض أعمالهم، وردِّه على طوائف منهم، إلا أنه بالرغم من هذا الاحتياط جعل من المتصوفة جماعة من أهل الزندقة والإلحاد وترجم لهم في نهاية مبحث التصوف منهم عمر بن الفارض ومحيي الدين بن عربي، وعلى كلٍّ حال فكل إنسان يؤخذ من قوله وعمله ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ فله العصمة مِن ربه فضلاً وإحساناً.

هـ- محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين:

هذه أيضا مجموع محاضرات ومقالاتٍ أُلقيت ونشرت في مناسبات مختلفة كالهجرة النبوية والمولد النبوي والرد على مايراه الشيخ خطأً في مقالات كتبها بعض العلماء والكُتَّاب، وقد تكلَّم فيها الشيخ عن الأُمم قبل إرسال الرسل إليهم، وما كانت عليه مِن جهلٍ وضلالةٍ وشرك فاضح وفوضى مُهلكة، وبيّن موقف الرُّسل منهم، حتى فصل الله بهم بين الحق والباطل، وأفاض القول في سيرة نبيِّنا محمد ﷺ، وفي معجزاته الكونية والروحية، فجمع فيما كتبه خيراً كثيراً. غير أنه لما عرض للمولد النبوي في محاضراته ومقالاته قرر مشروعية الاحتفال به، ورضي بذلك لنفسه وللمسلمين ديناً، وامتدح من عنى بذلك بحجة أن من احتفل به إنما يُقِّدم مُثلاً عُليا من سيرة رسول الله ﷺ أو يسمع ذلك، وأنهم لم يفعلوا إلا مِثل ما فعله حسان بن ثابت وعلي بن أبي طالب والبراء بن عازب وأنس بن مالك رضي الله عنهم ممن يتحدثون عن محاسن رسول الله ﷺ في جماعة.

وهذا الذي قرره الشيخ هو في نظري ونظر الكثيرين من أهل السُّنة

بدعة منكرة باعتراف المؤلف نفسه في مبحث السُّنة والبدعة في صفحة (٩٨) من المجموعة التي عنوانها الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ،حيث قال: «والتَّرك الذي يدلُّ على عدم الإذن، هو ما يروى في لفظ صريح كتركه عليه الصلاة والسلام الأذان والإقامة في صلاة العيدين وتركه غسل الشهداء والصلاة عليهم، ويلحق بهذا تركه الذي لم ينقل بلفظ صريح، ولكنه يفهم من عدم نقلهم للفعل الذي من شأنه أن تتوفر الدواعي على نقله لو وقع. فيصح لنا أن نقول: من السُّنة ترك رفع الأصوات بالذكر أمام الجنازة ويكفي في الاستشهاد على أن السنة ترك هذا الرفع عدم نقلهم لفعله، وهو من الأمور التي لو فُعلتْ لتوفَّرت الدواعي على نقلها».

وأقول تطبيقاً لهذه القاعدة الصحيحة التي يجب التسليم لها من كل منصف، أنَّ النبي ﷺ لم يحتفل بمولد نفسه، ولا بمولد غيره من الرُّسل والصحابة، مع امتداد حياته بعد الرسالة، ولا احتفل بمولده أحد من الصحابة، وهم خير القرون المشهود لها بالخير، ورسول الله ﷺ أكرم الخلق على نفوسهم، وأحب العالمين إلى قلوبهم، ولو احتفلوا بمولده لنقل لتوفر الدواعي على نقله. فيكفي في الاستشهاد على أن ترك الاحتفال بمولده سُّنة وأن فعله بدعة عدم نقلهم لفعله.. أما ما ذُكِر عن حسان وغيره من الصحابة من الثناء على النبي ﷺ فإنهم لم يلتزموا فيه وقتاً مُعيَّناً يتخذونه موسماً ومجتمعاً، وهذا متفق عليه ومندوب إليه لشرح سيرة النبي ﷺ تدريساً أو دفاعاً عنه عند وجود الدواعي لذلك، دون التزام حال معينة أو زمان أو مكان معين، وإنما البدعة التزام زمن أو مكان بعينه يعتبر موسماً ويعتاد الناس الاجتماع فيه شأنهم فيه كشأنهم في الأعياد، بل هذا رُبَّما أدَّى إلى الغلو في إعظام النبي ﷺ وإطرائه وقد

نهى عن ذلك فقال: «لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»[1] بل حصل الغلو والإطراء بالفعل حتى ممن ينتسبون إلى العلم وشغلوا مناصب كبيرة لها شأنها في دولتهم، يضاف إلى ما تقدم قوله في ص(٥٤) من نفس المجموعة، وأذكر بهذه المناسبة أي مناسبة الاحتفال بالمولد بيتين ينسبان إلى صاحبنا الأستاذ السيد فلان:

سيِّد الرُّسل ومن بِعْثتُه كستْ الكونَ بهاءً وفخاراً
قم إلى النور الذي جئت به افترضي أن يصير النور ناراً

ثم شطر البيتين بما يدل على رضاه بما فيهما، وإنْ ادعى أحد تأويل هذا بحمله على التحسّر على أحوال المسلمين والتباكي على ما هم فيه من ضعف وجهل وتأخّر، فهو تأويل بعيد، إذ الظاهر الاستنجاد بالرسول والاستعانة به لإنقاذ المسلمين مما هم فيه من النار والشقاء إلى النور والسعادة، فهو مما يفتح باب شر وشرك على المسلمين، وخاصة إذا حصل ممن ينتسب الى العلم. فعلى العلماء أن يمسكوا عن مثل هذا، وإلا فتحوا على المسلمين أبواب فتنة لايُطفأ أوارها، ولا يُسد بابها، والله الموفق.

و- الخيال في الشعر الجاهلي:

هذه الرسالة تكلَّم فيها الشيخ عن الخيال عند الناس على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم، وعن أنواع الخيال وأطواره وتفاضله، ثم عن الخيال في الشعر الجاهلي وهو المقصود، وذكر إلى جانبه مباحث الخطابة عند العرب وما يتصل بها من أبحاث ومحاضرتين ألقاهما في نشأة علوم البلاغة «المعاني والبيان والبديع» وقد أبدع المؤلف في هذه الرسالة أيمَّا إبداع، وأخذ فيها بأطرافٍ كثيرةٍ من علوم اللغة العربية، ولا عجب فللمؤلف

(١) رواه البخاري (الفتح ٣٤٤٥/٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الباع الطويل في هذه العلوم كما أن له قدماً راسخة أيضاً في العلوم الدينية وخاصة الفقة وأصوله. وقد تجلّى في هذه الرسالة جمال خُلُق الشيخ وكمال أدبه، واعتداله في ميوله ودوافع نفسه. فإنه لم يُعرِّج فيما ذكره من النماذج الشعرية على شعر ماجنٍ أو قولٍ تجاوز حد الأدب واللياقة. غير أنه على خلاف عادته سكت عن أبيات قليلة فيها غلوّ كثيرٌ وكذب واضح منها قول أبي العتاهية في قصيدته التي هنَّأ بها المهدي بالخلافة:

ولو رامها أحد غُيره ... لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب ... لما قَبِل الله أعمالها

ومن ذلك قول أبي الفضل:

لم يبق للجور في أيامهم أثر ... غير الذي في عيون الغيد من حور

وقد دافع عن حسان بن ثابت رضي الله عنه فيما نُسب إليه من الأحاديث المُشينة دفاعاً يدل على سعة علمه بأحوال الشعراء، ووزنهم بما عُهِدَ منهم في حياتهم الشعرية، وما هم عليه من أخلاق.. كما يدل على صدق حبه للصحابة ووفائه لهم وانزالهم منازلهم رضي الله عنهم.

وبالجملة فهذه الرسائل جمة الخير، كثيرة النفع، لايغض من قيمتها تلك المآخذ، ولاينبغي أن يحول دون الانتفاع بما فيها هذا النزر اليسير الذي لا تكاد تسلم منه كتابة كاتب أو تأليف مؤلِّف.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

عبد الرزاق عفيفي

نائب رئيس

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

التقرير الوافي عن كتاب (الكافي)
لابن عبد البر رحمه الله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه وبعد..

فبناءً على ما أشار به سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، من الاطلاع على كتاب «الكافي» للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري رحمه الله، وكتابة تقرير عنه.

فقد قرأت منه أبواب الطهارة والصلاة والحج، وأبواباً من المعاملات، وأبواباً من الجنايات ومسائل من المواريث فوجدته كما يلي:

أولاً: سلك المؤلف في كتابه «الكافي» مذهب مالك بن أنس - رحمه الله- وجمع فيه من المسائل أُصولاً يُبنى عليها كثير من الفروع، واستقى ذلك من كُتب المالكيين ومذهب المدنيين وتعهَّد في مقدمة كتابه أن يقتصر على الأصحِّ عِلْماً، والأوثق نقلاً، وعوَّل على كتاب «الموطأ»- رواية يحيى بن يحيى، وكتاب «المدونة»، وكتاب «المختصر الكبير» لعبد الله بن عبد الحكم، وكتاب «المبسوط» للقاضي إسماعيل بن إسحاق البغدادي، وكتاب «الحاوي» لأبي الفرج القاضي، و«مختصر أبي مصعب» أحمد بن أبي بكر الزهري و«موطأ» عبد الله بن وهب القرشي، وكتاب «الموازين» لأبي المواز، وكتاب «الواضحة» لعبد الملك بن حبيب.

ثانياً: التزم المؤلِّف طريقة المتقدمين في تأليفهم من عدم التكلف في التعبير، فكان كتابه سهل العبارة، قوي الأسلوب، حسن التنسيق والترتيب، قريب المأخذ، يستفيد منه الطالب دون عناء.

ثالثاً: كثيراً ما يُعبِّر المؤلِّف في كتابه «الكافي» عن المسألة بلفظ الحديث أو الأَثر أو بما يُقارب ذلك وقد يستدل بالآيات والأحاديث والآثار أحياناً بعد ذكر المسائل، إلا أنه لا ينسب ذلك إلى ديوان من دواوين السُنَّة ولا يُبيِّن درجته، وإنما يعني ببيان وجه الاستدلال والترجيح، وأقرب الكتب شبهاً به في طريقته من حيث السهولة والاستدلال كتاب «الرسالة» لابن أبي زيد القيرواني، وكتاب «المقدِّمات الممهِّدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات»، وكتاب «الكافي» لابن قدامة.

رابعاً: قام محقِّق هذا الكتاب بإصلاح الأخطاء الإملائية، وبيان معاني المفردات الغامضة، وخرَّج الأحاديث التي استدل بها المؤلف في كتابه «الكافي»، وبيَّن درجتها باختصار معتمداً في ذلك غالباً على ما ذكره أبو البركات ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه «المنتقى وشرحه» للشوكاني، وعلى ما ذكره ابن حجر -رحمه الله- في كتابه «بلوغ المرام»، وكتابه «التلخيص الحبير»، كما أنه بيَّن مواضع الآيات من سِوَرها، وذكر نبذة من اختيارات المؤلف ليدل على أنَّه حرَّر المسائل ودقَّقها وعقَّب عليها، وليس مجرد ناقل لها، ونقل هذه الاختيارات في الفصل الثامن من القسم الأول من رسالته ابتداءً من (ص٢٣١ إلى ص٨٤١)، وترجم للأعلام المذكورة في الكتاب، وعرَّف المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في جميع مسائل كتابه «الكافي»، والتي أشار إليها في مقدمة «الكافي» وفي خاتمته.

خامساً: ذكر محقِّق الكتاب أثناء التعريف بعمله فيه (ص٧٥١)، أنَّ أبا عمر أشار في مقدمة كتابة خاتمته إلى مصادره التي استقى منها كتابه.

وذكر في تعليقه على كتاب «الكافي» ص (١٧١-٣٧١) أن أبا عمر سيذكرها في الخاتمة بأسانيدها إلى مؤلِّفيها.

وبرجوعي إلى النسخة الأصلية الموريتانية التي اعتمد عليها محقق الكتاب وجدت الإشارة إلى المصادر أو الدواويين بآخر صفحتين ذكر المحقق أنهما من النسخة الفارسية التي كان يرجع أيضاً إلى ما وجده من صفحاتها.

سادساً: وجدت غلطات مطبعية كثيرة في النسخة المكتوبة على الآلة وتفاوتاً يسيراً في حروفٍ أو كلمات بينها وبين النسخة الأصلية المخطوطة لكن يمكن تدارك ذلك عند الطبع بالرجوع إلى الأصل.

سابعاً: في الكتاب ثروة علمية مع سهولة تناولها والانتفاع بها، وقد خدم به المؤلف مذهب المالكية، وسهل على روّاده معرفة أحكامه والانتفاع به فلو طُبع كان فيه إحياء للتراث العلمي، ولذكرى المؤلِّف، وخدمة لطلاب العلم.

وينبغي أن يُرجع عند الطبع إلى الأصل وإلى نسخة أخرى أو أكثر، وصلى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه
عبد الرزاق عفيفي

مقدمة وتعليق

على كلمة

(الشيخ العلاَّمة عبد الرحمن بن سعدي، رحمه الله)

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على نبيِّنا محمدٍ وآله وصحبه.

أما بعد: فإنَّ العلماء في هذا العصر كثير، ولكن قَلَّ منهم من يستقي الحكم من منبعه، ويسنده إلى أصله، ويُتْبع القول العمل، ويتحرَّى الصواب في كل ما يأتي ويذر، وإنَّ مِن ذلك القليل فيما أعتقد، الشيخ الجليل عبدالرحمن بن ناصر بن سِعْدي[1] -رحمه الله- فإنَّ مَنْ قرأ مصنفاته وتتبع مؤلفاته وخالطه وسبر حاله أيام حياته، عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعاً وتعليماً، ووقف منه على حُسن السيرة، وسماحة الخُلُق واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجر إلى شرٍّ أو يفضي إلى نزاع أو شقاق فرحمه الله رحمةً واسعة.

---

(١) ذكر فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي ذكر له يوماً أنه كان يحضر دروس الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، عندما كان يقوم بالتدريس في عنيزة، وأنه أعجب بعلمه، وكان يثني عليه ثناءً عطراً في علمه وورعه وأسلوب حياته وتنظيم وقته، ويقول: إنه كان سابقاً لعصره، بحراً في علمه، سديداً في توجيهاته، وانظر جريدة «الرياض»، الثلاثاء غرة ربيع الآخر ١٤١٥هـ.

وإن من مؤلفاته تلك، الكلمة الوجيزة الجامعة التي كتبها جواباً عن سؤال الأخ الكريم علي الحمد الصالحي في حكم شرب الدخان، فهي على قِصرها قد أصابت الهدف، وصدعت بالحق، وقامت بها الحجة، على من عاند واتبع هواه بغير هدى من الله.

حيث استند فيها المؤلف إلى عموم نصوص الكتاب والسُّنة الدالة على تحريم شرب الدخان، وإلى ما ينشأ عن شربه من الأضرار المالية والبدنية والاجتماعية. وليس لأحد أن يتشبث بالمطالبة بذكر دليل خاص على تحريم الدخان بخصوصه غير قانع بعموم النصوص، إلا أن يكون قصير النظر ضعيف الفكر جاهلاً بمصادر الشريعة والاستفادة منها. فإن الأدلة الشرعية كما تجيء جزئيةً أحياناً تجيء كثيراً قواعد كلية يتعرف منها أحكام الجزئيات التي تتضمنها وتندرج تحتها، وإن طالب الحق الباحث عنه لايقف في سبيله مثل هذه الشبهة. إنما يتعلل بذلك من غلبته نفسه واستمكنت منه العادة فكان أسيراً لها، واستهواه الشيطان فاتخذه إماماً له يزيِّن له الخبائث ويحببها إلى نفسه، ويزيغ قلبه بما يلقيه من الوساوس والشُّبه الزائغة.

ولقد ظهر في شرب الدخان مِن الخطر والضرر، وقرر علماء الطب ذلك. وسأذكر لك شيئاً من المنقول عنهم لا لأستدل بذلك على حُكْم شرب الدخان فإن الغني في دينه مَنْ أغناه الله بكتابه وسُنَّة نبيه، فهما المنهاج الواضح والطريق المستقيم وفيهما المقنع لمن رزقه الله سداداً وكان على نور من ربه. إنما أذكر ذلك لأولئك الذين ابتلوا بتقليد مَنْ يرون أنهم رجال العلم والحضارة، وأهل الذوق والمدنية، ليتبيّنوا أن مَنْ يدينون لهم قد اعترفوا بضرره فيرجعون عن شربه وإن رأوهم يدمنون شربه.

وإليك النقول من كتاب «البيان» للشيخ إبراهيم عبدالباقي

رحمه الله. قال في «أدب المحلى» ص١٢٢ التنباك هو نبات سمَّته العرب الطباق وبتحليله اتضح أنه يحتوي على مادة سامَّة إذا وضع منها نقطتان في فم كلب مات في الحال، وخمس نقاط منها تكفي لقتل جمل والأمم المتوحشة تمضغه.

وهذه أكثر الطرق ضرراً لدخوله في المعدة مع الريق. وقد فشا استعمال الطباق بين الأمم على ما به من ضرر.

وقد أثبت الأطباء أن الطباق يؤثر في القلب فيُحدث فيه الخفقان، وفي الرئتين فيُحدث سعالاً، وفي المعدة فينشئ فيها ضعفاً في شهوة الأكل، وفي العينين فيُحدث فيهما رمَداً، وفي المجموع العصبي فتوراً.١.هـ.

وقال الدكتور (دمرداش أحمد):

لا أظن الجنس البشري منذ بدء الخليقة ضعف واستكان أمام عدو من أعدائه كما فعل أمام تدخين التبغ، كما أسرته هذه العادة وأوثقته وأذلَّتْ كبرياءه، استوى في ذلك صغار العمال الكادحين الذين يقتطعون من أقواتهم وأقوات عيالهم وكبار الأطباء والفلاسفة المفكرين الذين أضاءت الكون عبقرياتهم ،وكشفوا هذه الآفاق البعيدة في مختلف العلوم والفنون، وقد كان السائد المعروف أنَّ التدخين باعتدال قليل الضرر أو عديمه للشخص السليم، ولكن البحوث العلمية المتصلة بالسنين الأخيرة أثبتت أن الضرر الذي يحدثه التدخين لم يخطر أبداً على بال مدخن. وإليك الحقائق التي أثبتتها هذه البحوث.

قام الأستاذ (ديموند بالمير) بتتبع عشرين ألف حالة منهم مسرفون ومعتدلون وممتنعون، أنشأ لكل منهم سِجلاً خاصاً بجامعة جون (هويكنز)

أثبت فيه كل مايتعلق بصحتهم وأمراضهم وعوائدهم وبدأت أبحاثه سنة ١٩١٩م وانتهت سنة ١٩٤٠م بالنتيجة الآتية:

يؤثِّر تدخين التبغ على حياة الإنسان أثراً بالغاً فتقصر هذه الحياة قصراً بيِّناً يتناسب مع كمية التبغ، والممتنعون أطول أعماراً من المعتدلين والمعتدلون أطول من المسرفين. أ.هـ.

وأسأل الله سبحانه أن يهدينا سواء السبيل وأن يرزقنا قبول النصيحة ويُجنبنا كلَّ ما فيه خطر ومضرة، وأن يرحم المؤلف وينفع بتأليفه ويجمعنا به في دار كرامته.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

عبد الرزاق عفيفي

مقدمة كتاب الولاء والبراء[1]

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فموضوع هذا الكتاب له شأنه وله أهميته في نفسه، وبالنسبة لكتابته في هذا الوقت، فبين كتابته وبين الوقت الذي نعيش فيه الآن مناسبة قوية.

أما أهميته في نفسه: فذلك لأنه في أصلٍ من أصول الإسلام هو: «الولاء والبراء».

وهما مظهران من مظاهر إخلاص المحبة لله، ثم لأنبيائه وللمؤمنين.

والبراء: مظهر من مظاهر كراهية الباطل وأهله، وهذا أصل من أصول الإيمان وأما أهميته بالنظر للوقت الحاضر: فأنه قد اختلط الحابل بالنابل!، وغفل الناس عن مميزات المؤمنين التي يتميزون بها عن الكافرين، وضعف الإيمان في قلوبهم حتىٰ ظهرت فيهم مظاهر يكرهها المؤمن.

والولاء للكافرين أمماً ودولاً، وزهدوا في كثير من المؤمنين، وحطوا من قدرهم وساموهم سوء العذاب.

---

(١) وهو في الأصل رسالة ماجستير تأليف فضيلة الشيخ محمد بن سعيد بن قبيل القحطاني.

ومن هنا: تأتي أهمية نشر هذا الكتاب في هذا الوقت الحاضر بالذات.

ولقد جاء المؤلِّف على جانب الولاء والبراء، ونقل في ذلك كثيراً من كلام العلماء، وقدّم له ومهّد، وعقَّب عليه وعلَّق، واستدل على ما جاء به من مبادئ الولاء والبراء بآيات من القرآن، وبأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ وبكثير من أقوال الصحابة ومَن تبعهم من السلف.

وبيَّن وجه الاستشهاد بهذا وبهذا، ورقَّم للآيات وبيَّن سورها، وخرَّج الأحاديث والآثار وبيَّن درجتها في الغالب الكثير.

وأسأل الله جلَّ شأنه أن ينفع المسلمين بهذا الكتاب، وأن يُهيِّئ لمؤلفه إخواناً ينهجون نهجه، فالأمل كبير، الأمل في الله عظيم أن ينشأ كثير من شبابنا الحاضر على هذا المبدأ القيِّم، مبدأ نصرة دين الإسلام وإحياء ما اندرس منه فإن ربِّي مجيب الدعاء.

عبد الرزاق عفيفي

مقدمة لكتاب
المقاصد العليَّة من القصيدة النونية[1]

الحمد لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، وأشهد أن نبيَّنا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله خاتم الأنبياء والمرسلين، وقائد الغر المحجلين، أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، وهدى للمتقين، ففتح به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً، وبيَّن للناس ما نُزِّل إليهم من ربهم لعلهم يتفكرون، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه، وحافظوا على شريعته الغراء، وعلى سنته المطهَّرة، حتى ورثها عنهم من جاء بعدهم من التابعين، إلى أن وصلت إلينا غضة طرية، ورضي الله عنهم وعمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد كتب فضيلة الأخ الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد تعليقًا موجزاً مفيداً بعبارات واضحة، على «القصيدة النونية في التوحيد»،

---

(١) تفضل بكتابة هذه المقدمة بعد مراجعة الكتاب فضيلة الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ وذلك عام ١٤١٢هـ، ولعل الله تعالى يُيسِّر طبعه ونشره قريباً إن شاء الله.

المسمّاة «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» للعلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيِّم الجوزية ناصر السُّنة وقامع البدعة - وقوته وطول باعه في شتى العلوم، وفصاحة لسانه وحُسن بيانه نثرًا ونظماً غني عن الحديث عنه. وقد سمَّى فضيلته التعليق - (المقاصد العلية من القصيدة النونية في بيان عقيدة أهل الحديث وسلامة منهجهم وأنهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة) بيَّن في تعليقاته معاني المفردات، والمراد من الأبيات بعبارات واضحة دقيقة على طريقة السلف الصالح رضي الله عنهم، وذكر شواهد الأحكام من الآيات والأحاديث التي أشار إليها الإمام ابن القيِّم في قصيدته، مع بيان رقم الآية وسورتها، ونسبة الأحاديث إلى دواوينها من كتب السُّنة، فجزاه الله خيراً، ونفع المسلمين بما كتبه وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

عبد الرزاق عفيفي

تقرير عن رسالة الدعوة الحموية
في مرآة الطريقة الأحمدية

١- ألّف هذه الرسالة الأستاذ طاهر بن أبي بكر لنب دكري التجاني بأسلوب قوي في الجملة مع نوع من التكلف في التعبير حمية للتجانية ودفاعاً عن محمد بن سيده حمى الله الشريف إمام الدعوة الحموية (فرقة تجانية).

٢- ذكر المؤلف نبذة تاريخية عن أحمد محمد التجاني وأخرى عن محمد بن سيده حمى الله وآخرين من التجانية، وغلا في الثناء عليهم وذكر انتشار الدعوة الحموية في كثير من الدول رغم وضع الحساد الكثير من العقبات في سبيلها.

٣- بيّن ما جرى من الأحداث على حمى الله، وما حيك له من مؤامرات دبّرها خصومه حسداً له وبغياً عليه غير أنها فشلت واستمرت دعوته في طريق الانتشار، وأصيب من كاد له وآذاه. وسمّى ذلك معجزة.

٤- تعرض المؤلِّف في هذه الرسالة أثناء حديثه عن الأطوار التي مرَّ بها حمى الله لمسائل خطيرة تعلن عن الضلال الفاضح والخطأ الواضح منها ما يأتي:

أ- رؤية كل من أحمد بن محمد التجاني وحمى الله التجاني

محمداً ﷺ يقظة وأخذهما الأوراد وسائر التشريع عنه يقظة، وأن كتاب جواهر المعاني ألفه علي حرازم بأمر المصطفى ﷺ واستدل لما زعم من الكشف والرؤية والأخذ عن النبي ﷺ يقظة بحديث «من رآني في المنام فكأنما رآني في اليقظة». انظر ص٨- ١٣- ١٤- ١٩- ٥٨- ٨٥- ٨٨- ٨٩.

ب- ما زعمه محمد سيده حمى الله من القصر الحموي، وهو قصر الصلاة الرباعية بآدائها ركعتين في الحضر عند خوف المسلم على نفسه من خصومه، واستدل لذلك بآية ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟...﴾[1] الآيات.

وذكر عن ابن قيم الجوزية رحمه الله ما يشهد لمقالته في زعمه وهو كاذب في ذلك. انظر ص٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦.

جـ- زعم أن عمل أهل فاس من التجانيين كعمل أهل المدينة فيستدل به كما استدل مالك وأتباعه بعمل أهل المدينة وأنه ينسخ ما قبله من الأحكام المخالفة له - انظر ص٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠.

٥- مرجعه كتاب جواهر المعاني لعلي حرازم ونحوه من كتب المبتدعة غالباً.

وكتبه
عبد الرزاق عفيفي

---

(١) سورة النساء، الآية (١٠١).

تقرير عن كتاب بغية المهتدي
في رد شبهات المعتدي

١- ألّف هذا الكتاب أبوبكر بن محمد بن عثمان حوص المرجي للرد على طاهر دكري فيما زعم من مسائل ضل فيها عن طريق الهدى والصواب وللدفاع عن جده محمد بن عمر المرجي.

٢- قسم المؤلف كتابه قسمين: الأول رد فيه ما زعمه طاهر دكري من رؤية كل من أحمد بن محمد التجاني ومحمد بن سيد حمى الله النبي ﷺ يقظة وأخذهما التشريع والأوراد عنه يقظة وناقشه في استدلاله على زعمه بحديث «من رآني في المنام فكأنما رآني في اليقظة...» انظر ص ٦-٢٦.

الثاني في مهاجمة طاهر دكري ورد المؤلف عليه انتصاره لجده وقد ضمنه الرد على القصر الحموي- قصر عدد ركعات الرباعية في الحضر من أجل الخوف من الخصوم والرد على جعل عمل أهل فاس كعمل أهل المدينة فيستدلون به كما يستدل المالكية بعمل أهل المدينة ويجعلونه ناسخاً لغيره وذكر أنواعاً أخرى من بدع طاهر دكري وعلق عليها.

٣- موقف أبي بكر بن محمد في كتابه من طاهر دكري في رسالته موقف المحق من المبطل إلا أنه ضعيف في تعبيره، مسرف في شتائمه مقذع فيها، كثير النقل من كتب المبتدعة مثل أحمد الصاوي، وغيره.

وبالجملة فهذه خصومة بين حمى الله التجاني وأتباعه وبين من خرجوا عليه، وفيها عصبية من الطائفتين إلا أن من خرجوا على حمى الله أقرب إلى الحق وإلى نصرته.

والله الموفق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه

عبد الرزاق عفيفي

نماذج من بدع التجانية

وإتماماً للفائدة فقد رأيتُ أن يُلحق بهذين التقريرين ما كتبته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في هذا الخصوص وما صدر عنها من فتاوى توضح جملة من عقائد التجانية المبتدعة. وقد كتبت اللجنة ما يلي:

نلخص فيما يلي جملة من عقائد التجانية المبتدعة مأخوذة من أوسع كتبهم وأوثقها في نظر علمائهم مثل كتاب «جواهر المعاني» لعلي حرازم، وكتاب «رماح حزب الرحيم» لعمر بن سعيد الفوتي:

١- غلو أحمد بن محمد التيجاني مؤسس الطريقة وغلو أتباعه فيه غلواً جاوز الحد حتى أضفى على نفسه خصائص الرسالة بل صفات الربوبية والإلهية وتبعه في ذلك مريدوه.

٢- إيمانه بالفناء ووحدة الوجود وزعمه ذلك لنفسه بل زعم أنه في الذروة العليا من ذلك وصدَّقه فيه مريدوه فآمنوا به واعتقدوه.

٣- زعمه رؤية النبي ﷺ يقظة، وتلقين النبي ﷺ إياه الطريقة التجانية وتلقينه وِرْدها يقظة والإذن له يقظة في تربية الخلْق وتلقينهم هذا الورد واعتقاد مريديه وأتباعه ذلك.

٤- تصريحه بأن المدد يفيض من الله على النبي ﷺ أولاً ثم يفيض منه على الأنبياء ثم يفيض من الأنبياء عليه ثم منه يتفرق على جميع

الخلق من آدم إلى النفخ في الصور ويزعم أنه يفيض أحياناً من النبي ﷺ عليه مباشرة ثم يفيض منه على سائر الخليقة، ويؤمن مريدوه بذلك ويعتقدونه.

٥- تهجمه على الله وعلى كلِّ وليٍّ لله وسوء أدبه معهم إذ يقول قدمي على رقبة كل ولي -فلما قيل له أن عبدالقادر الجيلاني قال: فيما زعموا قدمي على رقبة كل ولي- قال صدق ولكن في عصره أما أنا فقدماي على رقبة كل ولي من آدم إلى النفخ في الصور- فلما قيل له أليس الله بقادر على أن يوجد بعدك وليّاً فوق ذلك. قال: بلى ولكن لا يفعل كما أنه قادر على أن يوجد نبيّاً بعد محمد ﷺ ولكنه لا يفعل ومريدوه يؤمنون بذلك ويدافعون عنه.

٦- دعواه كذباً أنه يعلم الغيب وما تخفى الصدور وأنه يُصرِّف القلوب وتصديق مريديه ذلك وعدُّوه من محامده وكراماته.

٧- إلحاده في آيات الله وتحريفها عن مواضعها بما يزعمه تفسيراً إشارياً كتفسيره قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[1].

ببحر الألوهية وبحر الوجود المطلق وبحر الخليقة، وهو الذي وقع عليه كن، وهو البرزخ بينهما ﷺ ولولا برزخيته ﷺ لاحترق بحر الخليقة كله من هيبة الذات..الخ. ويعتقد مريدوه أن ذلك من الفيض الإلهي.

٨- تفضيله الصلاة على النبي ﷺ على تلاوة القرآن بالنسبة لمن يزعم أنهم أهل المرتبة الرابعة وهي المرتبة الدنيا في نظره.

---

(١) سورة الرحمن: الآيتان (١٩، ٢٠).

٩- زعمه هو وأتباعه أن منادياً ينادي يوم القيامة والناس في الموقف بأعلى صوته يا أهل الموقف هذا إمامكم الذي كان منه مددكم في الدنيا...الخ. يريدون بالإمام أحمد التيجاني.

١٠- زعمه أن كل من كان تجانياً يدخل الجنة دون حساب ولا عذاب مهما فعل من الذنوب.

١١- زعمه أنه من كان على طريقته وتركها إلى غيرها من الطرق الصوفية تسوء حاله ويخشى عليه سوء العاقبة والموت على الكفر.

١٢- زعمه أنه يجب على المريد أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي المغسِّل لا اختيار له بل يستسلم لشيخه فلا يقول: لِمَ ولا كيف ولا علام ولا لأي شيء..الخ.

١٣- زعمه أنه أوتي اسم الله الأعظم، علَّمه إيَّاه النبي ﷺ ثم هول أمره وقدر ثوابه بالآلاف المؤلفة من الحسنات، خرصاً وتخميناً ورجماً بالغيب واقتحاماً لأمر لا يُعلم إلا بالتوقيف.

١٤- زعمه أن الأنبياء والمرسلين والأولياء لايمكثون في قبورهم بعد الموت إلا زمناً محدوداً يتفاوت بتفاوت مراتبهم ودرجاتهم ثم يخرجون من قبورهم بأجسادهم كما كانوا من قبل إلا أن الناس لايرونهم كما أنهم لايرون الملائكة مع أنهم أحياء.

١٥- زعمه أن النبي ﷺ يحضر بجسده مجالس أذكارهم وأورادهم وكذا الخلفاء الراشدون..الخ.

إلى غير ذلك مما يخالف أصول الإسلام ويعتبر شركاً وإلحاداً في الدين افتراءً على الله ورسوله وتشريعه وتضليلاً للناس وتهجماً منه

بعلمه الغيب والله الموفق- وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبد الله بن عبد الرحمن بن غديان	عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز

التعليق على

«مختصر تفسير ابن جرير»

قال رحمه الله: راجعتُ مختصر تفسير ابن جرير الطبري للقرآن الكريم فوجدته كما يلي:

١- ليس دقيقًا في التعبير عما فهمه واختصره من تفسير ابن جرير كما في تفسيره الرحمة بالرقة في بسم الله الرحمن الرحيم وقد يقتصر على بعض المعنى المطلوب كما في سورة الفاتحة.

٢- لم يستوعب تفسير الكلمات الغريبة بل اكتفى بتفسير جملة من الكلمات.

٣- قد يخطئ في اختياره كقوله في قصة زينب بنت جحش كان رسول الله ﷺ قد رأى زينب بنت جحش زوجة زيد فأعجبته. فأوقع الله في نفس زيد كراهتها فأراد فراقها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال ﷺ له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» وهو في ذلك يحب أن تكون قد بانت منه لينكحها «وتخشى الناس» أن يقولوا أمر رجلاً أن يطلق امرأته ثم نكحها حين طلقها ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ حاجة منها وهي الوطء ﴿لِكَيْ لَا﴾ لئلا، «حرج» إثم.. وكقوله في تفسير سورة النجم ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو منظر حسن أو ذو قوة ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي ارتفع واعتدل، ومعنى الكلام فاستوى جبريل ومحمد عليهما السلام وهو بالأفق

الأعلى. وكقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل علا عليها.

٤- وضع الكلمات القرآنية في الهامش على شكل مربع بالرسم اللاثملائي وقد حافظ على رسمها العثماني في المصحف. وعلى كل حال لا يمتاز في تفسيره للكلمات عن غيره. فالجميع فيه مأخذ.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم وأرى أن يكتفى بشراء مصاحف مجردة من التفسير وتوزع على الفنادق.

نائب رئيس اللجنة الدائمة
للبحوث العلمية والإفتاء
عبد الرزاق عفيفي

من أسباب الإنحراف والصدود عن الحق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين وبعد.

فللصدود عن الحق أسبابٌ عديدة وموانع كثيرة، منها الغرور الفكري، والتقليد عن غير بيِّنة وبصيرة، وتحكم العادات السيئة في النفوس، والأنفة والاستكبار، والحسد الممقوت، وطاغوت الافتتان بالمركز والجاه وكثرة المال، وما إلى ذلك، وكُلُّها أمراض أخلاقية وبيلة، وأدواءٌ مستعصية فتاكة، والحديث عنها يطول، فليكن حديثي في هذه الحلْقة عن الغرور الفكري:

الغرور الفكري هو إعجابُ الإنسانِ بعقله، وافتنانه برأيه، وإنزاله فوق منزلته وإعطاؤه من القداسة ما ليس بأهلٍ له، حتى يدخل فيما لايعنيه، وما ليس في وسعه وحدود طاقته، فيعارض العبد به ربه في خلْقه وتشريعه، فضلاً عن معارضته لنظرائه ومَنْ هو أوسع منه فكراً وأكثر تجربة من العلماء.

لقد وجد الشيطان منفذاً لوسوسته في اغترار قومٍ بعقولهم وعلومهم فاستهواهم وزيّن لهم أن يخوضوا فيما ليس من شأنهم، وأن يهجموا على بحث ما ليس في وسعهم بحثه.

من ذلك تفاصيل القضاء والقدر، وكُنه الله وصفاته وكيفيات ذلك،

فاضطربت أفكارهم، وتفرقت بهم السُّبل عن الجادة والصراط المستقيم، فمنهم من غلا في نفي ذلك، زعماً منه أنه سلك مسلك العدل والتنزيه لله عن الظلم والجور، وعارضوا بذلك نصوص الإثبات للقضاء والقدر، ومنهم مَنْ غلا في الإثبات حتى سلب المكلفين اختيارهم وأعمالهم، زعماً منهم أن نصوص عموم مشيئة الله واقتداره تنافي ثبوت الاختيار والكسب للمكلفين، فعارضوا بذلك الحس وأدلة الشرع والعقل، ولم يكن -من أقتحم باب البحث في كُنه الله وكيفيات صفاته فغلوا في ذلك نفياً- أو إثباتاً بأهدى سبيلاً مِن هؤلاء، بل وقع الجميع في حيرة ومتاهات لا نجاة لهم منها إلاّ بمعرفتهم قدر أنفسهم، والحدود التي يجب أن تنتهي إليها أفكارهم، ويعلمون أنهم لم يؤتوا من العلم إلاّ قليلاً، ويلتزموا بما جاء في شريعة الله، فما تبيَّن من ذلك وجب اعتقاده، وما لم يتبيّن من التفاصيل والكيفيات وجب التسليم له، والقول بما قال به الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[1]. وحرم الخوض فيه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2].

واستهوى الشيطان من هؤلاء المغرورين طائفة أخرى، فزيَّن لها أن تسنَّ قوانين من عند أنفسهم لتتحاكم إليها، وتفصل بها في خصوماتها، وسوّل لها أن تضع قواعد بمحض تفكيرها وهواها، تنُظِّم بها اقتصادها وسائر معاملاتها، محادةً لكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، وانتقاصاً لتشريعهما، وزعماً منها أن تشريع الله لايصلح للتطبيق والعمل به في عهدهم، ولا

(١) سورة آل عمران: الآية (٧).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٣٦).

يكفل لهم مصالحهم ولا يعالج ما جدَّ مِن مشاكلهم، حيث اختلفت الظروف والأحوال عما كانت عليه أيام نزول الوحي واتسع نطاق المعاملات، وكثُرت المشكلات، فلا بد لتنظيم المعاملات والفصل في الخصومات مِن قواعد وقوانين جديدة، يضعها المفكرون من أهل العصر الواقفون على أحوال أهله، المطلعون على المشاكل العارفون بأسبابها وطرق حلِّها لترتكز على واقع الحياة، وتتناسب مع أحوال الناس وظروفهم الحاضرة، ومع مستوى ثقافتهم وحضارتهم الراهنة.

فهؤلاء لم يقدروا عقولهم قدرها، ولم ينزلوها منزلتها، ولم يقدّروا الله حق قدره، ولم يعرفوا حقيقة شرعه، ولا طريق تطبيق منهجه وأحكامه، ولم يعلموا أن الله قد أحاط بكلِّ شيءٍ علْماً، فعلم ما كان وما سيكون من اختلاف الأحوال وكثرة المشاكل، وأنه أنزل شريعة عامة شاملة، وقواعد كلية محكمة، وقدَّرها بكامل علمه، وبالغ حكمته فأحسن تقديرها، جعلها صالحة لكل زمان ومكان، فمهما اختلفت الطبائع والحضارات، وتباينت الظروف والأحوال فهي صالحة لتنظيم معاملات العباد وتبادل المنافع بينهم، والفصل في خصوماتهم، وحل مشاكلهم، وصلاح جميع شؤونهم في عباداتهم ومعاملاتهم.

إن العقول التي منحها الله عباده ليعرفوه بها، وليهتدوا بفهمها لتشريعه إلى ما فيه سعادتهم في العاجل والآجل قد اتخذوا منها خصماً لدوداً لله، فأنكروا حكمته وحسن تدبيره وتقديره، وضاقوا ذرعاً بتشريعه وأساءوا الظن به فانتقصوه وردوه، وقد يصابون بذلك وهم لايدرون،

لأنهم لغرورهم بفكرهم عميت عليهم معالم الحق والعدل، فكانوا من الأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

وكانوا ممن ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[2].

إن الله سبحانه كثيراً ما يُذكِّر الناس في القرآن بأحوال المعتدين الهالكين، ويحثهم على أن يسيروا في الأرض لينظروا ما كانوا فيه من قوة ورغد عيش وحضارة وبسطة في العلم نظر عظة واعتبار، ليتنكبوا طريقهم، اتقاءً لسوء مصيرهم، ولفتُ النظر في بعض السور إلى جريمة الغرور الفكري، لشدة خطره، وبيَّن أنه الفتنة الكبرى التي دفعوا بها في صدور الرُّسل وردُّوا بها دعوتهم، ليعرفنا بقصور عقول البشر وأنها لا تصلح لمقاومة دعوة الرسل، وليحذرنا من خطر الغرور الفكري الذي هلك به من قاوم المرسلين. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الكهف: الآية (١٠٤).

(٢) سورة إبراهيم: الآيتان (٢٨ ـ ٢٩).

(٣) سورة غافر: الآيات (٨٢ ـ ٨٥).

إن اعتبار الإنسان لفكره واعتداده به درجات، منها المحمود ومنها المذموم فما جاوز الحد، وبلغ درجة الإعجاب بالرأي والعصبية له ودفع الحق به بعد أن يتبيَّن على نحو ما مضى من الحديث عنه فهو المحقوق، وما وقف بالمفكر عند حده فاعتقد ما فهم من الدليل عن بيِّنةٍ وبصيرة واعتز به لكونه الحق في نظره دون أن يعارض به صريح كتابٍ ولا صحيح سُنَّة ولا إجماع أُمَّة فليس بممقوت، بل هو الواجب عليه، وعلى تمسكه به يُحمد، لكن ينبغي له أن ينصف مناظره من نفسه، ويحترم فكر صاحبه كما يجب أن يقابله بمثل هذا الاحترام ليستمر البحث والمناظرة، ويتبين الحق من قريب مع المحافظة على الأخوة وأواصر المحبة والوئام[1].

والله الموفق. وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

---

(١) انظر مجلة التوعية الإسلامية ـ عدد ذي الحجة سنة (١٣٩٦هـ).

المبحث الحادي عشر

فتاواه وبحوثه

لما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد على العلم بما يُبلِّغ، والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفُتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق، فيكون عالماً بما يُبلّغ صادقاً فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضي السيرة عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا يُنكر فضله، ولا يُجهل قدره وهو من أعلى المراتب السنيات،فكيف بمنصب التوقيع عن ربِّ الأرض والسماوات، فحقيق بمن أُقيم في هذا المنصب أن يُعدَّ له عدته، وأن يتأهب له أُهبته وأن يعلم قدر المقام الذي أُقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به، فإن الله ناصره وهاديه، وكيف لا وهو المنصب الذي تولاه بنفسه رب الأرباب فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾[1].

وكفى بما تولاه الله بنفسه شرفاً وجلالة، إذ يقول سبحانه في كتابه ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾[2].

---

(١) سورة النساء: الآية (١٢٧).

(٢) سورة النساء: الآية (١٧٦).

وليعلم المفتي عمن ينوب في فتواه، وليوقن أنه مسؤول غداً وموقوف بين يدي الله.

وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين ﷺ، وإمام المتقين وخاتم النبيين، محمد عبد الله ورسوله ﷺ، فكان يفتي عن الله بوحيه المبين، فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام ومشتملة على فصل الخطاب، وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب، وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلاً، وقد أمر الله عباده بالردِّ إليها حيث يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[1].

ثم قام بالفتوى من بعده بركُ الإسلام، وعسكر القرآن، وجند الرحمن، ألين الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأحسنها بياناً، وأصدقها إيماناً، وأعمّها نصيحة، وأقربها إلى الله وسيلة، وكانوا بين مكثر فيها ومُقلٍّ ومتوسط. ثم صارت الفتوى من بعدهم في التابعين وتابعي التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا[2].

وممن قام بهذا العمل الشريف «الإفتاء» في عصرنا الحاضر، كوكبة من الأئمة الأعلام، الذين حفظوا على الأمّة معاقد الدين ومعاقله وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله، ومن هؤلاء الحملة العدول والعلماء الفحول الذين عنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، وخُصّوا باستنباط الأحكام فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -يرحمه الله- فقد كتب كمّاً هائلاً من الفتاوى والبحوث، وقد بلغ عدد الفتاوى التي قرأها ووقّع

---

(١) سورة النساء: الآية (٥٩).

(٢) نقلًا عن كتاب إعلام الموقعين (١/١٠ ـ ١٢) لابن القيم رحمه الله ـ بتصرف.

عليها وشارك في صياغتها قرابة خمسة عشر ألف فتوى وذلك من خلال عمله في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

لقد كان الشيخ -رحمه الله- مثالاً يحتذى في الفتاوى، دقّة في النقل والتزاماً في السلوك، وكان يختار من الألفاظ المعبرة ما يتضح به المعنى، ولقد بلغ مبلغاً عظيماً في احترام وتقدير أقوال العلماء، فإذا صدرت فتوى في مسألة وله رأيٌ مخالف فيها،وسأله أحد عن هذه الفتوى، أفتى بقول جماعة العلماء، وقد يحبس رأيه أحياناً عن المستفتي إذا وجد أن هذا الرأي قد يُحدث شقاقاً بينهم، ولا يبرزه إلا لطلبة العلم الذين يلتزمون الأدب عند الاختلاف، ويوقرون العلماء وينزلونهم منازلهم اللائقة بهم.

يقول فضيلة الشيخ يوسف المطلق[1]: «لقد نما إلى علمي أنه كان يقرأ كثيراً ولا يبت في الجواب على الفتوى إلا بعد تريث وسؤال عن دقائق الموضوع حتى يستوعب ويقوم عنده تصور صحيح دقيق للموضوع».

ويصفه أحد المستفتين- ممن نهلوا من علمه واستفادوا من فتاواه فيقول:

لقد كان -رحمه الله- رحب الصدر، عميق الفكر، واسع المدارك، عالماً بعصره وما يدور فيه، ولهذا كانت فتاواه وإجاباته عن أسئلة تلاميذه أقرب للواقع والعصر الذي نعيشه،وكان يستشيره عدد من كبار علمائنا الأفاضل ويأخذون برأيه في المسائل المختلفة وخاصة تلك التي لها

(١) انظر كلمة (هكذا عرفنا الشيخ عبد الرزاق) الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

مساس بالتجارب والخبرات والمسائل التي تتعلق بما ظهر في عصرنا وعالمنا من أمور حديثة.

في جلسة حوار دارت حول تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي بينه وبين عدد من خبراء الاقتصاد الذين ينشدون السعي لتطوير النظام الاقتصادي الإسلامي، سُئل الشيخ عبد الرزاق عفيفي عن إمكانات عديدة تسمح بالتدرج في تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي وعدم التشديد والتضييق أول الأمر فأجاب بقوله: يجب ألا نكتفي بالأسئلة النظرية التي ليس لها أي مردود عملي ثم أردف قائلاً: لقد درسنا كثيراً من الأمور النظرية، بل قدمنا فيها الفتوى المناسبة بهدف أن نجد التطبيق العملي لها. وإذا بها تتعثر لعدم وجود الدعم الكافي لها، أو أن الكثير تخطاها بفتاوى تجاوزت الحدود الإسلامية المقبولة. وذهبت مرة أستفتي أحد كبار العلماء الأفاضل في مسألة خاصة واستدعت الفتوى أن أُراجع العالم الفاضل وأستوضح بعض جوانب فتواه، ولم يزد ذلك عن سؤالين أو ثلاثة، وبُهِتُّ عندما هبَّ هذا العالم واقفاً وأقفل الحديث وخرج من المجلس. ذهبت بعدها مباشرة إلى الشيخ عبد الرزاق عفيفي وهو مريض على فراشه في غرفة نومه فأحسن استقبالي، وأحضر لي الشاي، وحاورته في مسألتي حتى اتضحت لي الأمور. وغادرت بيته معجباً بعلمه ورحابة صدره وصبره، وتمثلت فيه العالم القدوة ودعوت الله له بدعوات حارة صادرة من أعماق قلبي.

قلت: ومن هذا يتضح أن الشيخ عبد الرزاق -يرحمه الله- لم يكن عالماً متخصصاً يغلق فكره على فرع معين من فروع المعرفة، وإنما كان رجلاً متعدد المواهب، مجيداً في كل ما اقتحمه من ميادين العلم والمعرفة، فهو فقيه، محدِّث، أصولي، اقتصادي، عالم بالتحليل النفسي،خبيرٌ بالمجتمع

وتحركاته الظاهرة والخفية مطلع على مذاهب الفقهاء، ناقد بصير لاسيَّما ما يكتب في أمور العقيدة والتوحيد والفرق والمذاهب المعاصرة.

لقد كان -رحمه الله- ملتزماً بكل ما يقول ويكتب، فلم يكتب بحثاً أو يصدر فتوى إلا التزم بها سلوكاً، ولم يكن يعتمد على عموميات مشهورة في إصدار أحكامه وإنما كان يعتمد على الأدلة الصحيحة الصريحة التي تُبنى عليها فتاواه، فضلاً عن ذلك فإن الشيخ -رحمه الله- لم يكن متسرعاً في فتاواه، ولا يحاول الانتصار لنفسه فيما يقوله ويفتي به، بل كان يود أن غيره يكفيه الفتيا، وهذا والله مسلك الصالحين، ودأب الناصحين، وما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين.

فقد كانوا يكرهون التسرع في الفتوى ويُحذِّرون من ذلك أشد التحذير فعن عبد الرحمن بن أبي ليلي قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ، أراه قال في المسجد، فما كان منهم محدِّث إلا ودَّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا مفت إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفتيا[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ كلَّ من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون[2].

وقال سحنون بن سعيد: أجسرُ الناس على الفتيا أقلُّهم علماً، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه[3].

قلت: وأما بحوثه ورسائله فتتسم بالأصالة والعمق، والبعد عن الحشو والتعقيد فأسلوبه سهل ممتنع، يكاد من يقرأ له يستحضر شخصيته

---

(١) انظر إعلام الموقعين لابن القيم (٣٤/١).
(٢) انظر المرجع السابق.
(٣) انظر إعلام الموقعين لابن القيم (٣٤/١).

من خلال قراءاته له، ويدرك تماماً أنه يقرأ لعالم من الرعيل الأول، فما من مسألة أو بحث إلا ويوفيه حقَّه مع عرض المسائل مقرونة بالأدلة والتعليلات،وإسناد كل قول لصاحبه بأمانة وحسن نية، فمن يقرأ بحوث الشيخ وكتاباته، يعلم أنه يقرأ فقهاً مقارناً ويدرك أنه يطوف بنظره وفكره في مذاهب العلماء رحمهم الله.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أكثر هذه البحوث تُعنى بأمر المعتقد، وفقه البيوع والمعاملات والعناية بمسائل الحلال والحرام، ومن هذه البحوث القيِّمة بحث إثبات خلافة الخلفاء الراشدين، وفي هذا البحث وضَّح الشيخ ما ذكره ابن أبي العز في شرحه على «العقيدة الطحاوية» وضوحاً لا مزيد عليه. فقد ذكر أن الخلافة تثبت أحياناً بالنص من النبي ﷺ أو من الخليفة السابق، وتثبت أحياناً بالبيعة، ثم ذكر اختلاف العلماء فيما تثبت به الخلافة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فوضَّح الشيخ هذا الخلاف قائلاً:

اختلف العلماء فيما تثبت به الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه، فقيل ثبتت بالأمر الجلي من النبي ﷺ على أنه الخليفة من بعده، وقيل ثبتت بالنص الخفي منه على ذلك، وقيل ثبتت ببيعة ذوي الشأن وأهل الرأي له، واختيارهم إياه خليفة للمسلمين، ولم يتخلف عن بيعته إلاَّ عليّ بن أبي طالب وسعد بن عبادة رضي الله عنهما فقد تخلفا عن بيعته مدة ثم بايعا بعد ذلك.

وقد استدل من قال تثبت بالنص الجلي أو الخفي بما ثبت أن امرأة أتت النبي ﷺ، وكأنها تسأله عطاءً، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئتُ ولم أجدك، وكأنها تعني الموت، قال: «إن لم تجديني

فأتي أبا بكر وعمر».. رواه أصحاب السنن، واستدلوا أيضاً بما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدئ فيه، فقال: «ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً، ثم قال: يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر»، وبما رواه البخاري ومسلم أيضاً أن النبي ﷺ قال على بعيره: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سُدَّت إلا خوخة أبي بكر». واستدلوا بقول النبي ﷺ في مرض موته: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»، ولما رُوجع في ذلك مرات لم يأمر غيره بالصلاة بالناس، بل كرَّر الأمر بصلاة أبي بكر بهم، فتوفي رسول الله ﷺ وأبو بكر هو الذي يُصلِّي بالناس، قالوا: ارتضاه رسول الله ﷺ في أمر ديننا، أفلا نرضاه إماماً لنا في أمر دنيانا.

ثم ذكر الشيخ بعد ذلك أدلة من قالوا بثبوت الخلافة بالبيعة لا بالنص ثم ختم كلامه في هذا المبحث بما رجحه ابن تيمية من ثبوت الخلافة لأبي بكر ببيعة الصحابة له، واختيارهم إياه.

وبعد هذه المقتطفات من هذا البحث القيِّم، رأيت أنه من الأكمل أن أضع بين يدي القارئ الكريم نماذج من بحوث الشيخ بصورتها المتكاملة، وما أضيف إليها مما هو منها، وغالب ظني أنها لم تُنشر من قبل، ولعلَّ ذلك راجع إلى عزوفه -رحمه الله- عن النشر، وزهده في الشهرة وإيثاره للظل، ثم أتبعت ذلك كلَّه بنماذج مختارة من فتاوى الشيخ وما شابهها من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، إتماماً للفائدة وتعميماً للنفع، وقد بدا لي أن أبدأ بإيراد الفتاوى أولاً ثم البحوث ثانياً، مراعاة للترتيب وتمشياً مع العنوان.

العذر بالجهل

سُئل رحمه الله: هل يوجد عذر بالجهالة في أصل التوحيد، علماً بأن بعض أهل السنة ذكر أنه لا عذر لأحد بالجهل في أصل التوحيد.

إن وجوب الإيمان بالله تعالى ورُسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر، وما يتصل بذلك من أصول وفروع والعمل بمقتضاه: يتوقف على البلاغ الصحيح ومعرفة ما تضمنه البلاغ من الحق، وهذا مما يتفاوت بتفاوت الناس في مداركهم وقواهم العقلية، وكثرة العلماء والدعاة إلى الإسلام، وما إلى هذا مما يتيسر معه معرفة الحق وتأييده واستبانة شُبَه الباطل وتمييزها من الحق والقضاء عليها، أو بُعدهم عن ديار الإسلام والدعاة إليه، وما إلى ذلك من الحواجز التي يشق معها الوصول إلى معالم شرع الله تعالى والوقوف على حقيقته جملة أو التبحر فيه.

فيجب أن يُراعى ذلك وأمثاله في الحكم على الناس، فقد يجب على بعض الناس الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ وما جاء به من عند الله إجمالاً، إذا لم يبلغه إلاَّ ذلك، ولم يتيسر له سواه مع بذل وسعه في التعرف على الحق، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار». رواه مسلم.

ولما ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ «أن رجلاً رزقه الله مالاً، قال لبنيه لما حضره الموت: أي أب كنت لكم، قالوا خير أب، قال: فإني لم أعمل خيراً قط، فإذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني، ثم ذروني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله عز وجل، فقال: ما حملك، قال: مخافتك، فتلقاه برحمته» متفق عليه، ورواه البخاري عن حذيفة أيضاً ورواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وسُئل -رحمه الله- عن حكم من أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، ومن خالف حكماً ثابتاً بالكتاب والسنة وإجماع الأمة فأجاب رحمه الله:

أولاً: إذا خالف مسلم حكماً ثابتاً بنصٍّ صريح من الكتاب والسُّنة لا يقبل التأويل، ولا مجال فيه للاجتهاد، أو إجماعاً قطعياً ثابتاً، بُيِّن له الصواب في الحكم، فإن قَبِلَ فالحمد لله، وإن أبى بعد البيان وإقامة الحجة وأصر على تغيير حكم الله حُكِم بكفره، وعومل معاملة المرتد عن دين الإسلام، مثال ذلك من أنكر الصلوات الخمس أو إحداها، أو فريضة الصيام أو الزكاة أو الحج إلى بيت الله الحرام، وتأوّل ما دلَّ عليها من نصوص الكتاب والسنة ولم يعبأ بإجماع الأمة.

وإذا خالف حكماً ثابتاً بدليل مختلف في ثبوته، أو قابل للتأويل بمعان مختلفة وأحكام متقابلة فخلافه خلاف في مسألة اجتهادية فلا يُكفر، بل يعذر في ذلك من أخطأ، ويؤجر على اجتهاده أجراً واحداً، وعمله بهذا الاجتهاد مشروع، ويحمد من أصاب، ويؤجر أجرين، أجراً على اجتهاده وأجراً على إصابته، مثال ذلك: من أنكر وجوب قراءة الفاتحة على المأموم، ومن قال بوجوب قراءتها عليه، ومثاله أيضاً من قال بوجوب العمرة، ومن قال ليست واجبة، بل سُنّة، ومن قال بتوريث

الإخوة مع الجد، ومن خالفهم فقال: بحجبهم بالجد.. فمثل هذا لا يجوز تكفيره ولا إنكار الصلاة وراءه، ولا يحرم الأكل من ذبيحته، بل تجب مذاكرته والتفاهم معه في ذلك على ضوء الأدلة الشرعية، لأنه أخ مسلم له حقوق المسلمين، والخلاف في مثل هذه المسائل خلاف في مسائل فرعية اجتهادية، جرى مثلها في عهد الصحابة رضي الله عنهم وأئمة السلف، ولم يُكفّر بعضهم بعضاً، ولم يهجر بعضهم بعضاً من أجلها.

وفي الصفحات التالية فتوى للجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء في هذا الخصوص أحببت أن يطّلع القارئ عليها نظراً لأهمية الموضوع وخطورته وخفائه على بعض طلبة العلم.

فتوى رقم ١١٠٤٣ وتاريخ ١٤٠٨/٥/٢٠هـ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه.. وبعد:

فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على السؤال المقدم من جمال بن ضاحي بن عبد رب الرسول بن شاويش إلى سماحة الرئيس العام، والمحال إليها برقم ٣٣٤٠ في ١٤٠٥/٧/٢٠ ونصه:

«عندنا تتفشى ظاهرة عبادة القبور وفي نفس الوقت وجود من يدافع عن هؤلاء ويقول: إنهم مسلمون معذورون بجهلهم فلا مانع من أن يتزوجوا من فتياتنا وأن نُصلِّي خلفهم وأن لهم كافة حقوق المسلم على المسلم، ولا يكتفون بذلك بل يُسمّون من يقول بكفر هؤلاء أنه صاحب بدعة يعامل معاملة المبتدعين بل ويَدَّعوا أن سماحتكم تعذرون عبَّاد القبور بجهلهم حيث أقررتم مذكرة لشخص يدعى الغباشي يعذر فيها عبَّاد القبور. لذلك أرجو من سماحتكم إرسال بحث شاف كافٍ تُبينُّ فيه الأمور التي فيها العذر بالجهل من الأمور التي لا عذر فيها، كذلك بيان المراجع التي يمكن الرجوع إليها في ذلك ولكم منَّا جزيل الشكر».

يختلف الحكم على الإنسان بأنه يعذر بالجهل في المسائل الدينية أو لا يعذر باختلاف البلاغ وعدمه، وباختلاف المسألة نفسها وضوحاً وخفاء، وتفاوت مدارك الناس قوة وضعفاً.

فمن استغاث بأصحاب القبور دفعاً للضر أو كشفاً للكرب، بُيِّن له

أن ذلك شرك، وأقيمت عليه الحجة أداءً لواجب البلاغ، فإن أصر بعد البيان فهو مشرك يعامل في الدنيا معاملة الكافرين واستحق العذاب الأليم في الآخرة إذا مات على ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾(٢).

وثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لايسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم مات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على وجوب البيان وإقامة الحجة قبل المؤاخذة، ومن عاش في بلاد يسمع فيها الدعوة إلى الإسلام وغيره ثم لا يؤمن، ولا يطلب الحق من أهله، فهو في حكم من بلغته الدعوة الإسلامية وأصر على الكفر، ويشهد لذلك عموم حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم، كما يشهد له ما قصَّه الله تعالى من نبأ قوم موسى إذ أضلهم السامري فعبدوا العجل وقد استخلف فيهم أخاه هارون عند ذهابه لمناجاة الله، فلما أنكر عليهم عبادة العجل قالوا: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى، فاستجابوا لداعي الشرك، وأبوا أن يستجيبوا لداعي التوحيد فلم يعذرهم الله في استجابتهم لدعوة الشرك والتلبيس عليهم فيها لوجود الدعوة للتوحيد إلى جانبها مع قرب العهد بدعوة موسى إلى التوحيد.

ويشهد لذلك أيضاً ما قصَّه الله من نبأ نقاش الشيطان لأهل النار

---

(١) سورة الإسراء: الآية (١٥).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٩).

وتخلّيه عنهم وبراءته منهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

فلم يُعذروا في تصديقهم وعد الشيطان مع مزيد تلبيسه وتزيينه الشرك واتباعهم لما سوَّل لهم من الشرك لوقوعه إلى جانب وعد الله الحق بالثواب الجزيل لمن صدق وعده فاستجاب للشريعة واتبع صراطه السوي.

ومن نظر في البلاد التي انتشر فيها الإسلام وجد من يعيش فيها يتجاذبه فريقان، فريق يدعو إلى البدع على اختلاف أنواعها شركية وغير شركية ويُلبِّس على الناس ويزين لهم بدعته بما استطاع من أحاديث لا تصح وقصص عجيبة غريبة يوردها بأسلوب شيق جذاب، وفريق يدعو إلى الحق والهدى ويُقيم على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة، ويبين بطلان ما دعا إليه الفريق الآخر وما فيه من زيف فكان في بلاغ هذا الفريق وبيانه الكفاية في إقامة الحجة وإن قَلَّ عددهم فإن العبرة ببيان الحق بدليله لا بكثرة العدد، فمن كان عاقلاً وعاش في مثل هذه البلاد واستطاع أن يعرف الحق من أهله إذا جد في طلبه وسلم من الهوى والعصبية،ولم يغتر بغنى الأغنياء، ولا بسيادة الزعماء، ولا بوجاهة الوجهاء، وإلا اختل ميزان تفكيره، وألغى عقله، وكان من الذي قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٢٢).

يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[1].

أما من عاش في بلاد غير إسلامية ولم يسمع عن النبي ﷺ ولا عن القرآن والإسلام، فهذا على تقدير وجوده، حكمه حكم أهل الفترة يجب على علماء المسلمين أن يبلغوه شريعة الإسلام أصولاً وفروعاً إقامة للحجة وإعذاراً إليه، ويوم القيامة يعامل معاملة من لم يكلف في الدنيا لجنونه أو بلهه أو صغره وعدم تكليفه. وأما ما يخفى من أحكام الشريعة من جهة الدلالة أو لتقابل الأدلة وتجاذبها فلا يقال لمن خالف فيه آمن وكفر ولكن يقال أصاب وأخطأ فيعذر فيه من أخطأ ويؤجر.

اللجنة الدائمة

نائب رئيس	اللجنة الرئيس
عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز

(١) سورة الأحزاب، الآيات (٦٤ ـ ٦٨).

حكم الموسيقى

سُئِل رحمه الله عن حكم الموسيقى بجميع أنواعها ومختلف أدواتها فأجاب:

الموسيقى من أنواع اللهو، وكل لهو باطل لما ثبت من قوله ﷺ: «كل شيء يلهو به ابن آدم باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديب فرسه، وملاعبة زوجته». فهي محرمة أيًا كانت آلاتها، وكيفما كانت طرق استعمالها سواء كانت مصحوبة بغناء أم لا، والمصحوبة بغناء أشد تحريماً.

وسُئل رحمه الله عن حكم استخدام الطبل والدفوف فأجاب:

الطبل والدف: الطبل يكون ذا أوجه وذا وجهين ويسمى الكوبة فهو أيضاً من أنواع اللهو، وكل لهو باطل لما تقدم من الآية والحديث وكذا الدف إلا أنه رُخِّص في استعماله في إعلان النكاح للنساء خاصة دون الرجال.

وقد صدر منا فتوى في ذلك هذا نصها: «إعلان النكاح سنة لقول النبي ﷺ (إعلنوا النكاح) رواه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم ومن وسائل إعلانه الضرب بالدف لكنه من النساء دون الرجال لثبوته منهن عملياً دون الرجال في الصدر الأول وقد وردت أحاديث في الضرب بالدف في النكاح منها ما رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها عن

النبي ﷺ أنه قال: «إعلنوا النكاح واضربوا عليه بالغربال» أي الدف وفي سنده عيسى بن ميمون وهو ضعيف، وأخرجه ابن ماجه وفي إسناده خالد بن إياس وهو منكر الحديث وروى من طرق أخرى لا تخلو من مقال، فلا يصح الاستدلال بهما على جوازه للرجال.

وﷺ على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

عبد الرزاق عفيفي

❁ ❁ ❁

حكم سماع الأغاني

وفيما يلي فتوى في حكم سماع الأغاني للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء هذا نصُّها:

سؤال وجواب في حكم سماع الأغاني

فتوى رقم ٣٧١٩ وتاريخ ١٤٠١/٦/١٠هـ

س: ما حكم سماع الأغاني؟

جـ: الأصل تحريم استماع الأغاني وقد صدرت فتوى من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء هذا نصها: الاستماع للصوت يتضمن معنى الميل له والإصغاء إليه فاستماع الأغاني فيه معنى الميل لها والإصغاء إليها، أما السماع فقد يكون عن قصد وإصغاء فيسمّى استماعاً أيضاً ويأخذ حكمه، وقد يكون من غير قصد ولا إصغاء للصوت فلا يُسمّى استماعاً ولا يحكم له بحكمه،وعلى ذلك فالاستماع إلى ما ذكر السائل من الأغاني المشتملة على جميع أنواع الطرب محرَّم على كل من أصغى إليها، رجلاً كان أم امرأة، في بيته أو في غير بيته كالسيارات والمجالس العامة والخاصة، لما له في ذلك من الاختيار والميل إلى المشاركة فيما حرمته الشريعة.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن

سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

وما ذكره السائل من الغناء هو من لهو الحديث، فإنه فتنة للقلب يستهويه إلى الشر ويصرفه عن الخير ويضيع على الإنسان وقته دون جدوى فيدخل في عموم لهو الحديث ويدخل من غنَّى ومن استمع إلى تلك الأغاني في عموم من اشترى لهو الحديث ليصرف نفسه أو غيره عن سبيل الله، وقد ذمَّ الله ذلك وتوعد مَنْ فعله بالعذاب المهين، وكما دلَّ القرآن بعمومه على تحريم الغناء والاستماع إليه دلَّت السُّنة عليه من ذلك قوله ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف ولينزلنَّ أقوام إلى جنْب عَلَم يَروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم -يعني الفقير- رجلٌ لحاجة فيقولون ارجع إلينا غداً فيُبيِّتهم الله ويضع العَلَمَ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة» رواه البخاري[2] وغيره من أئمة الحديث. والمعازف: اللهو وآلاته ومن ذلك الغناء والاستماع إليه فذَّم رسول الله ﷺ من يستحلون الزنا ولبس الرجال للحرير وشرب الخمور وآلات اللهو والاستماع لها وقرن المعازف بما قبلها من الكبائر، وتوعد في نهاية الحديث من فعل ذلك بالعذاب. فدل على تحريم العزف بآلات اللهو والاستماع إليها، أما السماع دون قصد ولا إصغاء كسماع من يمشي في الطريق غناء آلات اللهو في الدكاكين أو ما يمر به من السيارات ومن يأتيه وهو في بيته صوت الغناء من بيوت جيرانه دون أن يستهويه ذلك- فهذا مغلوب

---

(١) سورة لقمان، الآية (٦).

(٢) البخاري (الفتح ٥٥٩٠/١٠) في الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحلُّ الخمر ويُسميه بغير اسمه بصيغة التعليق، قال الحافظ في الفتح (٥٢/١٠): والحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح.

على أمره لا إثم عليه، وعليه أن ينصح وينهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، ويسعى في التخلص مما يمكنه التخلص منه وشعه، وفي حدود طاقته فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد جرى جماعة من العلماء على أن يستدلوا على مطلوبهم بالأدلة الصحيحة، ثم يتبعوا ذلك بأحادث فيها شيء من الضعف في سندها أو في وجه دلالتها على دعواهم وهذا لا يضرهم، في ثبوت أصل مطلوبهم فإنهم ذكروا ذلك على سبيل الاستئناس والاستشهاد، لا على سبيل الاحتجاج والاعتماد، من ذلك ما يذكره بعض العلماء من الأحاديث في مقام تحريم الغناء والاستماع إليه بعد إثباته بالأدلة الصحيحة، فلا يضر الطعن فيها فيما ذُكِر تبعاً في ثبوت التحريم بما استدلوا به أولاً وأصالة من الأدلة الصحيحة، فمن ذلك ما رواه الحكيم الترمذي عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يستمع إلى الروحانيين في الجنة»، والثاني ما رواه ابن عساكر عن أنس أن النبي ﷺ قال: «من استمع إلى قينة صُبّ في أذنيه الآنك[1] يوم القيامة» وما رواه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي عن ابن مسعود عن قول النبي ﷺ: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»، وما رواه البيهقي عن جابر من قول رسول الله ﷺ: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع». وما رواه أبو داود عن سلام بن مسكين عن شيخ شهد أبا وائل في وليمة فجعلوا يلعبون ويتغنون فحلّ أبو وائل حبوته وقال سمعت عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغناء ينبت النفاق في القلب».

(١) الآنك: الرصاص المذاب.

فهذه الأحاديث ضعيفة لكن لا يُؤثِّر ضعفها في تحريم الغناء والاستماع إليه لثبوت التحريم بأدلة أخرى صحيحة من الكتاب والسُّنة، أما العرضات الشعبية ففيها تفصيل لاختلاف أنواعها والمقتضى لها ويمكن أخذ حكمها مما ذكر في الفتوى.

وبالله التوفيق وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبد الله بن قعود	**عبد الله بن غديان**	**عبد الرزاق عفيفي**	**عبد العزيز بن عبد الله بن باز**

حكم التمثيل

سئل رحمه الله عن حكم التمثيل فأجاب:

أ- إذا كانت أهداف كلٍّ من التمثيل للمواقف التاريخية، وللمواقف المعاصرة الواقعة- نبيلة باعثة على الخير، ولم يكن فيها كذب ولا افتراء، ولا انتقاص لشخصيات إسلامية أو مجتمع إسلامي، ولم يكن مما يتوقع من ورائه حدوث فتنة أو إثارة شر فهو جائز، وإلا فلا.

ب- أما التمثيل الفكاهي غير جائز، لأن المقصود منه مجرد التسلية والترويح عن النفس، مع غلبة اللهو عليه، وعدم المبالاة، وكثرة المزاح الكاذب، والكلمات المبتذلة، والأساليب الساخرة المرذولة وأمثال ذلك مما يتفق مع ذوي الأهواء، ويضحك النفوس المريضة، ويسري عنها الهموم، لكنه من غير شك يثير الفتن ويبعث الشر من مكمنه، ويسيء إلى المجتمع، ويذهب بمكارم الأخلاق، وعملٌ هذا شأنه، وهذه عواقبه ونتائجه يأباه الشرع وتنفر منه الفِطَرُ السليمة.

حكم تربية الحمام والأرانب
بمكة المكرمة وذبحها فيها

سئل -رحمه الله- عن حكم تربية الحمام والأرانب بمكة المكرمة، وذبحها فيها، هل يجوز أم لا؟

الأصل في الطيور وسائر الحيوانات أنها مباح ذبحها وأكلها، إلا ما نص الشرع على تحريمه من كل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطير، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[2] ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ..﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٩).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٤٥).

(٣) سورة المائدة: الآية (٣).

(٤) سورة المائدة: الآيتان (٩٤ - ٩٥).

الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير» رواه مسلم، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل ذي ناب من السباع فأكله حرام». وقال ابن عمر رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ عن أكل الجلالة وألبانها، رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، ولم يرد نص في الشريعة بتحريم شيء إلا ما كان منها غير مستأنس وصاده محرم بحج أو عمرة أو صيد بالحرم فهو محرم لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾[2]. وقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

وقول رسول الله ﷺ: «إن الله حرم مكة فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أُحلَّت لي ساعة من نهار، لا يُختلى خلالها، ولا يُعضد شجرها، ولا يُنفر صيدها..» الحديث رواه البخاري. وقوله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، لا يقطع عِضاهُها[3] ولا يُصادُ صيدها» رواه مسلم. وعلى هذا فكل ما صاده غير المحرم في الحل ودخل به الحرم أو أخذه منه مُحرم بشراء أو هبة أو إرث فحلال للمحرم ولمن بالحرم ملكه وذبحه وأكله، ومن أحرم وبيده صيدا أو في منزله أو في قفص عنده، وقد ملكه قبل ذلك فحلال له كما كان من قبل، فله ذبحه وأكله وبيعه، وإنما يحرم على المحرم وعلى من في الحرم ابتداءً تصيّد الصيد فقط، فإن فعل فلا يملكه، وإن ذبحه فهو ميتة.

---

(١) سورة المائدة: الآية (٩٦).

(٢) سورة المائدة: الآية (٩٥).

(٣) العضاه كل شجر يعظم وله شوك.

قال هشام بن عروة: كان أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بمكة تسع سنين يراها في الأقفاس، وأصحاب رسول الله ﷺ يقدمون بها القماري واليعاقيب لا ينهون عن ذلك، وروى ابن حزم عن مجاهد لا بأس أن يدخل الصيد في الحرم حياً ثم يذبحه، وروي أيضاً أن صالح بن كيسان قال: رأيت الصيد يباع بمكة حياً في إمارة ابن الزبير[1].

(١) انظر المصورات الخطية الفصل الثامن (رسائل ووثائق).

نمـــاذج مـــن بحـــوثـــه

الجنة والنَّار[1]

مبحث في أنَّ الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وأنهما باقيتان لاتفنيان.

هذا المبحث يتضمن أمرين:

الأول: خلْق الجنة والنار ووجودهما في الدنيا.

والثاني: بقاؤهما أبد الآبدين.

وفي كل منهما خلاف بين العلماء، وفيما يلي بيان مذهب أهل السنة ومخالفيهم في الأمرين مع الدليل.

١- **الأمر الأول**: اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار موجودتان في الدنيا. ولم يعرف لهم مخالف في صدر الإسلام، واستدلوا على ذلك بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[2].

---

(١) هذا المبحث من المباحث التي كتبها الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ بيده وهو تلخيص جيد لمبحث من مباحث العقيدة الطحاوية مع شرحها.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٣٣).

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1]. فدل التعبير عن إعداد الجنة للمؤمنين بالفعل الماضى على أنها موجودة بالفعل في الدنيا، وقوله تعالى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[3] وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[4].

فدل التعبير بالماضي على أن النار وُجدتْ فعلاً.

وأما السُّنة فالأحاديث الدالة على وجودهما الآن كثيرة، منها مارواه البخارى ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**»[5].

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك، لا يسمع بها**

---

(١) سورة الحديد: الآية (٢١).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٤).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٣١).

(٤) سورة النبأ: الآية (٢١).

(٥) حديث متفق على صحته رواه البخاري في الجنائز (الفتح ١٣٧٩/٣) ومسلم (٢١٩٩).

أحد إلاّ دخلها، فأمر بالجنة فحُفَّت بالمكاره، فقال: إرجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك، لقد خشيت ألا يدخلها أحد، قال ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها: فنظر إليها فإذا هي نفحة يركب بعضها بعضاً، ثم رجع فقال: وعزتك، لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، ثم قال: إذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها فرجع فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها»(١).

فهذان الحديثان صريحان في إعداد كلٍّ من الجنة والنار لأهلها.

وروى مالك في الموطأ وأصحاب السنن من حديث كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما نسمة المؤمنين طير تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة»(٢).

وجاء في حديث خسوف الشمس أن النبي ﷺ رأى الجنة والنار وهو يخطب أصحابه وأنه حدثهم عنها(٣).

وأما الإجماع فإن صدر هذه الأمة لم يزالوا على القول بوجودهما في الدنيا حتى نبتت نابتة من القدرية والمعتزلة فأنكرت ذلك. وهم محجوجون بالنصوص وبإجماع الأمة قبل وجودهم.

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤٧٤٤) والنسائي (٣/٧) والترمذي (٢٥٦٠) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، ولم أجد هذا الحديث في صحيح مسلم كما ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ.

(٢) رواه مالك في الموطأ، والنسائي في الجنائز (٢٤٤٥) وابن ماجه في الزهد (٤٢٧١) وصححه الألباني. وانظر صحيح سنن أبي داود (١٩٦٠/٢).

(٣) حديث متفق عليه، رواه البخاري في الكسوف (الفتح ١٠٥٢/٢) ومسلم (٦٢٦).

شبهة من أنكر وجود الجنة والنار الآن.

* قالوا أولاً: خلق الجنة والنار قبل يوم الجزاء عبث - لأن كُلاً منهما تبقى معطلة مدة طويلة دون أن يجزى بها أحد، والعبث محال على الله.

* وأجيب أولاً: بأنه معارضة للنصوص الصحيحة الصريحة بالفعل في أمر غيبي لا يعرف إلا من قِبَل النقل.

وثانياً: بأن وجودهما في الدنيا فيه فائدة، لأن المؤمنين ينعمون في قبورهم وأرواحهم نسمات تعلق في شجر الجنة، والكفار يعذبون في قبورهم بالعرض على النار ورؤية كل منهم لمقعده فيها إلى أن يبعثه الله كما تقدم بيانه، فوجودهما ليس بعبث.

* واستدلوا ثانياً: بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[2].

قالوا فلو كانتا موجودتين الآن لهلكتا وذاق كل من فيهما الموت عند النفخة الأولى في الصور من أجل إنهاء الدنيا وتخريبها.

* وأجيب: بأن كلا من الجنة والنار مستثنى مما يصيبه الهلاك والفناء عند النفخة الأولى لأنهما خلقتا للبقاء، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[3] داخلتان في عموم ﴿مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بقاءه جمعاً بين الأدلة.

وأيضاً المعنى كل شيء كتب عليه الهلاك أو ذوق الموت هالك،

---

(١) سورة القصص: الآية (٨٨).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٨٥).

(٣) سورة الزمر: الآية (٦٨).

والجنة والنار ليستا مما كتب عليه الهلاك، لأنهما خلقتا للجزاء، وأيضاً معنى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ كل عمل حابط إلاّ ما أريد به وجه الله، بدليل قوله فى صدر الآية: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

* واستدلوا ثالثاً: بما ذكره الله عن امرأة فرعون من قولها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[1]. وبقول رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم بأن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر»[2].

وقوله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة» رواهما الترمذي في سننه[3].

قالوا: فلو كانت الجنة مخلوقة مفروغاً منها لما طلبت امرأة فرعون من ربها أن يبني لها بيتاً فيها، وقال ﷺ: «إنها قيعان، وأنها لا تزال يغرس فيها كلما كان التسبيح والحمد والتهليل والتكبير من العابدين».

* وأجيب: بأن ما ذكرتم دليل على وجود الجنة الآن لا على عدمها إلاّ أنها لا تزال يخلق الله فيها أنواعاً من النعيم ما ذكره الذاكرون، بل يجدد الله فيها يوم القيامة أنواعاً من النعيم فالإنشاء فيها مستمر اليوم ويوم القيامة والنعيم فيها متجدد أبد الآبدين.

---

(١) سورة التحريم: الآية (١١).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٦٢) وقال: حديث حسن. وحسّنه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٦٢)، (٣٤٦٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٦٤).

٢-الأمر الثاني: اتفق أهل السنة على أن الجنة لا تفنى، وذهب الجمهور منهم إلى أن النار أيضاً لا تفنى وقالت: طائفة قليلة منهم بفناء النار.

والدليل على بقاء الجنة قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[5].

واختلف السلف فى الاستثناء من خلود المؤمنين فى الجنة ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

* فقيل: إنه استثناء للمدة التى يمكثها عصاة المؤمنين في النار قبل دخولهم الجنة من مدة خلودهم في الجنة، فالمعنى: يخلد المؤمنون في الجنة ما دامت السماوات والأرض إلا مدة شاء ربك أن يقضيها عصاة المؤمنين في النار قبل دخولهم الجنة:

* وقيل: إنه استثناء الرب ولا يفعله، كقولك: والله لا أكرمن إلاّ أن أرى غير ذلك وأنت لا ترى إلاّ إكرامه.

---

(١) سورة الرعد: الآية (٣٥).
(٢) سورة الدخان: الآية (٥٦).
(٣) سورة الحجر: الآية (٤٨).
(٤) سورة ص: الآية (٥٤).
(٥) سورة هود: الآية (١٠٨).

* وقريب منه ما قيل: من أن الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله، لا أنهم باستقرارهم في الجنة وتمكنهم فيها خرجوا من مشيئة الله.

ولاينافي ذلك عزمه وجزمه لهم بالخلود، ونظيره:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[1]. وهو سبحانه بقاء ما أوحى به إلى رسوله، وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2] وهو سبحانه لا يشأ الختم على قلب رسوله، بل أراد له استمرار الهداية والإمداد بالنور وصفاء البصيرة.

وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾[3].

وقد شاء سبحانه إعلامهم به، وتلاوة رسوله القرآن عليهم، إلى غير هذا من النظائر التي يقصد بذكر المشيئة فيها اثبات كمال الاختبار، وأن الأمور لم تخرج من دائرة تقديره سبحانه وتصريفه، واختار ابن جرير أن «إلا» بمعنى «لكن» وعليه يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى خالدين فيها سوى ما شاء ربك من زيادة النعيم، أولكن هنا من زيادة النعيم والإكرام على الخلود ما لا يقدر قدره إلاّ الله. فليس المراد: قطع أمد الخلود ولكن المراد زيادة نعيم إلى جانب خلودهم في الجنة بدليل: ما ختمت به الآية من قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

والدليل من السنة على أبدية الجنة قوله ﷺ: «**من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ويخلد ولا يموت**» رواه مسلم.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٦).

(٢) سورة الشورى: الآية (٢٤).

(٣) سورة يونس: الآية (١٦).

وقوله: «ينادي منادياً أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً» رواه مسلم.

وقوله :« يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» رواه مسلم.

* أما أبدية النار: ففيها آراء كثيرة، للسلف منها رأيان:

الرأي الأول: رأي جمهور السلف، قالوا إن النار باقية لا تفنى، ومن دخل بقي مخلدا فيها أبداً إلاّ من دخلها من عصاة المؤمنين فأنهم يخرجون منها على ما تقدم بيانه في مبحث الشفاعة.

واستدلوا على بقائها ومن بها من الكافرين بقوله تعالى :﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(1). وقوله :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(2). وقوله:﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾(3).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾(4).

وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾(5).

---

(1) سورة البقرة: الآية (١٦٧).

(2) سورة المائدة: الآية (٣٦).

(3) سورة الزخرف: الآية (٧٥).

(4) سورة فاطر: الآية (٣٦).

(5) سورة النبأ: الآية (٣٠).

وقوله: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[1].

وقولـه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

* الرأي الثاني: أن النار تفنى بعد أن يستوفي الكفار نصيبهم من العذاب فيها ونسب القول بهذا إلى: عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة من الصحابة رضي الله عنهم- وبه قال ابن تيمية وابن القيم وجماعة.

واستدل لهذا الرأي بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[3]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[4].

قالوا: استثني من الخلود في الآيتين بقوله في الآية الأولى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وبقوله في الآية الثانية: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ولم يأت بعد الاستثناءين ما يدل على عدم الانقطاع وانتهاء العذاب كما جاء عقب الاستثناء من الخلود في نعيم الجنة، فإن الآية ختمت بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وهو دال على دوام النعيم واستمراره، فكان قرينة على أن

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٩٧).

(٢) سورة النساء: الآية (٥٦).

(٣) سورة الأنعام: الآية (١٢٨).

(٤) سورة هود: الآيتان (١٠٦ ـ ١٠٧).

الاستثناء الذي قبله لا يراد به الإخراج، إنما يراد به إثبات كمال الاختيار.

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ فجعل اللبث فى النار مدة محدودة فدل على انتهاء العذاب، واستدلوا أيضاً بأن النار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد روى البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي»، وفي رواية: «تغلب غضبي»[1].

قالوا: فلو بقي الكفار في النار، ولم تفن النار لكان غضبه قد سبق رحمته وفي هذا خلف لخبر الصادق ﷺ عن ربه، وخلف خبره مستحيل.

قالوا وما ورد من النصوص الدالة على خلود الكفار فيها أبداً وعدم خروجهم منها فلا نزاع فيه، لكنه يقتضي البقاء في العذاب ما دامت النار باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد، وهناك فرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس قائم، وبين من ينهدم حبسه وينقض بناؤه، فيبطل حبسه وينتهي سجنه بانتقاض البناء، وقد يناقش هذا بأنه وإن صلح جواباً عند أدلة الخلود فلا يصح جواباً عن النصوص الصريحة في أن عذابها مقيم، وأنه كان غراما، وأن النار كلما خبت زادها الله سعيراً، وأنهم لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف بل يزيدهم الله عذاباً، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

اللهم إلاّ أن يقال: إن الاستثناء بالمشيئة فى الآيتين السابقتين مسلط على جميع النصوص التى دلت على دوام العذاب واستمراره، وعلى كل حال فالموضوع من شؤون الله، فليترك إلى الله سبحانه. والله أعلم.

---

(١) حديث متفق عليه، البخاري (الفتح ١٣/٧٤٥٣) ومسلم (٢٧٥١).

وجوب الإيمان بالبعث[1]

وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان

أ- البعث: هو إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم يوم القيامة، ويُسمَّى يوم المعاد لإعادة الأرواح إلى الأبدان فتعود بهذا الحياة إلى الأبدان، ويُسمَّى أيضاً يوم النشور، لانتشار المخلوقات إلى الموقف، ويسمىٰ يوم الدين، لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم، أي يجزون عليها، وقد دلّ الكتاب والسُّنة والإجماع على وجوب الإيمان ببعث الأبدان بعد نفخ الأرواح فيها، كما جاءت شرائع الأنبياء السابقين بالإخبار عنه ووجوب الإيمان به.

قال الله تعالى مخاطباً آدم وزوجته وإبليس: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[2].

وقال تعالى في بيان دعوة نوح قومه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر:

(١) هذا البحث كسابقه من البحوث التي كتبها الشيخ بيده في حياته وقد زودني به الأستاذ محمود عبد الرزاق عفيفي - جزاه الله خيراً - وهو تلخيص جيد ومفيد لبعض مباحث العقيدة الطحاوية مع شرحها.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان (٢٤ - ٢٥).

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[1].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾[2] ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء، وقال تعالى لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾[3].

وأخبر تعالى عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾[4] اعترفوا بأن الرسل تلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم اليوم الآخر، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[5]، وأمر سبحانه نبيّه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يقسم به على البعث والجزاء. فقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾[6] فقد ذم تعالى من يشك في يوم القيامة أو يُكذِّب به أو يماري فيه.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾[7].

---

(١) سورة نوح: الآيتان (١٧ ـ ١٨).
(٢) سورة الشعراء: الآية (٨٢).
(٣) سورة طه: الآيتان (١٥ ـ ١٦).
(٤) سورة الزمر: الآية (٧١).
(٥) سورة الزمر: الآية (٧١).
(٦) سورة التغابن: الآية (٧).
(٧) سورة النمل: الآية (٦٦).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾(2).

وقال في بيان جزاء الكافرين به وبيان شبهتهم في إنكارهم يوم القيامة: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾(3) وردَّ عليهم هذه الشبهة بدليل كوني نقلي بيّن فيه أن من قدر على خلق ما هو أعظم منهم كالسماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وأن يعيدهم بعد موتهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾(4) وقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(5) وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾(6).

واستدل على قدرته على الإعادة بقدرته على بدء الخلق.

فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(7).

---

(1) سورة يونس: الآية (٤٥).
(2) سورة الشورى: الآية (١٨).
(3) سورة الإسراء: الآيتان (٩٧ ـ ٩٨).
(4) سورة الإسراء: الآية (٩٩).
(5) سورة غافر: الآية (٥٧).
(6) سورة يس: الآية (٨١).
(7) سورة الروم: الآية (٢٧).

وقال في بيان غفلة المكذبين عن النشأة الأولى أو تغافلهم عنها، وأنهم لو تذكروها وتبصروا فيها، ما وسعهم إلا أن يؤمنوا بيوم القيامة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1]، وقال تعالى في بيان أن قيام الساعة ومجازاة العباد مقتضى حكمته، وكمال عدله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[2] وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[3] أي لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[4].

بالجملة فكمال علمه، يوجب ألا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض. وكمال حكمته يقتضي ألا يترك الناس سدى بلا أمر ولا نهي ولا شرع ولا ثواب ولا عقاب، ومعلوم أن ما حصل في الدنيا لا يكفي للجزاء فلا بد من يوم يتحقق فيه كمال عدل الله وحكمته في الفصل بين عباده، وهو اليوم الذى أعده الله لفصل القضاء بين العباد، وكمال قدرة الله يقتضي ألا يعجز الله شيء، فهو قادر على أن يعيد العظام والرفات والذرات بشراً سوياً ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[5] إلى غير ما تقدم من

---

(١) سورة يس: الآيتان (٧٨ ـ ٧٩).
(٢) سورة المؤمنون: الآيتان (١١٥ ـ ١١٦).
(٣) سورة القيامة: الآية (٣٦).
(٤) سورة ص: الآيتان (٢٧ ـ ٢٨).
(٥) سورة يس: الآية (٨٢).

نصوص القرآن الصريحة في البعث والأرواح والأبدان.

أما السنة فمنها حديث: «كل ابن آدم يبلى إلاّ عَجْب الذنب، منه خُلِق، ومنه يُركَّب»[1] وستأتي نصوصٌ أخرى في تفاصيل ما يجري على العباد يوم القيامة وهي متضمنة لقيام الساعة.

ب- وأما جزاء الأعمال فقد دلَّ على ثبوته قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[2] أي يوم الجزاء على الخير والشر، وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[3].

ودل على ثبوته الحديث القدسي الذي رواه أحمد ومسلم من طريق أبي ذر الغفاري، وفيه: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفِّيكم إيَّاها، فمَنْ وجد خيراً فليحمد الله، ومَنْ وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

جـ- وأما العرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب فالمراد بذلك عرض العباد على الله وعرض كتب أعمالهم عليهم حين تتطاير صحف أعمالهم فمن آخذ كتابه بيمينه ومن آخذ كتابه بشماله يقرأ كلٌّ ما في كتابه، ويحاسب على عمله، ويثاب المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته، قال الله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ۝٤٨ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ

---

(1) رواه البخاري (الفتح ٤٨١٤/٨) ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ له. والعَجْب بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة: عظم لطيف في أصل الصلب وهو رأس العصعص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع قاله الحافظ في الفتح (٥٥٢/٨).

(2) سورة الفاتحة: الآية (٣).

(3) سورة النمل: الآيتان (٨٩ ـ ٩٠).

فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾.... الآيات إلى آخر سورة الحاقة[2].

وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[3] وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، قالت قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك» فقلت يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[4] فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلاّ عذب**».

---

(١) سورة الكهف: الآيتان (٤٨ - ٤٩).
(٢) سورة الحاقة: الآيات (١٨ - ٣١).
(٣) سورة غافر: الآيات (١٥ - ١٧).
(٤) سورة الانشقاق: الآيتان (٧ - ٨).

فهمت عائشة رضي الله عنها من قوله ﷺ أولاً عموم الهلاك لكل من حوسب، فكان الحديث معارضاً حسب فهمها ليسر الحساب في الآية وانقلاب من أخذ كتابه بيمينه إلى أهله مسروراً، فاستفسرت عن ذلك رسول الله ﷺ، فبين لها أن الحساب الذي ذُكر في الآية مجرد عرْض أعمال المؤمن عليه وأن الحساب الذي ذُكِر في الحديث أريد به المناقشة في الحساب، فلا تعارض بين الآية والحديث.

د- وأما الصراط فمعناه في اللغة: الطريق.

ومعناه المقصود منه هنا الجسر الممتد على متن جهنم الذي يمر عليه العباد إذا انتهوا من الموقف إلى منازلهم في الجنة أو النار.

وهناك ظلمة دون الصراط يكون فيها الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، روى مسلم من طريق عائشة رضي الله عنها، أن النبى ﷺ سئل أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات فقال: «هم في الظلمة دون الجسر».

وفي هذه الظلمة يكون للمؤمنين نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فيقول المنافقون لمن صدقوا في إيمانهم: انظرونا نقتبس من نوركم، فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا، فإذا ما رجعوا حيل بينهم وبين المخلصين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(١).

والدليل من القرآن الكريم على الصراط قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾(٢).

فإن المراد بالورود في الآية المرور على جهنم فوق الصراط، المضروب على متنها ثم من الناس من يسقط، ومنهم من ينجوا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(٣).

فلا يلزم من المرور على الصراط فوقها دخول كل مَنْ مرّ في النار وتعذيبه بها ولا يلزم أيضاً من التعبير بالإنجاء دخول من أنجاهم الله فيها، فإنه يكفي في صحة التعبير بالإنجاء انعقاد أسباب الهلاك مع تخليص أهل الخير منه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾(٥). وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾(٦).

فأخبر الله سبحانه بإنجائهم ولم يكن أصابهم ولا أصاب من آمن بهم شيء من العذاب الذي أهلك الله به من كذبهم وكَفَر بهم، فكان توفر أسباب العذاب إجمالاً كافياً لتصحيح التعبير بالإنجاء من الهلاك.

---

(١) سورة الحديد: الآيات (١٢ ـ ١٥).
(٢) سورة مريم: الآية (٧١).
(٣) سورة مريم: الآية (٧٢).
(٤) سورة هود: الآية (٦٦).
(٥) سورة هود: الآية (٩٤).
(٦) سورة هود: الآية (٥٨).

وقال ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة... إلى أن قال فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، وقال: فمنهم مَنْ يُعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى نوره دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر مَنْ يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرى إذا أضاء قدم قدمه، وإذا أطفئ قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحَضٌ، مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم. فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرَّحل يَرمُل رَمَلاً، فيمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد وتعلق يد، وتجر رِجْل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يُعط أحد». الحديث. رواه البيهقي من طريق عبد الله بن مسعود[1].

هـ- وأما الميزان فقد أخبر الله تعالى عنه وعن وزْن الأعمال به لِحِكَم كثيرة منها: ظهور عدله تعالى لجميع عباده قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[2].

---

(1) حديث صحيح أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٧٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي والطبراني في المعجم الكبير من طريق أبي خالد الدالاني عن ابن مسعود مرفوعاً، وقد تابعه زيد ابن أبي أنيسة مرفوعاً أيضاً بتمامه عن الطبراني، قال الشيخ ناصر الألباني: وزيد ثقة فصح بذلك الحديث. وانظر العقيدة الطحاوية (ص٤٧٠) ـ طبع المكتب الإسلامي.

(2) سورة الأنبياء: الآية (٤٧).

وقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[1].

وأخبر النبي ﷺ بوزن الأعمال، روى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان».

وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

وجاء في حديث البطاقة المشهور، أن البطاقة التي فيها «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله» توضع في إحدى كِفَّتي الميزان. وأن سجلات السيئات توضع في الكِّفةِ الأخرى فترجح كفة البطاقة وتطيش كِفَّة سجلات السيئات[2]. ولهذه الأدلة ذكر أهل السنة أن الميزان له كِفَّتان، وأنه توزن فيه الأعمال وصحف الأعمال وأرباب الأعمال، والله أعلم.

وعلى كل حال يجب الإيمان بالوزن والميزان وأن العبرة بالأعمال لا بالشخص نفسه، ولا بالصحف نفسها، وإنما المعتبر في الوزن هو الأعمال في الرجحان والخفة، وشؤون الآخرة من الأمور الغيبية التي لا مجال للعقل فيها إثباتاً ونفياً، فعلينا أن نؤمن بما صح من النقل في ذلك كتاباً وسنة.

---

(١) سورة القارعة: الآيات (٤ ـ ٩).

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد (٢/٢١٣، ٢٢١) والترمذي (٢٦٣٩) وحسّنه وابن ماجه (٤٣٠٠) والحاكم (١/٦) وصححه وأقره الذهبي.

ولا نعارضه بعقولنا، لقصورها عن إدراكه، ورحم الله امرأ عرف قدره، ولم يتجاوز حده، ومن أنكر ذلك أو تأول ما ورد فيه من النصوص فقد رام ما ليس إليه، ولا في دائرة تفكيره. والله الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الثالث

أعماله ومناصبه

المبحث الأول: أعماله ووظائفه في مصر.

المبحث الثاني: أعماله ووظائفه في المملكة العربية السعودية.

المبحث الثالث: علاقاته الطيبة والمتميزة بالعلماء والوجهاء ورجال العلم والسياسة.

الفصل الثالث

أعماله ومناصبـه

المبحث الأول

أعماله ووظائفه في مصر

لقد تسلّم الشيخ عبد الرزاق عفيفي في مصر وظائف عديدة، وشغل مناصب علمية ودعوية مهمة، وأهم هذه الوظائف وأجلّها: وظيفة الدعوة إلى الله عز وجل، فهي وظيفة الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة فيها التنويه بالدعاة والثناء عليهم، وأنه لا أحد أحسن قولاً منهم، لكونهم يدعون إلى الله ويرشدون إليه، فهم أقوم الناس سبيلاً، وأهداهم طريقاً، وهم الحملة العدول، والأئمة الفحول، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، فهم -على بُعْد الشقة بينهم وبين الضائقين بدعوتهم- يظلون ثابتين على دعواتهم، يشرحون أصولها، ويُبيِّنون حدودها، ويوضِّحون معالمها. إنهم أوفر أحلاماً، وأقوى أركاناً من أن يستخفهم طيش أو ينال منهم مستهزئ.

لقد كان الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- من هذا الطراز الموفّق من

---

(١) سورة فصلت: الآية (٣٣).

الدعاة، كان داعية صدق، يدعو إلى الله على بصيرة، واضعاً نصب عينيه قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[١].

ففي هذه الآية الكريمة شرع الله لعباده -بما أنزل من كتابه، وما كان من بيان رسوله- ما فيه استنارةُ عقولهم، وزكاءُ نفوسهم، واستقامة أعمالهم، وسمَّاه سبيلاً ليلتزموه في جميع مراحل سيرهم في هذه الحياة، ليفضي بهم إلى الغاية المقصودة، وهي السعادة الأبدية في الحياة الأخرى.

وأضافة إلى نفسه ليعلموا أنَّه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه[٢].

لقد ظل الشيخ عبد الرزاق يؤدِّي دوراً مُهمّاً وفاعلاً في الحياة العلمية والاجتماعية على نحو مُشرِّف وغاية سامية ونبيلة.

لقد سار في درب الشريعة يافعاً ... يطير به عزم له وإباء
وأنفق في بسط الشريعة عمره ... يسير به خوف له ورجاء

كان عالماً سُنيّاً، وداعية سلفياً، ومجاهداً ربانياً، قضى حياته في ميادين العلم والدعوة والتربية، حارب البدع وهو يحمل لواء التوحيد، يحافظ عليه بكل ما أوتي من قوة، وما حباه الله من عزيمة، لا يصده عن دعوته صاد، ولا تلين له -في محاربة المبتدعين- قناة.

لقد تقلد الشيخ وظائف عديدة وظَّفها لخدمة دينه،وتصحيح عقائد المسلمين، وتنقيتها من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

---

(١) سورة سورة النحل: الآية (١٢٥).

(٢) انظر: الدر الغالية في آداب الدعوة والداعية للشيخ عبد الحميد بن باديس (ص٢٥).

ومن الوظائف التي تقلدها:

أ- رئاسته لأنصار السنة المحمدية في مصر خلفاً للشيخ محمد حامد الفقي -رحمه الله- مؤسس الجماعة[1].

ب- اشتغاله بالتدريس في المعاهد الدينية الأزهرية، ومنها معهد شبين الكوم سنة ١٣٥٥هـ، ثم معهد الزقازق الديني.

جـ- تقلده لمنصب وكالة المعهد الديني بالاسكندرية، وقيامه بأعباء هذا المنصب خير قيام.

د- إمامته للمسلمين في الاسكندرية وضواحيها، وقيامه بإلقاء الخطب والمحاضرات في المساجد والمحافل العلمية، وقد هدى الله على يديه آلافاً من الشباب والشيبة والرجال والنساء.

هـ- نشره وتحقيقه للكتب النافعة التي تُعنى بأمر العقيدة الإسلامية، ومن ذلك نشره لكتاب «العلو» للذهبي، إلى غير ذلك من الجهود المشكورة، والأعمال المبرورة التي قام بها «المترجم له» رحمه الله.

---

(١) وقد توفي فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي يوم الجمعة السابع من رجب سنة ١٣٧٨هـ، ومما تجدر الإشارة إليه، أن الشيخ عبد الرزاق - رحمه الله - كان رئيساً لفرع أنصار السنة بالإسكندرية ثم أصبح نائباً للرئيس العام لأنصار السنة في مصر سنة ١٣٦٥هـ الموافق ١٩٤٦/٢/٢م. ثم رئيساً عاماً لجماعة أنصار السنة في مصر.

المبحث الثاني

أعماله ووظائفه في المملكة العربية السعودية

في الأيام الأولى من دخول الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود -طيَّب الله ثراه- مكة المكرمة، رأى بثاقب نظره، وصواب تفكيره أن يُعقد أول اجتماع تعليمي في تاريخ المملكة، ليكون البداية الحقيقية واللبنة الأولى للنهضة التعليمية الشاملة التي أرسى أُسسها ووطَّد دعائمها بكل ما يملك من قوة، وما أُتيح له من عطاء، ولذا فقد دعا هذا الملك الموفق، والمؤسس الباني، العلماء ورجال التربية والتعليم، إلى اجتماع في مكة المكرمة، وكان ذلك في جمادى الأولى عام ١٣٤٣هـ، وفي هذا الاجتماع، حثَّ العلماء على نشر العلم وتيسير سُبله، ثم أصدر أمره السامي بإنشاء مديرية المعارف العامة في ١٣٤٤/١/١٩هـ للإشراف على جميع المدارس والمعاهد العلمية في البلاد[1]، ويُعد إنشاء هذه المديرية اللبنة الأولى لنظام التعليم الحديث في المملكة، وبعد أن تعددت وتنوعت مهام مديرية المعارف العامة، صدر الأمر الكريم بتحويل هذه المديرية إلى وزارة سُميت (بوزارة المعارف) لتشرف على مختلف شؤون التربية والتعليم والثقافة في البلاد، وقد تم ذلك في اليوم الثامن

---

(١) ومن هذه المعاهد العلمية التي أرسى أُسسها الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة، تأسس عام (١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٦م) وكان يعرف عند تأسيسه بالمعهد الإسلامي، وكان يهدف إلى إعداد المعلمين للتدريس في المدارس الابتدائية.

عشر من شهر ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، حيث صدر الأمر الملكي رقم ٥٣٢٦-٤٩٥٠ وتاريخ ١٣٧٣/٣/١٨هـ، القاضي بتأسيس وزارة المعارف وتعيين صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبدالعزيز (الملك فهد بن عبد العزيز حالياً) أوّل وزير للمعارف بالمملكة[1].

لم يكن الملك عبد العزيز -يرحمه الله- موحّداً لبناء دولة فحسب، بل كان صاحب دعوة إصلاحية، وعقيدة راسخة مُستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،كما كان -يرحمه الله- ذا بصيرة نافذة، وخلق رفيع ومنهج متميِّز يهدف إلى القضاء على الفساد والجهل بكل صُوره وأشكاله. ومن أجل تحقيق هذه الغايات السامية، والمقاصد النبيلة، أصدر الملك المؤسس عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أوامره إلى المديرية العامة للمعارف آنذاك لإرسال ممثلين عنها إلى مصر لاختيار نخبة من العلماء ممن يتسمون بالصلاح وصحة المعتقد والمتانة العلمية والمعرفية[2]، وذلك للمشاركة في التدريس ووضع

(١) انظر: تاريخ الحركة التعليمية في المملكة العربية السعودية (١/١٥٥ ـ ١٦٢).

(٢) سبق للملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أن استقدم عدداً من العلماء المصريين ممن عُرفوا بصحة المعتقد وغزارة العلم، والتمسك بالسنة، لإمامة المسجد الحرام والمسجد النبوي، ومن هؤلاء العلماء فضيلة الشيخ العلامة محمد عبد الظاهر بن محمد نور الدين الفقيه (أبو السمح) (١٣٠٠ ـ ١٣٧٠هـ) وقد قدم إلى المملكة العربية السعودية عام ١٣٤٧هـ، فأكرم الملك عبد العزيز وفادته وعيَّنه إماماً وخطيباً ومدرساً بالمسجد الحرام بمكة المكرمة، وفي مكة أسس فضيلة الشيخ محمد عبد الظاهر أبو السمح مدرسة دار الحديث سنة ١٣٥٢هـ، لتكون منارة للعلم ولتقوم بنشر العقيدة السلفية، والعناية بكتب السنة وتدريسها، وقد ظل فضيلته إماماً للحرم قرابة أربعين عاماً ـ رحمه الله ـ ومن العلماء الذين قَدِموا إلى أرض الحرمين الشريفين بناءً على طلب الملك عبد العزيز ـ طيب الله ثراه ـ ورغبته، العالم المحقق والسلفي النبيل فضيلة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة (١٣٠٩ ـ ١٣٩٢هـ)، التحق بالأزهر وتخرج منه، ثم التحق بدار الدعوة والإرشاد بمصر، وقد ذاع صيت فضيلته باشتغاله بنشر الدعوة السلفية، فدعاه الملك عبد العزيز ليشغل وظيفتي الإمامة والتدريس في المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي بالمدينة المنورة.

المناهج والمقررات الدراسية لعدد من المعاهد والكليات في المملكة.

واستجابة لهذه الأوامر الكريمة، توجهت بعثة تابعة لمديرية المعارف سنة ١٣٦٨هـ برئاسة فضيلة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع -رحمه الله- للتعاقد مع عدد من العلماء ورجال العلم والتربية، فكان صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي في طليعة مَن رُشِّحوا للمشاركة في النهضة العلمية السعودية التي وضع لبناتها الأولى الملك عبد العزيز -طيب الله ثراه.

قدم -رحمه الله- إلى المملكة العربية السعودية على علمه وسجيّته، لم يجتذ طمع في مال أو جاه أو منصب، وعلم الله صدق نيته فانقادت له كل أسباب العز الدنيوي، مع أنه لم يطلبها، فكان في هذه المملكة أستاذ جيل بحق، تتلمذ عليه أبناء ما بين السبعين إلى الثلاثين، ولا يزالون مربين للأجيال أهل منابر وحلقات تدريس وتأليف[1].

قلت: وممن قدم مع الشيخ العلاَّمة في تلك السنة (١٣٦٨هـ) أصحاب الفضيلة الشيخ محمد علي عبد الرحيم، والشيخ محمد بن حسين الذهبي، والشيخ عبد المنعم النمر، والشيخ يوسف الضبع، وغيرهم من مشاهير علماء الأزهر.

وأول عمل بدأ به الشيخ عبدالرزاق حياته وجهاده في ميادين العلم وساحات المعرفة، اشتغاله بالتدريس مدة عامين في «دار التوحيد» بالطائف، ابتداءً من عام ١٣٦٨هـ إلى عام ١٣٧٠هـ.

---

(١) انظر كلمة فضيلة الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، في الثناء على العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي والتي عنوانها «إنما كان إماماً» والتي نشرتها جريدة الجزيرة يوم السبت ١٢ ربيع الآخر سنة ١٤١٥هـ الموافق ١٩٩٤/٩/١٧م.

وكانت دار التوحيد[1] بالطائف هي أوّل مدرسة درّس فيها الشيخ، فضلاً عن كونه عضواً في مجلس إدارتها. وفي شهر المحرم سنة ١٣٧٠هـ، انتقل الشيخ إلى مدينة عنيزة -إحدى مدن القصيم- للتدريس بمعهد عنيزة العلمي، الذي قام بافتتاحه فضيلة الشيخ محمد بن مانع- رحمه الله.

وفي عنيزة عُرِف الشيخ عبد الرزاق بين أقرانه وإخوانه أعضاء هيئة التدريس بالمعهد العلمي، بشدة متابعته للسلف، وتضلعه في كثير من العلوم والمعارف، ودقة فهمه لأحكام الشريعة، فضلاً عن قوة شخصيته، وسداد رأيه، وقد أُعجب بعلمه جمّ غفير ممن درسوا على يديه ونهلوا من علمه، وتناقل الناس أخباره، حتى بلغ ذلك سماحة الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم مفتي عام المملكة العربية السعودية آنذاك والرئيس العام للكليات والمعاهد العلمية فرغب سماحته في قدوم الشيخ إلى الرياض ليكون موضع مشورته، وليقوم بالتدريس في المعاهد العلمية التابعة لسماحته.

وبالفعل غادر فضيلة الشيخ عبد الرزاق «عنيزة» متوجهاً إلى الرياض، وكان ذلك في شوال سنة ١٣٧٠هـ.

وفي الرياض واصل الشيخ عبد الرزاق نشاطه العلمي مبتدئاً بالتدريس في معهد الرياض العلمي، وكان -رحمه الله- سابع سبعة هو في مقدمتهم ومعه فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي- رحمه الله.

---

(١) وهي إحدى الصروح العلمية المباركة التي تأسست بأمر الملك عبد العزيز وفي عهده - رحمه الله - وكان ذلك عام ١٣٦٣هـ، وافتتحت رسمياً في عام ١٣٦٤هـ، وتولى رئاستها فضيلة الشيخ محمد بهجة البيطار، ومن بعده ولد محمد، وانظر كتاب (دار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي) ص٢٨.

لقد أدرك سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- رئيس المعاهد والكليات ومؤسسها بثاقب نظره وبقدرته على معرفة الرجال، ما اتصف به هذا العالم الفذ من علم وبُعد نظر وقدرة على معالجة الأمور، فقرّبه وعرف مكانته، ومكّن له لإفادة الباحثين والعلماء.

استمر الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- في آداء رسالته وتواصلت نشاطاته العلمية والتربوية وجهوده المكثفة في إعداد الأجيال وبناء الرجال، وذلك من خلال عمله في المعهد العلمي، وفي كُليّتي الشريعة واللغة العربية بالرياض،وكان فضيلته من المؤسسين لهاتين الكليّتين، ومن أبرز وأشهر المدرسين بهما، وذلك بسبب سعة علمه وغزارة مادته وثاقب نظره، وقوة بيانه، وحُسن أسلوبه.

وعندما توفرت الدواعي لإنشاء دراسات عليا، ورفع مستوى القضاء، أُنشئ المعهد العالي للقضاء سنة ١٣٥٨هـ، وأوكل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم إدارته إلى فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- ثقة به، وحُسن ظن بإدارته، فقام الشيخ عبد الرزاق بهذا الواجب خير قيام، وتحمل تبعاته بكل صدق وإخلاص، وكان من المخططين لمناهج هذا الصرح العلمي الكبير، ومن المدرسين فيه والمشرفين على رسائل طلابه، ومن هذه الرسائل التي أشرف عليها، وكان له القدح المعلّى في تقويمها:

١- مجمل أسباب اختلاف الفقهاء لفضيلة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.

٢- جريمة الحرابة، لفضيلة الشيخ صالح بن عبد الرحمن الأطرم.

٣- الطلاق السني والبدعي، لفضيلة الشيخ عبد الله بن محمد اسحاق.

٤- الوقف في الشريعة، لفضيلة الشيخ محمد بن حمود الراجحي.

٥- الولاية في الزواج، لفضيلة الشيخ سليمان بن إبراهيم الرشودي.

٦- الخلافة الإسلامية، لفضيلة الشيخ سليمان بن قاسم الفيفي.

٧- حجية أخبار الآحاد، لفضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين.

٨- التملك في الإسلام، لفضيلة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الجنيلد.

٩- الإيضاح في شروط النكاح، لفضيلة الشيخ صالح بن غانم السدلان.

١٠- الشركات في الفقه الإسلامي والقانون، لفضيلة الشيخ سعود بن سعد الديب.

١١- تعليل الأحكام، لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح التويجري.

١٢- الموارد المالية للدولة الإسلامية، لفضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم بن قعود.

١٣- حقيقة الورق النقدي، لفضيلة الشيخ عبدالله بن سليمان المنيع.

١٤- الإقرار في الشريعة، لفضيلة الشيخ صالح بن لحيدان.

١٥- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، لفضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم الهويش.

١٦- القصاص في الشريعة الإسلامية، لفضيلة الشيخ عبد الرحمن القفاري.

١٧- تعدد الزوجات، لفضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عبد السلام.

١٨- موقف الشريعة الإسلامية من التأمين، لفضيلة الشيخ سفر البحري.

١٩- مباحث القسامة، لفضيلة الشيخ محمد بن عبد الله بن الأمير.

٢٠- اقتضاء النهي الفساد، لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن ابراهيم الهويش.

٢١- الديّات في الإسلام، لفضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الراشد.

٢٢- موقف الإسلام من الخمر، لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز المنصور.

٢٣- أحكام الوصية، لفضيلة الشيخ محمد حسن الهلالي.

٢٤- مكافحة الجريمة، لفضيلة الشيخ إبراهيم بن عبدالله الناصر.

٢٥- الجناية على ما دون النفس، لفضيلة الشيخ سعد بن محماس المخيمر.

٢٦- مكافحة جريمة الزنا، لفضيلة الشيخ حمد بن محمد الحناكي.

٢٧- الضمان والكفالة، لفضيلة الشيخ محمد بن عبد الرحمن السدحان.

٢٨- الإجارة، لفضيلة الشيخ علي بن محمد التركي.

٢٩- النبراس على مسالك القياس، لفضيلة الشيخ إبراهيم بن حمد السلطان.

٣ الربا وموقف الإسلام منه، لفضيلة الشيخ سعد بن محمد الرشيد.

٣١- الاستفادة من أحكام الشهادة لفضيلة الشيخ محمد بن مرزوق المعيتق.

٣٢- حجية السنة، لفضيلة الشيخ محمد لقمان السلفي.

٣٣- المرأة بين السفور والحجاب، لفضيلة الشيخ محمد أحمد العسكري.

٣٤- مكافحة جريمة السرقة، لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم العريني.

٣٥- الاستدلال في الشريعة، لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز الكليّة.

٣٦- التعارض والترجيح لفضيلة الشيخ علي العنزان.

٣٧- التعزير في الشريعة الإسلامية، لفضيلة الشيخ غيهب بن محمد النهيب.

٣٨- المصالح المرسلة، لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الدويش.

٣٩- يسر الإسلام، لفضيلة الشيخ سالم بن محمد السالم.

لقد كان فضيلة الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- إبَّان إداراته للمعهد العالي للقضاء- والتي استمرت خمس سنوات (١٣٨٥هـ-١٣٩٠هـ)- مثالاً يحتذى، وقدوة تؤتسى في عمله ونصحه لطلابه، وأدبه وحُسن إداراته، وبهذه الخلال الكريمة، أضحى الشيخ موضع تقدير واحترام الجميع، وبخاصة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- الرئيس العام للمعاهد والكليات آنذاك. فقد كان سماحته يقدر فضيلة الشيخ عبد الرزاق ويستشيره، ويعتمد رأيه في كثير من الأمور، تقديراً لعلمه الواسع، ورأيه الصائب، وإخلاصه الجم، والفضل يعرفه ذووه.

كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي، إلى جانب إداراته للمعهد، مُربّياً ومعلماً ومرشداً، تخرج به أجيال من العلماء والمربين وطلبة العلم، وقد تسنم كثير من هؤلاء مناصب علمية ودعوية مهمة في الوقت الحاضر.

وجدير بالذكر أن الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- كان سبباً في استقدام نخبة من علماء الأزهر للتدريس بالمعهد العالي للقضاء، وكان على رأس هؤلاء فضيلة الشيخ طه الساكت، وفضيلة الشيخ محمد عبد الوهاب بحيري، وفضيلة الشيخ أحمد لاشين، وفضيلة الشيخ محمد هاشم عبد الدائم.. وغيرهم.

وفي سنة (١٣٨٦هـ)، بلغ فضيلة الشيخ عبد الرزاق سن التقاعد، فكتب سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم إلى الجهات المسؤولة بتاريخ ٢٦/١١/١٣٨٦هـ مؤملاً استثناء الشيخ عبد الرزاق عفيفي من قانون التقاعد، وراغباً في تمديد مدة خدمة فضيلة الشيخ عبد الرزاق لمسيس الحاجة إليه، وقد صدر قرار مجلس الوزراء رقم ٤١١ وتاريخ ١٣٨٧/٦/٢٥هـ بالموافقة على تمديد خدمات فضيلة الشيخ عبد الرزاق لمدة خمس

سنوات اعتباراً من بلوغه سن الستين وإعفائه من التقاعد[1]. وبهذا ظل الشيخ عبد الرزاق يواصل رسالته المباركة في نشر العلم وتعليم الأجيال بهمة لا تعرف الكلل أو الملل، وقد استمر عطاؤه في المعاهد والكليات في حياة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وبعد وفاته- رحمهما الله.

وفي سنة ١٣٩١هـ انتقل فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي إلى الرئاسة العامة للإفتاء، حيث عُيِّن نائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء والتي تم تشكيلها عقب صدور الأمر الملكي رقم ١١٣٧ وتاريخ ١٣٩١/٧/٨هـ والقاضي بإنشاء هيئة كبار العلماء، وقد جاء في المادة الرابعة من هذا الأمر ما نصه:

تتفرع عن الهيئة لجنة دائمة متفرغة يُختار أعضاؤها من بين أعضاء الهيئة بأمر ملكي، وتكون مهمتها إعداد البحوث وتهيئتها للمناقشة من قِبل الهيئة، وإصدار الفتاوى في الشؤون الفردية، وذلك بالإجابة على أسئلة المستفتين في شؤون العقائد والعبادات والمعاملات الشخصية، وتُسمى هذه اللجنة «باللجنة الدائمة للبحوث والفتوى».

وجاء في المادة الثامنة من اللائحة المرفقة بالأمر الملكي، لا تصدر الفتاوى عن اللجنة الدائمة، إلاَّ إذا وافقت عليها الأغلبية المطلقة من أعضائها على الأقل، على أن لا يقل عدد الناظرين في الفتوى عن ثلاثة أعضاء، وإذا تساوت الأصوات، يكون صوت الرئيس مرجحاً.

وتنص المادة التاسعة من اللائحة على أن «يُعيِّن رئيس اللجنة فيها وأعضاؤها بأمر منَّا بترشيح من رئيس إدارات البحوث».

---

(١) انظر صورة القرار والمراسلات بين سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - ومجلس الوزراء في الفصل الثامن (رسائل ووثائق).

وقد شُكلت اللجنة الدائمة بعد صدور الأمر على النحو التالي:

١- فضيلة الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ رئيساً.

٢- فضيلة الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي عطية نائباً للرئيس.

٣- فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الغديان عضواً.

٤- فضيلة الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع عضواً.

وفي آواخر سنة (١٣٩٥هـ) عُين معالي الشيخ إبراهيم بن محمد آل الشيخ وزيراً للعدل، وعُيِّن سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رئيساً لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ورئيساً للجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء، وظل الشيخ عبد الرزاق نائباً للرئيس منذ تأسيس اللجنة وحتى وفاته -رحمه الله- أي ظل قرابة أربعة وعشرين عاماً، أصدرت اللجنة خلالها أبحاثاً قيّمة، وآلاف الفتاوى في شتى المباحث الشرعية والقضايا الإسلامية، وفي نفس الوقت، كان الشيخ عبدالرزاق عضواً في هيئة كبار العلماء بناءً على المرسوم الملكي القاضي بتأليف هيئة كبار العلماء، والصادر برقم ١١٣٧ وتاريخ ١٣٩١/٧/٨هـ، ويتضمن المرسوم تكوين الهيئة من عدد من كبار المختصين في الشريعة الإسلامية من السعوديين ويجري اختيارهم بأمر ملكي، وقد صدر الأمر الملكي بتعيين سبعة عشر عضواً في هيئة كبار العلماء، كان فضيلة الشيخ عبد الرزاق في مقدمة أصحاب الفضيلة العلماء الذين تم اختيارهم لهذه الهيئة. وقد ظل فضيلته عضواً في هيئة كبار العلماء إلى تاريخ ١٤١٣/٦/٨هـ حيث أُعفي -رحمه الله- من عضوية الهيئة نظراً لمرضه وانحراف صحته، ومع ذلك ظل يواصل عمله في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء إلى أن توفاه الله.

المبحث الثالث:

علاقاته الطيبة والمتميزة بالعلماء والوجهاء ورجال العلم والسياسة

إن المتأمل لتاريخ البشرية يدرك أن السعة والشمول في علاقات العالِم بالمجتمع الذي يعيش فيه مؤشراً حيّاً وبارزاً من مؤشرات اكتشاف مؤهلاته للعمل الخيري، وعاملاً من عوامل وفرة عطائه، وكثرة الانتفاع بعلمه وعمله، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أنها عامل سلبي في الدعوة إلى الله، ولا في العودة إلى دينه الخالص، بل على العكس من ذلك، تعتبر العلاقات المتسمة بالسعة والشمول من أهم أسباب نجاح العالِم إذا كان يقصد بها وجه الله، لا مجرد تحقيق مكاسب وأهداف مادية.

إن الواقف على سيرة وأخلاق وسلوك فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -يرحمه الله- يدرك للوهلة الأولى أن الشيخ كان يتمتع بمؤهلات عالية من حُسن الخُلق، وطيب المعشر وسعة الصدر والحلم والأناة وحُسن المناقشة، مما كان له أبلغ الأثر في تميُّز علاقات الشيخ وسعتها، وخاصة مع ولاة الأمر وأهل العلم وروّاد المعرفة ورجال التربية، كما كان -رحمه الله- حسن السمعة ذا علاقات طيبة مع سائر الناس، لا يحقد ولا يحسد، بل كان موضع احترام الناس وتقديرهم وحُسن ظنهم وثقتهم، ولا أدلّ على ذلك من قول أحد كبار معاصريه:

«العلماء نوعان: علماء ينعزلون عن الناس، ويتفرغون لكتابة

الكتب والمصنفات، وعلماء يعنون ببناء النفوس، وتوجيه العامة وإرشادهم، وبالإجابة على أسئلتهم وحل مشكلاتهم، وقد كان فقيدنا العظيم من النوع الثاني، وقد انتفع بعلمه وتوجيهه خَلق كثير»[١].

ويقول آخر، في كلمة رثاء وعزاء: «وقبل أيام توفَّى الله رجلاً من أهل العلم والتقوى والحياة المثمرة في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، قد حظي بفضل من الله بمحبة الناس في مصر والمملكة العربية السعودية[٢].

علاقته المتميزة بولاة الأمر في المملكة العربية السعودية:

إن حسن الظن بالمسلمين سُنَّة حسنة، وأمر لازم، وأوجب ما يكون ذلك في حق العلماء، والأمراء والحكَّام الذين أمرنا الله بطاعتهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾.. الآية[٣].

وأولو الأمر: قيل هم العلماء وقيل هم والأمراء قال ابن القيم: والتحقيق أن الآية تعم الطائفتين وإنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ[٤].

إن السلطان هو زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقِوام الحدود، والقطب

---

(١) انظر كلمة فضيلة الشيخ محمد بن لطفي الصباغ (الشيخ عبد الرزاق عفيفي من بقية السلف)، الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٢) انظر كلمة المهندس حبيب مصطفى زين العابدين (الشيخ العفيفي وتواضع العلماء)، الفصل السابع (وفاته ومراثيه).

(٣) سورة النساء: الآية (٥٩).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٥١٨/١) وتيسير العزيز الحميد لفضيلة الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ (ص٤٨٢).

الذي عليه مدار الدنيا، وهو حمى الله في بلاده، وظله الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم وينتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم، ويأمن خائفهم.

قال بعض الحكماء: إمام عادل خير من مطر وابل، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[1].

قال ابن عبد ربه: فحُق على مَن قلّده الله أزمّة حكمه، وملّكه أمور خلقه، واختصه بإحسانه، ومكّن له في سلطانه، أن يكون له من الاهتمام بمصالح رعيته والاعتناء بمرافق أهل طاعته[2]. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[3].

فعلى الرعية أن يُحسنوا الظن بولاة أمورهم، والاطمئنان إلى طويتهم، والثقة بحسن نواياهم، فإن ذلك من أهم الأسباب التي توثّق العلاقة بين الحاكم والمحكوم. ومما يؤكد على حُسن الظن بالعلماء والأمراء ما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر[4].

وقال حذيفة رضي الله عنه: ما مشى قوم إلى سلطان الله في الأرض ليذلوه إلاّ أذلهم الله قبل موتهم[5].

---

(١) انظر حياة الحيوان للدميري (١٤٤/١) والعقد الفريد لابن عبد ربه (٢٠/١).
(٢) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه (٢٠/١).
(٣) سورة الحج: الآية (٤١).
(٤) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه (٢٠/١).
(٥) انظر المرجع السابق (٢١/١).

وقال ﷺ: «من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله»[١]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»[٢]. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من فارق الجماعة، وخرج من الطاعة فمات فميتته جاهلية»[٣].

إن نصح الإمام بالرفق واللين في السرِّ، والدعاء له، واتباع أمره ونهيه في طاعة ربه، فرض لازم، وأمر واجب، لا يثبت إسلامٌ إلا عليه، ولا يتم إيمانٌ إلا به، ولله درّ من قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سَراةَ لهم ... ولا سراة إذا جُهالهم سادوا
والبيت لا يبتني إلاَّ له عَمَد ... ولا عماد إذا ما تُرسى أوتاد
فإن تجمع أوتادٌ وأعمدةٌ ... يوماً فقد بلغوا الذي كادوا[٤]

لقد كان فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- نموذجاً طيباً يحتذى،وجوهرة وضاءة يهتدى بها في السلوك والأخلاق، وفي تعامله مع الأفراد وعلاقته بالجماعات من الناس، حاكمين ومحكومين.

عاش فضيلته آلام الأمة وآمالها، فكان يدرك بعمق شراسة الغزو الفكري الاستعماري للمسلمين، ويعرف التيارات الفكرية والسياسية التي تغزو العالم وتسود بلاد المسلمين، يعرفها تمام المعرفة، ويدرك ما يتعرض

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٢٥) وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) متفق عليه، البخاري (الفتح ٧١٣٧/١٣) ومسلم (١٨٣٥).
(٣) رواه مسلم (١٨٤٨).
(٤) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه (١٢٢).

له شباب الإسلام من وسائل خادعة، وأساليب ملتوية، هدفها وغايتها إبعاد المسلمين عن دينهم وصرفهم عن عقيدتهم.

كان فضيلة الشيخ عبد الرزاق حريصاً أشد الحرص على التئام الصف وتوحيد الكلمة، واجتماع الأُمَّة والائتلاف بينها، ونبذ الفرقة والخلاف الذي يهدد كيانها. وكان يدعو بقوله وفعله إلى التزام جماعة المسلمين، والتحذير من الخروج عليها، ودليل ذلك ما سطّره بقلمه في مبحث «إثبات خلافة الخلفاء الراشدين»[1] فكتب ما نصه:

إقامة ولي أمر عام للمسلمين يتولى شؤونهم، وتنتظم به أمورهم، ويجمع شملهم، واجب على المسلمين، فيجب عليهم أن يختاروا من بينهم من يَصلح للقيام بواجب الأمة، وإن لم يكن في الأمة من يصلح لذلك إلاّ واحداً تعيَّن عليهم أن يُقيموه وليّاً عاماً عليهم، وتعيَّن عليه أن يتقبل تولي هذا، حفظاً لكيانها، وتحقيقاً لما ينهض بها، سياسة وتدبيراً وثقافة وعلماً وانتاجاً وكسباً في السلم والحرب، والشدة والرخاء، وفي جميع الأحوال.

والحكمة في ذلك: رعاية مصلحة الأمة، وصيانتها من أن يدب إليها دبيب الفشل، فتضعف شوكتها، وتذهب ريحها، فيطمع فيها أعداؤها ويستولوا عليها وعلى مرافق حياتها، ويسخرونها لمصالحهم، ويسومونها سوء العذاب.

وقد شهدت الفطرة بضرورة إقامة ولي عام على المسلمين، يسهر على مصالحهم، ويسعى جهده في دفع كيد أعدائهم، ويبذل وسعه في

---

(١) سبق الإشارة إليه في الفصل الثاني المبحث الحادي عشر (فتاواه وبحوثه).

توحيد كلمتهم، ولم شعثهم، بل عرف الإنسان أن اتخاذ القيادة وضرورتها أمر جبلت عليه الحيوانات العجماوات، فإنا لا نكاد نجد طائفة من الحيوانات على اختلاف أنواعها، كالنمل والنحل في المأوى وجمع الغذاء، وكالطيور في الهواء، والأسماك في الماء، إلاَّ وقد اتخذت لنفسها قيادة تنظم سَيْرها وعملها، ورئاسة تهيمن شؤونها وحركاتها، ولو قدِّر تخلف ذلك كان تخلفه نادراً، وفي أُمَّة من الحيوانات ضربت أطنابها في الفوضى، وصارت يُضرب بها المثل في الهمجية والتهرج والاضطراب كأُمة الجراد.

وقد دلت عناية الكتاب والسنة بالحث الكثير على طاعة ولاة الأمور، والتحذير الشديد من الخروج عليهم ومنازعتهم، والحديث في أصل الولاية بالخبر عنها، وانتظام الأمر بها مبسوط في مصنفات العلماء وهي تنص على أن وجوب تنصيب الولاة والأئمة أمر معروف، طبعت عليه القبائل والأمم، كما دلَّ العمل المستمر من النبي ﷺ، في بعث السرايا على أنه ما بعث سرية إلا وقد أَمَّر عليها أميراً، وأوصاها بطاعته، ودلَّ عمله في البلاد الإسلامية أنه لم يترك بلداً دون أن يؤمِّر على أهلها أميراً، ولم يسافر عن المدينة إلاَّ وقد أَمَّر عليها أميراً، فإذا كان هذا شأنه في الولايات الخاصة، فالولاية العامة ألزم، والعناية بها أتم وأوجب، بل لا تكون ولاية خاصة في أُمَّة إلا عن طريق الولاية العامة ومستمدة منها[1].

وبهذه الكلمات المضيئة التي دلَّل بها فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي على وجوب طاعة ولاة الأمر (في المعروف) وأن طاعتهم من

---

(١) انظر ما كتبه الشيخ بيده في هذا الخصوص في الفصل الثامن (رسائل ووثائق).

طاعة الله، ومعصيتهم من معصية الله، يتأكد ما ذكرته آنفاً من حرص الشيخ -رحمه الله- على توحيد الكلمة واجتماع الناس على حكامهم وعلمائهم، وبهذا تعز الأوطان، وتصان الأعراض، وتعظم الألفة وتتحقق المحبة والرحمة، ويكبت الأعداء وينتصر الحق ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

ولشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية في هذا كلام نفيس، فليُرجع إليه في كتبه ومنها كتابه القيِّم «منهاج السنة النبوية» و«مجموع الفتاوى» التي قام بجمعها فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله، وكتاب «السياسة الشرعية»، وفي هذا الأخير يوضح ابن تيمية أهمية الولاية العامة وحاجة الناس إليها فيقول:

يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس... إلى أن قال -رحمه الله:

ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه من «الجهاد والعدل وإقامة الحج والجُمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود» لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا رُوي «إن السلطان ظلُّ الله في الأرض» ويقال: «ستون سنة مع إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان» والتجربة تبين ذلك.

ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: «لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسلطان». إلى أن قال رحمه الله:

فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يُتقرب بها إلى الله، فإن التقرب

إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما ينسب فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرئاسة أو المال بها.أ.هـ.[1]

علاقته بالملك عبد العزيز- طيب الله ثراه:

لقد كان فضيلة الشيخ عبد الرزاق -يرحمه الله- على علاقة طيبة ومتميزة مع موحِّد هذه المملكة ومؤسسها، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، والذي يعتبر بحق شخصية نادرة، وعبقرية قَلَّ من يفري فريها، ويترسم خُطاها، كان مضرب الأمثال في الشجاعة حتى هابه الأبطال، وأذعن له الرجال، وكان عقله يسبق لسانه ولا يقول إلا ما يعتقده صواباً.

كان سلفي العقيدة، داعية إلى التوحيد، يوالي ويعادي من أجله، ومن كلماته التي ألقاها في الحفل الذي أقيم له في القصر الملكي بمكة المكرمة في غرة ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٢٩/٥/١١م:

«عقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله، وسُنَّة رسوله، وما كان عليه السلف الصالح، هذه هي عقيدتنا، وهي عقيدة مبنية على توحيد الله عز وجل، خالصة من كل شائبة، منزَّهة عن كل بدعة، فعقيدة التوحيد هذه هي التي ندعوا إليها وهي التي تنجينا مما نحن فيه من محن وأوصاب. إن المسلمين في خير ما داموا على كتاب الله وسنة رسوله، وما هم ببالغين سعادة الدارين إلا بكلمة التوحيد الخالصة»[2].

---

(١) انظر السياسة الشرعية لابن تيمية (ص١٧٨).

(٢) انظر المصحف والسيف، مجموعة من خطابات وكلمات وأحاديث ومذكرات الملك عبد العزيز آل سعود - رحمه الله - جمع محيي الدين القابسي.

لقد كانت عناية الملك عبدالعزيز -يرحمه الله- واهتمامه بالعلم والعلماء تجسيداً لاهتمام الدولة بالعلم، وتأكيداً لحفاوتها بالعلماء، وأظهر دليل على ذلك أن الملك المؤسس -رحمه الله- كان كثيراً ما يحضر الدروس العلمية التي تُعقد في قصره، ويوجه الدعوة إلى كبار العلماء والدعاة لحضور هذه المجالس العلمية، ومن بين هذه الدروس التي كانت تعقد في قصر الملك عبد العزيز، درسٌ لفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي كل يوم أربعاء، وكان الملك يحضره، وكان الشيخ عبد الرزاق يحرص في هذا الدرس على إفادة الحاضرين، والنصح الطيب للملك، وكان الملك عبد العزيز -يرحمه الله- يسعد بذلك[1].

ويذكر فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان أن الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- كان معجباً بحركة الإصلاح والتجديد في نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في الدعوة، ويلمس منه إعجابه في مجال السياسة والقيادة والحكمة بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل في توحيد المملكة العربية السعودية.

وقد ظل الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- على هذه العلاقات الطيبة مع الملك عبد العزيز، وأبنائه أصحاب السمو الأمراء من بعده، وهذا إن دلّ فإنما يدل على تقدير ولاة الأمر -في هذه المملكة المباركة- للعلم والعلماء ابتداءً من الملك المؤسس عبدالعزيز آل سعود -رحمه الله- وحتى يومنا هذا في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز- حفظه الله. ونصر به العلم وأهله.

---

(١) أفادني بذلك فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام، وفضيلة الشيخ محمد عبد الوهاب البنا.

فجزى الله ولاة الأمر في هذه المملكة خير الجزاء، فقد كان هذا العالم الفذ محل اختيارهم، وموضع تقديرهم، وهذا بحمد الله ديدن هذه المملكة حيث تعرف لأهل الفضل فضلهم ويجد في رحابها أصحاب المواهب والقدرات ما يفيدون مجتمعهم وأمتهم.

علاقته بسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ- رحمهما الله تعالى:

من العلماء أفذاذ جمعوا أشتات المكارم، وكانوا أعلاماً في كل المعالم، ومن هؤلاء الأفذاذ، الذين أناروا السبيل للسالكين فأرشدوا إلى الهدى خُطى اللاحقين، ومرُّوا على هذه الدنيا مرور الغيث الهامع فاخضلت الأرض غب عبورهم، فحمدهم الوارد، ومدحهم الراقع، فسجَّل التاريخ حديثهم للرواة وجعل أيامهم عبرة للوعاة.

أقول من هؤلاء: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب، ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فهو عالم من عالم من عالم، وفقيه من فقيه من فقيه، وزعيم من زعيم من زعيم، توارث آباؤه وأجداده الصدارة في العلم والوجاهة والقيادة.

لقد كان سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- إماماً مجمعاً على إمامته، ووفور علمه، وشفوف حسِّه، وزكاء نفسه، وكرم أخلاقه، وشرف منازعه، وجمعه بين الشمائل الباهية، والمعارف المتناهية. كان من أصحاب الفتيا المشهورين، وكان في تفقهه مثالاً رائعاً للمحدِّث الفقيه الذي يحرص أشد الحرص على اتباع السنة وفهمها والالتزام بها على منهج السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين.

فضلاً عن ذلك فقد كان الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- صاحب ألمعية نادرة، ونجابة ظاهرة، وكان ذا هيبة ووقار وقدرة مذهلة على معرفة الرجال، وكان ذا فراسة نادرة في اكتشاف المواهب، وتقييم الكفاءات، وبالجملة فقد كان سماحته -رحمه الله- سابقاً لعصره، بحراً في علمه، سديداً في توجيهه، وقد مكنته مؤهلاته العالية في حُسن الخُلُق من أن يعرف لذوي الفضل فضلهم والفضل يعرفه ذووه.

لقد أدرك سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- رئيس الكليات والمعاهد ومؤسسها، أدرك بثاقب نظره، ما يتصف به فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- من علم وبعد نظر، ورجاحة عقل وحُسن معالجة للأمور، فقربه، وعرف مكانته، ومكن له، واعتمد رأيه في المناهج والكتب المقررة واختيار الكفاءات العلمية من المدرسين والمتخصصين للقيام بمهمة التربية والتعليم في الكليات والمعاهد العلمية في جميع أنحاء المملكة.

وهذا إن دلَّ فإنما يدل على توطيد أواصر الأخوة والعلاقة الطيبة بين الشيخين الجليلين والعالمين المبرزين- رحمهما الله تعالى.

ومن جهة أخرى، كان فضيلة الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- يعرف لسماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية في وقته، الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله- أقول: كان يعرف له فضله، ويُقدِّر فيه علمه ورسوخه في كثير من العلوم والمعارف فضلاً عن حُسن سياسته التعليمية وسداد رأيه وصواب توجيهاته.

والبرهان الساطع على عمق العلاقة الكريمة ورسوخها بين الشيخين الفاضلين -رحمهما الله تعالى- ما ذكره فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العجلان- حفظه الله قائلاً:

كان فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- لا يُخفي إعجابه بحركة الإصلاح والتجديد في نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- ومنهجه في الدعوة وحُسن معالجته للمشكلات التي تواجهه في دعوته، ويلمس منه إعجابه في مجال القيادة والسياسة بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود -رحمه الله- في توحيد المملكة العربية السعودية، ويظهر بجلاء احترامه وتقديره لكثير من علماء المملكة العربية السعودية، وفي مقدمتهم، الشيخان الجليلان، الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله- والشيخ عبد العزيز بن باز -حفظه الله- في علمهما وعملهما[1].

علاقته بسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز- حفظه الله:

إن من عرف سماحة العلامة المحقِّق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز عن قرب، وخالطه وجلس إليه، يدرك لأول وهلة ما منَّ الله به على هذا الإمام العالم من عقل ذكي، وقلب نقي، وخُلُق رضي، وعزم أبي، وغيرة على حرمات الله.

لقد عرفتُ سماحة العالم المربِّي، والداعية المصلح، والعلاَّمة المتقن، بقية السلف، شيخ العلماء المحققين، الإمام الرباني والمحدث الجهبذ، الشيخ عبد العزيز بن باز.

أقول: لقد عرفت سماحة الشيخ، فما عرفت فيه إلاَّ الشفقة على هذه الأُمَّة، والنصرة لهذا الدِّين، والنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم. لقد عرفت سماحته منذ خمسة عشر عاماً، عرفته أباً

(١) انظر جريدة الرياض، الثلاثاء غرة ربيع الآخر ١٤١٥هـ تحت عنوان «وداعاً أيها الإمام».

رحيماً، وشيخاً كريماً، وعالِماً مسدَّداً جمع أشتات المكارم، وتحلى بفضائل الأخلاق، فهو بحق أئمة في إمام.

لقد عرفته وعرفه غيري من أبناء هذه الأُمَّة، عرفناه، رقيق القلب، قريب الدَّمعة، نقي السريرة، طاهر الفؤاد، صافي الروح، حلو الموعظة، كريم الخُلُق، باسم المحيا، ذكاراً شكاراً، صواماً قواماً، عذب الحديث، هيِّناً ليّناً، متواضعاً، مخبتاً لله، لا يحقد ولا يحسد، ولايتكلف ما ليس عنده، يده بالعطاء ندية، ونفسه بالخير سخيَّة، فهو بحق فريد زمنه وشمس عصره، أدباً وفضلاً، وكرماً ونُبلاً.

وأقسم بالله أن عيني لم تر مثله، ولا ينكر منصفٌ بعد فضل الله فضله. إنه بحق غرة الزمان، وحصن الفضيلة، وسيف الإسلام، المنافح عن عقيدة التوحيد، والذّاب عن حياض السُّنة، والمكافح ضد البدع والمنكرات.

ووالله لوددت أني أخدم مثله، وإذا ذُكِر الصالحون فحي هلا بسماحة شيخنا عبد العزيز بن باز- حفظه الله.

لقد أدرك فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- ما منَّ الله به على هذا العالم العامل من صفات جليلة، وخِلال كريمة كان لها أعظم الأثر في توطيد أواصر الأخوة والمحبة في الله، بين العالِمين الجليلين، والشيخين الفاضلين، فحرص -رحمه الله- على هذه الإخوة المباركة والزمالة التي قَلَّ أن يوجد لها نظير بين الأقران.

وكلمة حق أقولها: إن الشيخ عبد الرزاق كان أبعد الناس عن المدح، وكان يكره أن يُمدح أو يَمدح، وكان إذا مدحه إنسان عُرفت الكراهية في وجهه، وبالرغم من كراهيته للمدح والثناء، إلاَّ أنه -رحمه الله-

كان إذا ذُكر أمامه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، أو سُئل عنه، يُثني عليه ثناءً عطراً، ويعدد محاسنه وما عليه من خصال الخير، وقد قال لي يوماً: «إن الشيخ عبد العزيز لا يعمل موظفاً عند أحد، إنما يعمل موظفاً عند ربِّنا».

ولاشك أن هذا كلَّه يبرهن على صدق محبة الشيخ عبد الرزاق لهذا الطود الشامخ الذي زامله ورافقه في العمل الدعوي من خلال اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، على مدى عشرين عاماً، ومن أظهر الأدلة وأقوى البراهين على ما ذكرته -من تميّز هذه العلاقة الطيبة بين الشيخين وصفائها- ما كتبه فضيلة الشيخ عبد الرزاق بخط يده مُعرِّفاً بسماحة الشيخ عبد العزيز، ومنوِّهاً بجهوده فقال:

هو فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز، ولد بالرياض في شهر ذي الحجة عام ١٣٣٠هـ، وحفظ فيها القرآن، وجوّده على الشيخ سعد وقاص البخاري بمكة المكرمة، وأخذ علومه في الشريعة واللغة العربية من مشاهير علماء نجد، منهم الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، والشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسين آل الشيخ، والشيخ سعد بن حمد بن علي بن محمد بن عتيق، والشيخ حمد بن فارس، وسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وكان أكثر ما تلقّاه عن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، وعليه تخرج في علوم الشريعة واللغة العربية، ورأى أن من الغبن لنفسه أن يكتفي بما حصّله من تلك العلوم أيام طلبه وتلقيه عن مشايخه، لما في ذلك من هضمها حقها وحرمانها من الحظ الوافر في العلم والدين، فتابع الإطلاع والبحث، ودأب في التحصيل وبذل جهده

في تحقيق المسائل بالرجوع إلى نطاقها في أمهات الكتب كلما دعت الحاجة إلى ذلك في تدريسه وفيما يُعرض له من القضايا المشكلة أيام توليه القضاء، وفي إجابته عما يوجه إليه من أسئلة تحتاج إلى بحث وتنقيب، وفي ردِّه على ما يُنشر من أقوال باطلة وآراء منحرفة فازداد بذلك تحصيله ورسوخه، ونبغ في كثير من علوم الشريعة وخاصة الحديث متناً وسنداً، والتوحيد علىطريقة السلف، والفقه على مذهب الحنابلة، حتى صار فيها من العلماء المبَرِّزين، وقد ولي القضاء أول عهده بالحياة العملية أربعة عشر عاماً تقريباً ابتداءً من ١٣٥٧هـ، ثم دعي إلى التدريس بالكليات والمعاهد العلمية في الرياض عام ١٣٧٢هـ، فكان مثالاً للعالم المحقق، المخلص في عمله، فنهض بطلابه، واستفادوا منه كثيراً، واستمر على ذلك إلى أن أنشئت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فعُيِّن نائباً لرئيسها العام فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، فأحسن قيادتها والإشراف عليها.

وإلى جانب ما كُلف به من أعمال، وحمله من أعباء ومسؤوليات، كان ينتهز الفرصة لوعظ الناس، وإرشادهم في المساجد، ويغشى النوادي لإلقاء المحاضرات، ويحرص على قراءة الكتب النافعة مع إخوانه، ويستجيب لمن رغب إليه من طلبة العلم في دراسة بعض الكتب عليه، فيحقق لهم أمنيتهم بصدر رحب ورغبة صادقة، ولم يحرم نفسه من نفع الناس بالتأليف مع قلة فراغه، فألف جملة من الكتب والرسائل في مناسبات وظروف تدعو إلى ذلك.

منها «الفوائد الجلية في المباحث الفرضية»، و«نقد القومية العربية»، و«توضيح المناسك»، و«رسالة في نكاح الشغار»، و«رسالة في التبرج والحجاب»، و«الجواب المفيد في حكم التصوير»، ومقال نُشر في الصحف

تحت عنوان «ما هكذا تعظم الآثار» وهو الرسالة التي طبعت ضمن رسائل وكتب الجامع الفريد.

ويغلب على مؤلفاته وضوح المعنى، وسهولة العبارة، وحُسن الاختيار، مع قوة الحجة والاستدلال، وغير ذلك مما يدل على النصح وصفاء النفس وسعة الأفق والاطلاع، وحدة الذكاء، وسيلان الذهن، وبالجملة فالشيخ قد وهب نفسه للعلم والمتعلمين، وبذل جهده في تحقيق المصالح لمن قصده أو عرف به، مع رحابة صدر، وسماحة خاطر، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأرجو أن أكون صادقاً فيما ذكرت من الحديث عنه، وألاَّ يكون ذلك فتنة لي ولا له، وأن يزيده الله به رغبة في الخير، وقوة في الإقدام عليه، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1].

قلت: ومن المعلوم الذي لا يخفى على أحد أن سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز -حفظه الله- كان يعرف لفضيلة الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- قدره، ويُقدِّر فيه علمه، وقد قال لي سماحته يوماً: إن الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- كان قليل الكلام، كثير العلم، جم التواضع، مثالاً جيداً في حُسن السيرة والمخاطبة للجمهور ويؤكد هذا فضيلة الشيخ ابن عقيل الظاهري قائلاً:

كان سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز أكثر الناس تعلقاً بالشيخ عبد الرزاق لما جرَّبه من غزير علمه ورجاحة عقله، وعفته وتورعه، ولم يأذن له بالاستراحة وقد شارف على التسعين من عمره، واحتنكته أمراض عديدة، فالتزم الشيخ جانب الحسبة ما دامت قوته العقلية لم

---

(١) انظر مقدمة الجامع الفريد (ص٧، ٨).

تضعف، فكان يذهب إلى عمله يدف على العجل[1].

وبالجملة فقد كان الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- محل الاحترام والتقدير من كبار علماء المملكة وعلى رأسهم سماحة مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز، ومن قبله سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة في وقته، ومرجع علمائها وقضاتها- رحمه الله.

علاقته بالأزهر ودُور العلم والمعرفة في مصر:

لقد كانت علاقة فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي بالأزهر علاقة وثيقة ومتميزة على الرغم من وجوده بالمملكة العربية السعودية. فهو من أبناء الأزهر وخريجيه، درس فيه، وتخرج من أعلى مستوياته، وزامل في أروقته جهابذة من العلماء، أمثال: الشيخ محمد حسين الذهبي، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، والشيخ عبد العزيز عيسى، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ محمد بن عبد المنعم النمر، والشيخ محمد محمد أبو شهبة، والشيخ محمد أبو زهو، وغيره. وقد تولى تدريسهم نفر من فحول علماء الأزهر، وجماعة كبار العلماء في مصر، وفي طليعتهم الشيخ أحمد نصر شيخ السادة المالكية، والشيخ دسوقي العربي، والشيخ عبد المعطي الشرشيبي، والشيخ إبراهيم الجبالي، وغيرهم. وقد أنضجوا فوجاً بل أفواجاً من خيرة العلماء، في مقدمتهم الشيخ عبد الرزاق عفيفي.

لقد عايش الشيخ الأزهر جامعاً وجامعة فترة من الزمن، ونهل من

---

(١) انظر كلمة الشيخ ابن عقيل في الفصل السادس (ثناء العلماء عليه).

علمه، كان أزهري الشارة والمظهر، سلفي المعتقد، محباً للسُّنة، مؤثراً لأهلها، وانتساب الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- إلى الأزهر، شرف للأزهريين الذين نهلوا من روافده الثرة، وينابيعه المتدفقة. وكلمة حق تُقال للذين يغضون من قدر الأزهر، ويبخسونه حقه، وينتقصوه بسبب وبدون سبب، أقول: لقد أمضى الأزهر أكثر من ألف عام كفاحاً في ميادين العلم والمعرفة خدمة للإنسانية، وللأمة الإسلامية، حفظ عليها تراثها، ودفع عنها عاديات الزمن، وحماها من العواصف التي هبت عليها في فترات متعاقبة عبر تاريخها الطويل، وأسهم في صنع الحضارة إسهاماً لم يغفله التاريخ في جميع مجالات الحياة[1].

لقد جلس علماء الأزهر على مدى عشرة قرون تعليماً وتدريساً، ووفاءً للأمة الإسلامية، فقهاً في الدين، وتوجيهاً للمسلمين. ومن أجل هذا الدور الرائد للأزهر وجهوده المتميزة في خدمة العلم والدِّين ونظراً لما تخرَّج من أورقته من علماء عاملين منهم ما نحن بصدد ترجمته فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي. فقد بدا لي أن أتوسع في الكتابة عن الأزهر ليعرف القارئ الكريم شيئاً موثَّقاً عن تاريخه، وجهاد رجاله وأبرز علمائه ومراكزه العلمية المتخصصة، فينزله المنزلة اللائقة به بلا غلو ولا إجحاف، ودونك -أخي القارئ- ما كتبته في هذا الخصوص مفصَّلاً!

---

(١) انظر الأزهر الشريف في عيده الألفي ص٢٧.

الأزهر وجهوده في ميادين العلم والمعرفة

لمحة تاريخية عن نشأته ومناهجه وجهوده في مجال العلم والمعرفة وأشهر عُلمائه ودعاته.

عُرف الجامع الأزهر في بادئ الأمر بجامع القاهرة نسبة إلى العاصمة الجديدة التي أنشأها جوهر بن عبد الله الصقلّي (ت٣٥٨هـ) أما تسميته بالجامع الأزهر فيظهر أنها أُطلقت عليه فى عصر العزيز بالله الفاطمي. بعد إنشاء القصور الفاطمية التى كان يُطلق عليها اسم القصور الزاهرة، وقال آخرون إنما سُمّي بذلك لما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه ولم ينشأ الجامع الأزهر في بداية الأمر ليكون جامعة أو معهداً للدراسة بل أنشأ ليكون مسجداً للدولة الفاطمية ومركزاً لنشر دعوتها.

وقد ظهرت فكرة الدراسة بالجامع الأزهر في أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي، وكانت أول حلقة دراسية في الجامع الأزهر هي: حلقة قاضي القضاة الشيخ أبي الحسن علي بن النعمان المغربي حضر فيها جمع من العلماء والأعيان. أما اتخاذه معهداً للدراسة المنظمة فكان أول من فكر في ذلك الوزير يعقوب بن كلس فقد عَيَّن بالأزهر جماعة من العلماء يعقدون مجالس في كل جمعة بعد الصلاة حتى العصر. وكان ذلك في سنة (٣٧٨هـ).

الدراسة الجامعية بالأزهر:

بدأت الحياة الجامعية في الأزهر منذ أوائل العصر الفاطمي ثم تردد إليه طلبة العلم وازدادوا يوماً بعد يوم وهاجر إليه طُلاب العلم ورواد المعرفة من شتى بقاع العالم الإسلامي، لينهلوا من معينه ومنابعه، وكان نظام الحلقة الدراسية هو نظام الدراسة في الأزهر فيجلس الأستاذ ليقرأ درسه وسط حلْقة من تلاميذه والمستمعين إليه، وتُنَظَّم الحلقات وفقاً للمواد التي تُدْرس، فيجلس الفقهاء في المكان المخصص لهم وأمامهم الطلبة يستمعون لهم، وقد بلغت الحركة العلمية والثقافية في مصر ذروتها من التقدم والازدهار في أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع الهجري حيث كان الأزهر يتمتع برعاية خاصة من الحكام.

لقد أخذ الأزهر يؤدي دوراً هاماً في الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية، حتى تبوأ في العالم الإسلامي منزلة هامة من الزعامة الدينية والعلمية والمعرفية، وكان الأزهر يعيش العصر الذهبي له من حيث الإنتاج العلمي والنفوذ الاجتماعي.

مناهج الأزهر وعلومه:

كان يُدَرّس بالجامع الأزهر العلوم النقلية والعقلية، يقول المقريزي: «فلا يزال الجامع الأزهر عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه، والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره».

ويستدل من نماذج الإجازات العلمية التي أوردها القلقشندي على كتب الدراسة التي كانت تُدرِّس في الجامع الأزهر وغيره من مدارس مصر ومنها: كتب الحديث الستة: وهي «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم»

و«سنن أبي داود» و«الترمذي» و«النسائى» و«ابن ماجه»، و«المسانيد»، و«عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني المقدسي، و«شذور الذهب» للشيخ جمال الدين بن هشام، و«المنهاج في فقه الإمام الشافعي» لأبي زكريا النووي، «وكتاب الأربعين حديثاً» للشيخ محيي الدين النووي- و«الورقات في الأصول» لإمام الحرمين، و«اللمحة البدرية في النحو» للشيخ أثير الدين أبي حيان وغير ذلك من الكتب.

وقد جرت العادة على تَدريس العلوم النقلية التي عَبَّر عنها ابن خلدون. بأنها مختصة بالملة الإسلامية في الصباح. أما العلوم الأخرى فكانت تدرس بعد العصر.

ومن أشهر العلماء الذين درّسوا بالأزهر:

ابن زولاق -(ت٧٨٣هـ)، ومن تصانيفه: كتاب «فضائل مصر»- وكتاب «قضاة مصر».

ومنهم أيضاً أبو عبد الله القضاعي الذى ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري وتوفي بها سنة (٤٥٤هـ) وقد ألّف عدة كتب في الفقه والتاريخ منها:

كتاب «مناقب الإمام الشافعي وأخباره»- وكتاباً في خُطط مصر سمّاه «المختار» وكان هذا الكتاب عوناً للمقريزي على كتابه «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار».

الأزهر وجهوده في مجال العلم والمعرفة:

إنَّ الأزهر قد أمضى أكثر من ألف عام في ميادين العلم والمعرفة والثقافة خدمة للأمة الإسلامية خاصة، وللإنسانية عامة.

فقد حفظ على الأمة الإسلامية تُراثها ودافع ونافح عنها وحماها من العواصف والتقلبات حيث كان يُمِّثل القوة الحقيقية في وجه طوفان المادية المتلاطم وشرها المتدافع، فهو أوَّلُ مَنْ يصدم السَّيل بسيل يدفعه ويقذف الباطل بحق يدفعه ويدفع في صدر الشر بخير يصرعه.

إنَّه للأمة الإسلامية نورها ومرشد أمين ومنارة ثقافية يستمد منها علومها على تنوعها وكثرتها.

كان الأزهر على مر القرون هو القلعة الشامخة التي حفظت للقرآن لغته، وللحديث مكانته، وللدين تعاليمه، وللشريعة أحكامها وللفقه أصوله وضوابطه، وللأمة الإسلامية تراثها الحضاري الفريد وأصالتها العلمية الراسخة.

وكلمة الأزهر في حياة الأمة الإسلامية كلها تمثل قمة الهرم وعلماؤه الأفاضل هم اللَّبنات القوية التي قام عليها صرحه، وتشامخ بها علوه حتى غدا مَعْلماً على الطريق.

رسالة الأزهر:

إن رسالة الأزهر ليست من الرسالات المحلية، إنها رسالة تتجاوز توصيل المعرفة للفرد والجماعة إلى تنمية العلاقات بين الشعوب العربية والإسلامية بإعتبارها أُمَّةً واحدة تجمعها أخوة الإسلام.

إن رسالة الأزهر في ذاتها تنبعث من تراثها الإسلامي الأصيل، لقد تبوأ الأزهر مكانة عالية في دراسة علوم القرآن والسُّنة وشتى العلوم والمعارف الإسلامية، والحفاظ على اللغة العربية والدعوة إلى العمل بأحكام الإسلام وتعاليمه ونُظمه وقوانينه.

إن علماء الأزهر قد جلسوا على مدى أكثر من عشرة قرون

تعليماً وتدريساً ووفاءً للأمة الإسلامية فقهاً في الدين وتوجيهاً للمسلمين. وذبًّا عن حرماتهم ودفاعاً عن مقدساتهم.

علماء الأزهر ودعاته:

وإن الأزهر ليذكر من علمائه وأبنائه ودعاته:

عز الدين بن عبد السلام- وابن دقيق العيد- والبلقيني- وابن خلدون- والسِّخاوي- والمنذري- والعراقي- وابن تغري بردي- وابن حجر العسقلاني- والمناوي- وابن عبد الوهاب المالكي- وابن الحاجب- والقرطبي- والزيلعي- والكرماني- والحافظ العيني- وابن الهمام- والبهوتي- والسيوطي- والشرقاوي- والدردير- وابن هشام المصري- والخطيب الشربيني.. وغير هؤلاء من العلماء المبرزين الذين قَدَّموا الكثير فى علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والأصول والتاريخ والأدب وعلوم اللغة وغيرها.

إنَّ الكثير من تراث الإسلام، حفظه جهابذة صادقون من علماء الأزهر وقدموه للمسلمين في مؤلفات عظيمة، اتخذها ويتخذها المسلمون كمراجع لدراستهم وينتفعون بها فى دينهم ودنياهم.

وهذا مما يؤكد ويدلِّل على أن رسالة الأزهر رسالة سامية فهو يؤدي دوراً فَعَّالاً في حياة الأمم والمجتمعات الإسلامية.

وهو يدعو إلى العبادة الصحيحة في أسلوب سهل ومسلك رشيد كما يدعو إلى تنقية التراث الإسلامي مما علق به من الأباطيل والأوهام.

تطوير الأزهر:

في الثاني عشر من شهر محرم سنة (١٣٨١هـ) الموافق (١٩٩١/٦/٧م) أصدرت الحكومة المصرية القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م بشأن إعادة تنظيم

الأزهر والهيئات التي يشملها وعرف هذا القانون باسم قانون (تطوير الأزهر).

وقد نص هذا القانون على أن الأزهر هو الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى، التي تقوم على حفظ التراث الإسلامي ودراسته وتجليته ونشره وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره في سعادة البشر وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس في الدنيا والآخرة.

وتعمل على تزويد العالم الإسلامي والوطن العربي بالمختصين من العلماء والدعاة فيما يتصل بالشريعة الإسلامية والعلوم الدينية والعربية ولغة القرآن وتخريج علماء عاملين متفقهين في الدين يَجْمَعون إلى جانب الإيمان بالله وتوحيده كفاية علمية وعملية ومهنية، لتأكيد الصلة بين الدين والحياة والربط بين العقيدة والسلوك، ومن ثمرات هذا التطوير التي تُذكر فَتُشْكَر. إنشاء مَجْمَع البحوث الإسلامية، ويختص بالبحث العميق الواسع في الفروع المختلفة للدراسات الإسلامية والعمل على تجديد التراث الإسلامي وتنقيته وتجريده من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسي والمذهبى وَتجْليته في جوهره الأصيل الخالص، وتحقيق التراث الإسلامي ونشره،وبيان الرأي فيما يستجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة، وحَمْل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومعاونة جامعة الأزهر في توجيه الدراسات الإسلامية في مرحلة الدراسات العليا والإشراف عليها والمشاركة في امتحاناته.

وقد أُنشئ مجمع البحوث الإسلامية في سنة(١٣٨١هـ-١٩٦١م). وقد استهل المجمع نشاطه بعقد مؤتمرات قَدَّم فيها مجموعة من البحوث

والدراسات الإسلامية وحرص المجمع على إصدار بحوثه باللغتين العربية والإسلامية، ومجمع البحوث الإسلامية هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية ورئيسه هو شيخ الأزهر.

ويُعد مجمع البحوث الإسلامية ركيزة للفكر الأكاديمي بين علماء المسلمين وتوحيداً لاتجاهاتهم في رحاب العقيدة الإسلامية.

وقد عُني المجمع بثروة كبيرة من البحوث والدراسات الإسلامية ومنها:

١- بحوث في علوم القرآن والسُّنة.

٢- بحوث في العقيدة الإسلامية.

٣- بحوث في مجال التشريع.

٤- بحوث في مجال الإقتصاد والمال.

٥- بحوث في العلاقات الدولية.

٦- بحوث في الجهاد الإسلامي.

٧- بحوث في الدعوة الإسلامية.

٨- بحوث في شؤون المجتمع والتربية والأسرة.

مكتبة الأزهر:

كان للأزهر مكتبة عامرة، وهناك من الأدلة التاريخية ما يُثبت أن الجامع الأزهر يحتوي على مكتبة كبيرة منذ العصر الفاطمي ما ذكره ابن ميسّر في حوادث سنة (٥١٧هـ) أنه أُضيف إلى أبي الفخر صالح الخطابة بالجامع مع خزانة الكتب.

وفي القرن التاسع الهجري أصبح لكل رواق كبير من أروقة الأزهر مثل «رواق المغاربة، ورواق الشوام» مكتبة عامرة بالكتب وذلك لتيسير البحث والدرس للمجاورين المنتمين إلى كل رواق.

واحتوت خزانة الكتب في بعض الأروقة على بضعة الآف مجلد وقد آلت معظم هذه الكتب إلى الأزهر عن طريق الوقف.

وذكر المقريزي أن الحاكم أمر بنقل نصف الكتب التي كانت بدار الحكمة إلى الجامع الأزهر والباقي إلى مسجده وقد أشار المقريزي في خططه إلى أن عدد الكتب بدار الحكمة بلغت مائة ألف كتاب.

وقد صارت مكتبة الأزهر من أشهر المكتبات في العالم، يعرفه أهل البصر بالكتب والباحثون من الشرق والغرب،ويشيرون إلى ما فيها من نفائس المطبوعات ونوادر المخطوطات في مؤلفاتهم عن الكتب والمكتبات، وهي ثانية المكتبات في مصر من حيث ما فيها من الكتب واحتوائها على كثير من نوادر المؤلفات المخطوطات.

ومكتبة الأزهر-كغيرها من المكتبات العامة- تُزَوِّد روادها على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم بالمواد العلمية في جميع فروعها.

والمكتبة الأزهرية لا تختصر رسالتها على أهل الأزهر من العلماء والطلاب، بل تفتح أبوابها لمحبِّ الاطلاع ورواد المعرفة على اختلاف أجناسهم ودياناتهم، ومعاهدهم، وتعد المكتبة الأزهرية بمثابة المكتبة الأم لمكتبات الكليات والمعاهد في القاهرة والأقاليم.

لقد كان عدد الكتب التي بدأت بها المكتبة الأزهرية فى سنة (١٨٩٧م) عند الشروع في تنظيمها (٧٧٠٣كتاباً) ويبلغ عدد كتبها الآن (٧٩١٢٣) كتاباً تقع في (١٨٣٦٦٨) مجلداً موزعة على فنون العلم المختلفة.

نصيحة للأزهر:

لا بد لعلماء الأزهر إذا ما أرادوا أن تستمر هذه المسيرة المباركة لهذا الصرح العلمي الكبير الذي خرّج أجيالاً من جهابذة العلماء ودعاة الحق ورجال الدِّين، لا بد لهم من الاعتصام بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ والعضّ عليهما بالنواجذ، مع وجوب التمسك بعقيدة السلف الصالح، قولاً وفعلاً والذَّب عن حياضها ونفي الشُّبه عنها إلى جانب تصفيتها من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، وتدريسها لطلبة العلم وحملة الشريعة نقيَّة صافية لا يكدرها شوائب المتكلمين وأقوال المُؤوِّلين، وشطحات الفلاسفة المغرضين.

ذلك أن العقيدة الإسلامية كانت ولاتزال هدفاً لأعداء الإسلام الطاعنين عليه المتربصين به.

فَحَقٌّ على الأزهر أن يُصحح مسيرة التوحيد، ويقوّم منهج العقيدة، ويُعيد النظر فيما كُتب ويُكتب ويُدرّس في هذا المنتدى العلمي الكبير.

وإنه لأحرى بالأزهر، أن يكون له الحظ الأوفر، والقِدح المعلّى من تدريس كُتُب حُفَّاظ السُّنة، وجهابذة العقيدة، وأئمة الحديث، والعناية بمصنفاتهم وإدامة النظر في مؤلفاتهم.

ويأتي في مقدمة هذه الكتب التي ينبغي أن يُعنى بها وبتدريسها «كتاب السُّنة» للإمام أحمد بن حنبل- و«السُّنة» لابن أبي عاصم- و«شرح السُّنة» للبغوي- و«شرح السُّنة» للبربهاري- و«الشريعة» للآجُري- و«شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة» للالكائي- و«منهاج السُّنة» لابن تيمية- و«الصواعق المرسلة» لابن القيم..... وغيرها كثير.

وكم هو جميل أن يقترن العلم بالعمل والقول بالفعل والعقيدة مع السلوك مع استقامة في الظاهر وصلاح في الباطن.

إن الأمة الإسلامية اليوم أحوج ما تكون إلى قيادة الأزهر وجهود علمائه حين تكون له كلمة نافذة، واستقلال صحيح، حتى تعود الثقة إلى الأزهر كما كانت عليه من قبل.

تراجم لبعض علماء الأزهـــــــــر

ومِن علماء الأزهر الذين حملوا رسالة الإسلام وبلّغوا أمانته ونشروا دعوته وكان لهم قَدَم صدق في الدعوة إلى الله عز وجل.

الشيخ محمد الخراشي:

هو الشيخ محمد بن عبد الله الخراشي، ولد في بلدة أبو خراش، مركز شبراخيت محافظة البحيرة في عام (١٠١٠هـ). كان شيخ المالكيين في عصره ورِعاً تقّياً متقرباً إلى الله بالعلم وخدمة الدين.

تَلقّى علومه على يد نخبة من العلماء الأعلام منهم والده الشيخ جمال الدين الخراشي والشيخ إبراهيم اللقاني وغيرهما.

درس العلوم المقررة بالأزهر ومكث عشرات السنين يتلقى العلم ويُلقّنه، ومن تلامذته بعض مشايخ الأزهر كالشيخ عبد الباقي القِلّيني والشيخ إبراهيم الفيومي.

وقد عُرِف عنه التواضع ودماثة الخُلق وكرم النفس، وكان زاهداً متقشفاً.

من آثاره العلمية: «رسالة في البسملة»، «فتح الجليل»، «الشرح الكبير في الفقه».

الشيخ إبراهيم الفيومي:

ولد الشيخ إبراهيم الفيومي عام (١٠٦٢هـ) وتلقى علومه بالأزهر وتتلمذ على طائفة من علمائه، ويُعد الشيخ الفيومي من علماء الحديث

والمتبحرين في اللغة، تتلمذ عليه الكثير من العلماء الأفذاذ كالشيخ الدمياطي والشيخ الصعيدي. وكان عالماً ورعاً من كبار علماء المالكية المشهود لهم بالورع والتقوى.

تولى مَشْيَخَة الأزهر سنة (١١٣٣هـ) وتوفي سنة (١١٣٧هـ) رحمه الله. من آثاره العلمية: «شرح على العزية في فن الصرف» وهو في مجلدين.

الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي:

هو الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي- ولد بقرية ورَّاق الحضر من قرى محافظة الجيزة سنة (١٢٦٤هـ). وتلقى تعليمه بالأزهر على يد أفاضل العلماء مثل الشيخ عليش وغيرهم.

عُيِّن عضواً في إدارة الأزهر ثم وكيلاً للأزهر ولم يترك التدريس طيلة هذه الفترة.

تولى مشيخة الأزهر سنة (١٣٣٥هـ) وقد عاصر أحداث الثورة المصرية سنة (١٩١٩م) وما تلاها من صراع بين الشعب والمستعمرين وحكامه وقد قاد مسيرة الأزهر في خضم تلك الأحداث حتى توفي سنة (١٣٤٦هـ) من آثاره العلمية:

«الطراز الحديث في فن مصطلح الحديث»، «حاشية على شرح العضد في أصول الفقه».

الشيخ عبد الرحمن الشربيني:

هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشربيني، تلقى تعليمه بالأزهر واشتهر بالتعمق في دراسة المصادر القديمة.

أخذ مكانة في التدريس بالأزهر، وأصبح معروفاً بالعكوف على

القديم من كتب التراث حيث إنه كان من أنصار القديم، وقد كان مشفقاً على الأزهر من الانغماس في العلوم الحديثة وإهماله لعلومه الأصلية.

تولى مَشْيَخَة الأزهر عام (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م). وتوفي سنة (١٣٤٤هـ).

من آثاره العلمية: «فيض الفتَّاح على شرح المفتاح» في البلاغة.

الشيخ عبد الله الشرقاوي:

هو الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي، ولد في قرية الطويلة من قُرى محافظة الشرقية سنة (١١٥٠هـ).

حفظ القرآن الكريم في قريته، ثم رحل إلى القاهرة، فتلقَّى تعليمه في الأزهر على يد أعلام العلماء كالملوي والجوهري والصعيدي والحفني والدمنهوري.

تولى المشيخة عام (١٢٠٨هـ) في مرحلة من أهم مراحل التاريخ المصري، حيث عاصر الثورة ضد الفرنسيين، وكان في مُقدِّمة زعماء الشعب، وواحداً من عشرة هم أعضاء مجلس الشورى الذي تَقَرَّب به نابليون إلى الشعب المصري.

عاش ثورة الشعب المصري وانتفاضته، وأُبلي بلاءً حسناً في حفاظه على الأزهر وحمايته.

توفي عام (١٢٢٧هـ).

من آثاره العلمية: «التحفة البهية في طبقات الشافعية» تراجم فقهاء الشافعية- «فتح المبدى، شرح مختصر الزبيدي» في الحديث- «حاشية على كتاب التحرير» في الفقه الشافعي- «تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين».

الشيخ سليم البشري:

هو الشيخ سليم بن أبي فراج البشري - ولد في محلة بشر من قرى محافظة البحيرة عام (١٢٤٨هـ).

تلقى علومه بالأزهر على يد نخبة من علمائه وذاع صيته وقد تخرّج على يديه كثير من الأزهريين النابهين، وبجانب تدريسه للعلوم الشرعية واللغوية في الأزهر كان شيخاً في المالكية وعضواً في مجلس إدارة الأزهر.

تولّى مشيخة الأزهر عام (١٣١٧هـ).

كانت له مواقف تشهد بشجاعته وبُعد نظره وحكمته مما رفع من شأن الأزهر ومنسوبيه.

من آثاره العلمية: «الاستئناس في بيان الأعلام وأسماء الأجناس» وغيرها.

الشيخ محمد مصطفى المراغي:

ولد الشيخ محمد مصطفى المراغي ببلدة المراغة التابعة لمركز سوهاج سنة (١٢٩٨هـ). حفظ القرآن الكريم. ثم حضر إلى الأزهر فتلقّى علومه ودرس على كبار علمائه- واتسم الشيخ بسعة الأفق، وأقبل على كل مصادر المعرفة وقد عمل قاضياً بالسودان ثم رئيساً للمحكمة الشرعية العليا عام (١٣٤١هـ) ثم عُيِّن شيخاً للأزهر عام (١٣٤٦هـ)- ثم استقال ثم عاد إلى المشيخة عام (١٣٥٣هـ). وتوفي سنة (١٣٦٣هـ).

ومن جهوده تعديل نظام هيئة كبار العلماء وإضافة شروط جديدة لاختيار أعضائها. وقد أنشأ مراقبة البحوث والثقافة الإسلامية عام (١٣٦٣هـ) وتختص بالنشر والترجمة والبعوث الإسلامية والدعاة.

من آثاره العلمية: «تفسير جزء تبارك»، و«مباحث لغوية وبلاغية» وتفسير كامل للقرآن الكريم «تفسير المراغي».

الشيخ عبد المجيد سليم:

هو الشيخ عبد المجيد سليم، ولد سنة (١٣٠٣هـ-١٨٨٢م) في قرية (ميت شهالة) من قرى المنوفية، وتلقى تعليمه بالأزهر على يد علمائه.

حصل على العالمية من الدرجة الأولى عام (١٣٢٦هـ) وقد عاصر أحداث وطنه وشارك فيها، وشغل الكثير من المناصب الدينية في الأزهر والقضاء الشرعي والإفتاء. وكان لآرائه الدينية صدىً بعيد في العالم الإسلامي.

أشرف على الدراسات العليا في الأزهر - ورأس لجنة الفتوى وأسهم في تطوير الأزهر، توفي عام (١٣٧٢هـ).

من آثاره العلمية: فتاوى تبلغ بضعة عشر ألف فتوى، وله مقالات ودراسات في الصحف والمجلات.

الشيخ إبراهيم حمروش:

ولد الشيخ إبراهيم بن إبراهيم الحمروش في قرية الخوالد مركز إيتاي البرود - سنة (١٣٠١هـ) ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم وتلقى علومه بالأزهر ودَرَس على أعلام العلماء وقد حصل على العالمية من الدرجة الأولى سنة (١٣٢٤هـ).

وقد عمل مدرساً بالأزهر، ثم قاضياً بالمحاكم الشرعية،ثم عميداً لكلية اللغة العربية ثم رئيساً للجنة الفتوى، كما كان عضواً في مَجْمَع اللغة العربية منذ أنشائه سنة (١٣٥٠هـ).

تولَّى مَشْيَخَة الأزهر سنة (١٣٦٩هـ) وله مواقف شجاعة، توفي سنة (١٣٧٨هـ).

من آثاره العلمية: «عوامل نحو اللغة»، فصول ودراسات في مجلة المجمع اللغوي- وغيرها.

الشيخ محمد الخضر حسين:

ولد الشيخ محمد الخضر حسين بمدينة نقطة بتونس سنة ١٢٩٣هـ وحفظ القرآن الكريم ثم التحق بجامعة الزيتونة ونال شهادة العالمية سنة ١٣٢١هـ.

تولى التدريس في الزيتونة وأنشأ مجلة السعادة العظمى ثم ولي قضاء بنزرت إلى جانب التدريس والخطابة بمسجدها، كَرَّس قلمه وبيانه لمحاربة الاستعمار وقد استقر المقام به في القاهرة حيث حصل على العالمية من الأزهر وأصبح من علمائه وأساتذته،وشارك في النشاط العلمي والعملي- وعُيِّن رئيساً لتحرير مجلة الأزهر، ثم عضواً في مجمع اللغة العربية، ثم رئيساً لمجلة لواء الإسلام، وقد تولى مَشْيَخَة الأزهر سنة (١٣٧١هـ)، وقد توفي رحمه الله سنة (١٣٧٧هـ-١٩٥٨م).

من آثاره العلمية: «كتاب القياس في اللغة العربية»، «نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم»، «نقد كتاب الشعر الجاهلي».

الشيخ محمود شلتوت:

هو الشيخ محمود شلتوت من علماء الأزهر ولد في (منية بني منصور) مركز إيتاي البارود محافظة البحيرة، حفظ القرآن الكريم، وتلقى علومه بالأزهر وحصل على العالمية سنة (١٣٣٦هـ) عمل مدرساً بمعهد

الاسكندرية الديني سنة (١٣٣٧هـ)، وقد انتقل إلى القاهرة مدرساً بالقسم العالي بالأزهر، وقد حظيت رسالته (المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية) بالتقدير والإعجاب.

واكتسبت الشريعة الإسلامية واللغة العربية في عهده ذيوعاً وانتشاراً.

وقد عُيِّن عضواً في مجمع اللغة العربية سنة (١٣٦٤هـ) وفي سنة (١٣٦٨هـ) عُيِّن مراقباً عاماً للثقافة والبحوث الإسلامية بالأزهر وفي عام (١٣٧٥هـ) عُيِّن وكيل للأزهر، ثم تولى مشيخة عام (١٣٧٦هـ). توفي سنة (١٣٨٣هـ-١٩٦٣م).

من آثاره العلمية: «فقه القرآن والسنة»، «منهج القرآن في بناء المجتمع»، «القرآن والمرأة»، «القرآن والقتال»، «تنظيم العلاقات الدولية في الإسلام»، «الإسلام عقيدة وشريعة».

الشيخ محمد شاكر:

ولد الشيخ محمد شاكر بجرجة من أعمال الصعيد عام (١٢٨٧هـ) حفظ القرآن الكريم وتلقى علومه بالأزهر.

عُيِّن أميناً عاماً بالفتوى عام (١٣١١هـ) ثم قاضياً بالمحاكم الشرعية ثم قاضياً لقضاة السودان، ثم شيخاً لعلماء الإسكندرية عام (١٣٢٢هـ) ثم عُيِّن وكيلاً للأزهر عام (١٣٤٧هـ).

وكان عضواً في هيئة كبار العلماء، كما كان عضواً في الجمعية التشريعية وكان عَلَماً من أعلام أحداث عام (١٩١٩م). توفي سنة (١٣٥٧هـ) رحمه الله.

من آثاره العلمية: «القول الفصل في ترجمة القرآن»، «الدروس الأولية في العقائد الدينية».

الشيخ محمد حسنين مخلوف:

ولد الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي ببني عدي مركز منفلوط محافظة أسيوط سنة (١٢٨١هـ) في بيئة علم وصلاح.

حفظ القرآن الكريم ثم تلقى علومه بالأزهر وحصل على العالمية بامتياز سنة (١٣٠٨هـ) ثم عمل مدرساً بالأزهر، ثم أميناً لمكتبة الأزهر. وقد عُيِّن مفتشاً أول للأزهر والمعاهد الدينية ثم عضواً بمجلس إدارة الأزهر.

ثم مديراً عاماً للأزهر والمعاهد الدينية ثم عضواً في مجلس الأزهر الأعلى - ثم عضواً بهيئة كبار العلماء وقد نال احترام الحكام ورجال الدولة. وتوفي سنة (١٣٥٤هـ) رحمه الله.

من آثاره العلمية: «حكم ترجمة القرآن»، «عنوان البيان في علوم التبيان»، «رسالة في مبادئ الفنون»، «القول المبين في حكم المعاملة بين الأجانب والمسلمين»، «رسالة في حكم زكاة الأوراق المالية»، «القرآن تفسير وبيان».

هذا وقد خرَّج الأزهر غير هؤلاء أفواجاً من جهابذة العلماء وأجيالاً من الدعاة والمربين والأدباء وحملة الشريعة وأمماً لا يحصون كثرة ممن دافعوا ونافحوا عن دين الله وحملوا لواء السُّنة ويأتي في مقدمة هؤلاء ممن تخرجوا من الأزهر في القرن الرابع عشر الهجري فضيلة الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي (المترجم له) وفضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق وغيرهما ممن أبلوا بلاءً حسناً في نصرة هذا الدين وأهله، تغمد الله الجميع بواسع رحمته.

علاقته بالجماعات الإسلامية وموقفه منها:

إن الإسلام دين كامل، وتنظيم شامل، إنه نور في البصائر، وصلاح في الباطن والظاهر، لا خير إلا وقد احتواه، ولا شر إلا وقد نفاه، إنه ينبوع المحلل، وأساس الديانات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(1).

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(2).

لقد جاء الإسلام فكان أعظم مقاصده توحيد الله وإخلاص العبادة له، ثم العناية بجمع شتات الأجناس والأمم في إطار واحد، لا فرق بين أبيض وأسود، ولا بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى، حتى أفرغ جميع أتباعه في قالب واحد وهو قالب الأمّة الوسط التي جمعت شتات الفضائل، ونبذت كل عوامل الانحطاط.

لقد بلغ المسلمون الغاية عندما كانت صلتهم بهذا الدين قوية، فانتظم أمرهم واجتمع شملهم، وعزّت دُوَلهم.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾(3).

إن المسلمين اليوم في مسيس الحاجة إلى اجتماع الكلمة، والتئام الصف وتوحيد القصد والهدف، والدعوة إلى ما يؤلِّف بين قلوبهم، ويوفِّق

---

(1) سورة آل عمران: الآية (١٩).

(2) سورة آل عمران: الآية (٨٥).

(3) سورة الفتح: الآية (٢٩).

بين مشاعرهم ووجدانهم، وسلوكهم وأعمالهم، ولا يكون ذلك ولن يكون إلا بالاعتصام بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ وهو القائل: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»**[1].

إن حاجتنا إلى التمسك بالكتاب والسُّنة فوق كل حاجة، وضرورتنا إلى ذلك فوق كل ضرورة، خاصة في هذه الأيام التي انقسمت فيها الأمَّة الإسلامية إلى فِرقٍ وأحزاب متناحرة أسرت نفسها في ربقة الرمز، وضيق الشعار ومستحدث اللقب الذي يكون في البداية- «كلمة» وفي النهاية «نحلة»، واشتد طمع الأعداء في فرقتها وتناحرها، فكثرت دعوتهم إلى ذلك، وتنوعت الشُّبه التي يزرعونها بين الصفوف[2].

وكان من أثر ذلك أن دبَّ الضعف إلى جسد الأمة الإسلامية وأصيب بنيانها بالتصدع واجتماعها بالتناثر، وطرقت النداءات والنزعات والشعارات أبوب البلاد الإسلامية وعقدت مع الإسلام مصالحة مشبوهة، وهنت معها أواصر الأخوة، وتزعزع فيها الولاء لله ورسوله، واهتزت فيها روابط العقيدة ولم تزل الأواصر تضعف، والخلاف يستشري، حتى أصبح واقعاً ملموساً ومنهجاً محسوساً، أستبيح بسببه الحمى، ونهبت من أجله الديار، ووقع كثير من بلاد المسلمين في أزمات مادية ومعنوية خانقة وتداعت عليها الأمم وأودت بها الأهواء إلى منعطفات خطيرة ومسالك وعرة، وأقبل أبناء الأمة بعضهم على بعض يتلاومون ولعمر الله إنهم لن يزالوا كذلك حتى يطهر الإيمان قلوبهم ويعيد بناءهم وتماسكهم، ويرصهم

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ في القدر رقم ٣ باب النهي عن القول بالقدر، والحاكم في المستدرك (٩٣/١).

(٢) انظر حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية (ص٦) لفضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد.

في ميادين الإصلاح والجهاد والعمل المثمر البناء أشرافاً كرماء[1].

لقد أدرك فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- أنه لا سعادة ولا حياة لأمة الإسلام إلا بالإسلام، بقاؤها مرهون بالتمسك به، وفناؤها راجع إلى التفريط فيه، ولذا كان شغله الشاغل وهدفه الأسمى، جمع الأمة على الكتاب والسُّنة، فحذّر من سلاح الدَّس والخديعة للأعداء، وهو سلاح بغيض يلجأون إليه إذا أعيتهم الحِيل للنيل من الإسلام وأهله بالقوة والسيف.

لقد أبان عن هذا كلِّه -رحمه الله- تحذيراً للأمة وإعذاراً إليها وذلك في كلمته الضافية في العدد الأول من مجلة الهدى النبوي.

ومما جاء في هذه الكلمة قوله: فلما أعيتهم الحيل للنيل من الإسلام وأهله بالقوة والسيف أو بالحجة والبرهان، عمدو إلى السلاح النسوي سلاح الدس البغيض والتلبيس، فلبسوا لذلك لأمة النفاق، وتدرَّعوا بدروع التقيَّة خشية الظنون والرِّيب وخشية أسياف الغيورين من المجاهدين، مستبطنين الكفر والعدوان فأوضعوا خلال المسلمين، يبغونهم الفتنة[2].

وفي موضع آخر يقول -رحمه الله-: إن ما ترزح تحته الأمة الإسلامية اليوم من تفرق في الرأي، وضعف في الدفاع، وتأخر إلى الوراء حين يتقدم غيرهم، ليس كل ذلك إلا نتيجة غفلتهم عن مخططات أعدائهم

---

(١) نقلًا عن كتاب توجيهات وذكرى لفضيلة الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد (ص٤١ - ٤٢) بتصرف.

(٢) انظر كلمته في العدد الأول من مجلة الهدى النبوي والصادرة في ربيع الآخر عام ١٣٥٦هـ - وعنوان الكلمة (أمانة العلم وصفات العلماء).

وبُعدهم عن تراث السلف الصالح وسلوكهم لغير خطتهم علماً وعملاً وفي موضع ثالث يتحدث الشيخ -رحمه الله- عن حقيقة العداوة بين المؤمنين والكافرين وطرق مواجهتها فيقول:

إن العداوة التي بين المؤمنين والكافرين عداوة قديمة مستأصلة، وأن الخصومة التي بين الفريقين خصومة مستحكمة، وأن قلوب الكافرين لم تزل ولا تزال تتوهج فيها جمرات الغيظ، وتشتعل فيها نيران الضغائن والأحقاد، لا يكاد يخبو لهيبها أو تخمد جمرتها، بل لا تزال تزداد يوماً بعد يوم، وتتخذ ألواناً مختلفة من الكيد والتلبيس، وأشكالاً من الحروب الضارية خفية وجهرة، سراً وعلانية، وما خفي منها أشد ضراوة، وأعظم فتكاً بالمسلمين مما ظهر، ولذا حذرنا الله من موالاتهم واتخاذ بطانة منهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[1].

تارة تكون حرباً مادية تدور رحاها في الجو أو البحر أو على بساط الأرض بالطائرات والغواصات والدبابات وأمثال ذلك من الأسلحة الفتاكة، وتارة تكون نظرية تدور رحاها في عالم الأفكار بإلقاء الشُّبه، ونشر نظريات الإلحاد ونحوها لتشكيك المسلمين في دينهم، وبزلزلة

---

(١) سورة آل عمران: الآيات (١١٨ ـ ١٢٠).

العقيدة في نفوسهم، ومحو ما في قلوبهم من حق ويقين، وآونة تكون حرب أعصاب وفتن توهن العزائم، وتبعث الرعب في القلوب، وتحطم وحدة المسلمين وتفرق جماعتهم بما تلقيه في نفوسهم من بذور الأثرة وأسباب العداوة والبغضاء وتجعل بعضهم حرباً على بعض، إلى غير ذلك من ألوان الكيد والحروب، فلابد للمسلمين أن يواجهوهم بمثل أسلحتهم، يواجهونهم بأسلحة مادية يضعونها في نحورهم، ويقضون بها عليهم، ويواجهونهم بأدلة علمية يثبتون بها الحق في قلوب المؤمنين ويمحون الشُّبه حتى لا تكون فتنة ولا إلحاد، ولا حيرة ولا شكوك ويواجهونهم بإيجاد يقظة في الأمة الإسلامية، ونشر الوعي فيها حتى ينكشف لهم ما بخصوصهم من الكيد والدس، وحتى لا يغتروا بالبهرج الكاذب والمظاهر الخداعة، ولا يأخذ التهريج من نفوسهم مأخذه.

وكل هذه المواجهات والمكافحات أنواع من الجهاد في سبيل الله، فيجوز أن يستعان في القيام بها بأموال الزكاة وغيرها من تبرعات المحسنين من أغنياء المسلمين، وبيوت الأموال في الدول الإسلامية عن طريق ولاة الأمور، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى، وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة، وإن الله لسميع عليم، والله الموفق. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وفي معرض حديثه عن الفِرَق وثمار التفرق المرة يقول فضيلته:

كان الناس أُمّة واحدة على الحق بما أودع الله فيهم من فطرة الإسلام، وبما عهد إليهم من الهدى والبيان، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فاجتالتهم الشياطين عن الصراط المستقيم، وسلكت بهم بُنيّات الطريق، فمتزقت وحدتهم واختلفت كلمتهم، فبعث الله النبيِّين

مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾[2].

وقال ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه»[3]. الحديث. وقد أمر الله -تعالى- في كتابه وعلى ألسنة رسله بوحدة الكلمة والاعتصام بشرعه، وحذّر من الفرقة والاختلاف، وبين عاقبة ذلك بما ذكر من أحوال الأمم الماضية، وما حاق بها من الدمار، وأصابها من الهلاك، وحثهم على البيان والبلاغ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نُصرةً للحق، وإزالة للشبهة، وإحباطاً لكيد دعاة السوء واستهوائهم النفوس الضعيفة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢١٣).

(٢) سورة الروم: الآية (٣٠).

(٣) رواه البخاري (الفتح ١١/٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة آل عمران: الآيتان (١٠٢ ـ ١٠٣).

(٥) سورة الأنعام: الآية (١٥٩).

وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١).

وعن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسَّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ محدثة بدعة وكلَّ بدعة ضلالة**»(٢). إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

ومع ذلك دبَّ الخلاف بين الناس، فما مِن أُمة من الأمم إلا وقد اختلفت بهم الأهواء حتى وضع كلٌ لنفسه أصولاً يبني عليها مذهبه وإليها يرجع في خصومته. فتناقضت مذاهبهم، وصار كلُّ واحدٍ حرباً على أخيه، وشُغل بذلك عن كتاب الله، وهدْي رسوله ﷺ، إلا أنه -سبحانه- جرت سنته واقتضت حكمته أن يُقيِّض للحق في كل عصر جماعة تقوم عليه، وتهدي الناس إليه، انجازاً للوعد بحفظ دينه، وإقامة للحجة، وإسقاطاً للمعاذير، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٣).

وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٥٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) سورة فاطر: الآية (٢٤).

(٤) سورة الحجر: الآية (٩).

وقال ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كُلّها في النار إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة». وفي رواية، قالوا: يا رسول الله! مَنْ الفرقة الناجية؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي». وفي رواية، قال: «هي الجماعة يد الله على الجماعة». رواه أبو داود والترمذي والنسائي[1] وغيرهم. وفي الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق...» الحديث[2].

وقد تبيَّن من ذلك أن الفِرقة الناجية أهل السنة والجماعة، وإن شعارها كتاب الله، وهدْي رسوله عليه الصلاة والسلام، وما كان عليه سلف الأمة الذين يؤمنون بمُحْكَم النصوص ويعملون بها، ويردون إليه ما تشابه منها، وأمَّا الفِرَق الضَّالة فشعارها مفارقة الكتاب والسُّنة وإجماع سلف الأمة واتباع الأهواء، وشرع ما لم يأذن به الله من البدع والآراء الزائفة بناءً على أصول وضعوها، يوالون عليها، ويعادون، فمن وافقهم عليها أثنوا عليه وقرَّبوه، وكان في زعمهم من أهل السُّنة والجماعة، ومَّنْ خالفهم تبرَّأوا منه ونبذوه وناصبوه العداوة والبغضاء، وربما رموه بالكفر والخروج من ملة الإسلام لمخالفته لأصولهم الفاسدة.

وبعد هذه المقتطفات من مقالات الشيخ وكتاباته يدرك القارئ الكريم حرص الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- على اجتماع كلمة

---

(١) رواه أحمد في مسنده وابن ماجه (٣٩٩٣) وفي الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٢) رواه البخاري (الفتح ٧٣١١/١٣) ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

المسلمين والتمسك بالإسلام لأنه الدِّين الذي تجتمع عليه القلوب، وتتآلف به الشعوب، جامعة تتضاءل أمامها الشعارات القبلية، والدعوات العنصرية، والانتماءات الحزبية، وبه تتلاشى كل الدعاوى الجاهلية.

ولأجل هذا كرَّس الشيخ حياته، خدمة لدينه، ودفاعاً عن عقيدته، فضلاً عن الدعوة الصادقة والمستمرة في العودة إلى كتاب الله تلاوة له، وتفقهاً فيه والاعتصام بسُّنة رسول الله ﷺ والعضّ عليهما بالنواجز.

وقد حاول -رحمه الله- إرجاع الناس إلى هذين الأصلين العظيمين والمصدرين الكريمين من مصادر التشريع، وبذَل من أجل ذلك كل ما يمكن بذله.

حقاً لقد أحبَّ السُّنة، كيف لا وهو إمام من أئمتها، حَمَل لوائها وذبَّ عن حياضها، ودافع ونافع عنها، وكان عطوفاً حدباً، على المنتسبين إليها، وفضلاً عن ذلك كلِّه فقد كان له القدح المعلى في تأسيس أول جماعة لها تعرف بـ «جماعة أنصار السُّنة المحمدية في الاسكندرية» وهي فرع من جماعة أنصار السُّنة في القاهرة، وقد وضّحت سابقاً أن الشيخ عبد الرزاق -رحمه الله- كان وكيلاً لجماعة أنصار السُّنة المحمدية في القاهرة ثم آل به الأمر إلى توليه رئاسة جماعة أنصار السُّنة في مصر كلها خلفاً لمؤسسها الأول فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي -رحمه الله.

وكلمة حق أقولها، وشهادة أدين الله بها: إن هذه الجماعة هدفها الأعظم وسبيلها الأقوم؛ إحياء سُنَّة رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً واعتقاداً ومحاربة البدع ومحدثات الأمور، ودحض الأباطيل والأوهام التي لا تمتُّ إلى الدِّين بصلة، وهي اسم على مسمَّى فهي بحمد الله قائمة على

التوحيد داعية إليه مؤثرة له، وقد شهد لها بذلك كبار حملة الشريعة ورواد العلم ودعاة الهدى، وقد ورد استفتاء إلى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء برئاسة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز -حفظه الله- يسأل فيه المستفتي عن حقيقة جماعة أنصار السنة المحمدية في مصر والسودان فأجابت اللجنة بقولها:

جماعة أنصار السُّنَة المحمدية في مصر ثم السودان، جماعة إسلامية سُنية سلفية، تدعو إلى الله على منهاج النبوة في التوحيد، والتعبد والسلوك، وتعقد الولاء والبراء على الكتاب والسُّنة، هذا معروف عنها -ولله الحمد- فهي تمثل جماعة المسلمين الحقة في وسط المجتمعات التي تعج بأنواع الفرق والنِّحل، وقد نفع الله بهم خلقاً كثيراً من العلماء وطلبة العلم وعامة الناس.

وهذا الاسم «جماعة أنصار السُّنة المحمدية» إنما صار لتتميز به أمام الجماعات والفِرَق التي داخلتها البدع والأهواء المضلة، وعقد الولاء والبراء ليس على هذا الاسم، وإنما هو على الكتاب والسُّنة والحب في الله والبغض في الله.

ولهذا لا يجوز تفرقهم، ولا تفريق كلمتهم، ومن سعى في هذا أو رماهم بالتحزب المقيت فقد اعتدى عليهم وظلم نفسه[1].

ويمتدح سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية «مجلة التوحيد» التي تصدرها جماعة أنصار السُّنة المحمدية قائلاً: بخصوص مجلة «التوحيد» التي تصدرها جماعة أنصار السُّنة المحمدية في جمهورية مصر

---

(١) انظر فتوى اللجنة الدائمة رقم (١٦٧٢) وتاريخ ١٤١٥/٣/١٣هـ.

العربية- هي مجلة إسلامية تنشر العقيدة الصحيحة وتدعو إلى الأخلاق الفاضلة، وتحذر من البدع وسائر الأمور المخالفة للشرع المطهر، فهي جديرة بالدعم والمساعدة والاشتراك فيها حتى تستمر في جهادها المبارك في نشر الحق والفضيلة.

ويذكر فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس - إمام وخطيب المسجد الحرام- بأن هذه الجماعة ليست جماعة حزبية وإنما هم أناس نذروا أنفسهم للدعوة إلى الله ولنصرة السُّنة والتركيز على العقيدة الصحيحة، وإلى دعوة الناس إلى الوحيين[1].

ومما يؤكد ما ذكره فضيلة الشيخ عبد الرحمن السديس - حفظه الله- عن هذه الجماعة ماكتبه فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي في كلمته الضافية «مبدأ وميثاق»[2] موضحاً منهج هذه الجماعة ولب دعوتها قائلاً:

من أجل ذلك نجد جماعة أنصار السُّنة المحمدية يكثرون من الكلام في التوحيد في دروسهم،وخطبهم وكتاباتهم، ولهم في ذلك خير أسوة، أسوتهم في ذلك أئمة الهدى وقادة الإصلاح المؤيدون من الله بوحيه ونصره أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

هذا وإن جماعة أنصار السنة المحمدية قد أخذت على نفسها أن تعتصم بكتاب الله وتهتدي بهدي رسوله عليه الصلاة والسلام وتجعل سيرة السلف الصالح نصب أعينها، عقيدة وقولاً وعملاً لا تُؤثر على

(١) استمع إلى محاضرته القيمة (الشيخ عبد الرزاق عفيفي - حياته وجهوده) والتي ألقيت في المسجد الكبير (ببحرة).

(٢) انظر مجلة الهدي النبوي - عدد ربيع الآخر سنة ١٣٧٩هـ.

ذلك شيئاً ولا ترضى به بديلا من آراء الرجال الضالة، وأهوائهم الزائفة، عملا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١). وما في معناه من الآيات والأحاديث، والتزمت ما ألزمها الله به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وعهدت إلي برئاسة الجماعة بعد وفاة مؤسسها بمصر، ورئيسها السابق، فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه الله عن الدعوة إلى الدين، ونشر التوحيد خير الجزاء، فكان لزاماً علي أن أقوم بهذا الواجب وأسير بالجماعة على هدي كتاب الله، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ابتغاء مرضاة الله في نشر دينه، وتحقيقاً لمبدأ التعاون في نصرة الحق.

وأرجو الله أن يهيئ لنا جميعاً من أمرنا رشداً، وأن يلهمنا الرشد، والصواب في القول والعمل، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وبعد هذا التعريف بجماعة أنصار السُّنة المحمدية في مصر وبيان حقيقة دعوتها وثناء العلماء عليها، فإنه يمكن القول بأن فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- كان على علاقة حسنة وطيبة مع سائر الجماعات الأخرى في مصر، مع عدم إقراره -رحمه الله- لمناهج الكثير منها، وكان أبعد الناس عن الغلو، فلم يغلو في أحد أو يجفو أحداً، ومع ذلك لم يألُ جهداً في النصح لهذه الجماعات باتباع سبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين، والبعد عن التفرق في الدِّين، وأن يكونوا على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضي الله

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١). وانظر مجلة الهدي النبوي المصرية ـ عدد ربيع الآخر سنة ١٣٧٩هـ.

عنهم أجمعين ومن تبعهم بإحسان، وذلك بالتزام جماعة المسلمين ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار، قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[2].

وكان الشيخ -رحمه الله- إذا سُئل: هل على المسلم أن يلتزم جماعة بعينها، قال: من أراد أن يلتزم جماعة مُعينة فليلتزم أسعدها بالحق وأتبعها لكتاب الله وهدْي رسوله محمد ﷺ وأئمة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، رضي الله عنهم أجمعين.

والواجب على كل إنسان أن ينضوي تحت جماعة المسلمين «أهل السنة والجماعة» الذين درجوا على منهاج النبوة ولم ينفصلوا عنها لحظة واحدة، فليس لهم شخص ينتمون إليه سوى النبي ﷺ، وليس لهم منهاج سوى منهاج النبوة «الكتاب والسُّنة».

لقد كان لنصح الشيخ ورفقه بالمنصوحين الأثر البالغ في إقبال الناس على السُّنة وتعظيمهم لها، وتقديم الكتاب والسُّنة على ما سواهما، وهذا والله منهج العلماء العاملين، والدُّعاة المصلحين، فإن غاية الغايات عندهم دعوة الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم في أصل دينهم، وتعريفهم وتبصيرهم بما يقربهم إلى ربهم وخالقهم ومعبودهم مع الرفق بهم ورحمتهم. ومع الرفق واللين يُقبل الناس على الدِّين. وهذا ما حدث بالنسبة لمن جلسوا إلى الشيخ وقعدوا منه مقعد الدرس والتحصيل، فقد

(١) سورة الروم: الآيتان (٣١ ـ ٣٢).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

استفادوا من علمه، وتأثروا بأخلاقه وسعة صدره، وأفادوا غيرهم من طلبة العلم ومحبي المعرفة، وغدوا دعاة وهداة، يدعون إلى الله على بصيرة، لقد غدوا سُنيِّين، ودعاة ربانيين. أحّلوا السُّنة سويداء قلوبهم، فجدُّوا في الدعوة إليها، وصبروا على الأذى في سبيلها، فرحم الله الشيخ عبد الرزاق رحمة واسعة وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المبحث التاسع

مكتبته وعمل يومه وليلته

مكتبته:

إنَّ مما لا شك فيه أن المكتبات في كلِّ أُمَّة عنوان وعيها وتطورها، كما أنها هي المقياس لتقدم تلك الأمم ونهوضها، إذ هي من أهم ركائز المعرفة وأقوى دعامات العلم، فهي زاد لا ينضب، ومعين لا يجف، تُتحف القارئ والباحث والطالب والمعلم ورواد العلم والمعرفة بروافد ثرة، وينابيع متدفقة من الفوائد والمعارف والعلوم.

إن جَمْع الكتب وإدامة النظر فيها والغوص في أعماقها من أهم الأسباب المعينة على تحصيل العلم.

قال عبد الله بن المبارك: من أحب أن يستفيد فلينظر في كتبه(١).

ولقد صدق من قال:

نعم المؤانس والرفيق كتاب ... تخلو به إن ملَّك الأصحاب
لا مفشياً سراً ولا متكبرا ... وتفاد منه حكمةٌ وصواب(٢)

وقال ابن الأعرابي يصف الكتب:

---

(١) انظر تقييد العلم ص١٤٠.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/٢٠٣).